العالِق في الزَّمن

العودة إلى دمشق

ولاء عودة أبو غندر

(ح) ولاء عودة ابوغندر ، ١٤٤٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابوغندر ، ولاء عوده مساعد

العالق في الزمن: العودة لدمشق. / ولاء عوده مساعد ابوغندر

.- ينبع ، ١٤٤٠ هـ

..ص ؛ ..سم

ردمك: ٧-٠٨٢١-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص العربية - السعودية أ.العنوان

ديوي ١٤٤٠/٨٨٢٠ ٨١٣,٠٣٩٥٣١

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٨٨٢٠

ردمك: ٧-٠٨٢١-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

المغامرة الرابعة والأخيرة: العودة لدمشق.

{ وتلك الأيام }

ال عمران(١٤٠)

في شمال مدينة الياسمين؛ حيث يقع القصر الملكي وعلى يمينه بالضبط يقع المستشفى الملكي ببنائه الشاهق، وقبته العالية التي ترفرف فوقها راياتُ الاتحاد الخضراء، كانت تعبرُ ممرَّات المستشفى وعيناها مسلطتان على البلطات الخزفية البيضاء، وما إنْ فتحت باب المخرج وشعرت باتِّساع الأرض مِن تحتها والمسافات المخضرة حتى رفعت عينيها إلى السماء التي كانت مظلمة، والنجوم قد تناثرت على صفحتها بكثرة، لقد بدت أشدّ لمعاناً مِن الليلة السابقة مما جعل شفتيها تنفرجان قليلاً تعبيرًا عن دهشتها. التقطت نفساً عميقاً، تناهى إلى سمعها صوتُ تحرُّك الحشائش مِن خلفها؛ فالتفتت بفزعٍ سرعان ما تبدَّد حينما شاهدته يقتربُ نحوها ببزَّته العسكرية، وعيناه الرماديتان اللتان التمعتا ما إنْ تحرَّك وسقطَ عليه نور القمر، وهو يقول: آسف! هل أفزعتك؟

حرَّكت رأسها نافية وهي تقول: منذ متى وأنت هنا معلمي؟

تابع تقدُّمه حتى وقف إلى جوارها وأجاب: كنتُ أعلم أنَّه لا يمكنني أنْ أقابلك إلا هنا.

ابتسمت بخجلٍ وأشاحت عينيها هاربةً؛ فقد فهمت بأنَّه يعاتبها بذلك؛ لذا لم تجد بدًّا مِن تغيير سير الحديث؛ فنطقت: كيف هو حال (كادي)؟ سآتي غداً مساءً؛ لمعاينتها، وسأشرب الشاي معكما إنْ أمكن.

أدرك هروبها؛ فابتسم، ثم رفع عينيه إلى السماء وعلَّق بدهشة: ألا تبدو السماء غريبة اليوم؟!

رفعت عينيها هي الأخرى وسرحت في ذكرى قديمة كانت السماء حينها ممتلئة بالنجوم اللامعة والأرض مِن تحتهم مخضرةً بالعشب وكان يقف فوقها ثلاثة.

فرجت شفتيها هامسة: كنّا ثلاثة، ثم خفضت عينيها ومالت بهما يميناً، ولوهلةٍ بدا لها طيفه يقف إلى جوارها ينظر هو الآخر إلى السماء.

حينئذٍ تناهى صوتُ عزف الناي؛ فالتفتا معًا ناحية الصوت، علَّق (حارث): هذا عزف (طاهر)؟

أومأت موافقة فأتبع: لا شكَّ أنَّه ينتظرك.

نطقت بشرود: اللحن...

تطلَّع إليها باهتمام، فنظرت إليه بعينين ممتلئتين بالدموع وهي تتم: حزين!

اقترب منها وأراح كفَّه على كتفها ونطق: أنتِ ترهقين نفسك بالعمل، إلى متى تنوين الهروب هكذا؟

هربت بعينيها وابتعدت خطوةً إلى الوراء في حرج وهي تقول: أظنُّ أنَّ (طاهرًا) بانتظاري، سأذهب.

خفضت رأسها بوقار، ثم استدارت مغادرةً، فسمعت صوته منادياً: (سحـــــــاب)...

توقفت تستمعُ لما يريد قوله، كانت أعماقه تشعر بالأسى والحزن تجاهها، كان يشعر بأنَّها مازالت عالقة في ذكرياتها القديمة، مازالت غارقة في الحنين إلى الماضي، ومازالت تلوم نفسها؛ لذا لم يستطع أنْ يخفي تأثُّرَه وهو يقول: أخبريني فقط، ما الذي يمكنني أنْ أفعله مِن أجلك؟ أريد أنْ أرى (سحاب) التي أعرفها مجدداً، سأفعل أيَّ شيء.

شخصت عيناها لوهلة؛ إذ فاجأها ذلك، ولكن سرعان ما ذبلتا وهي تجيبه: لقد رأيته في حلمي مؤخراً، وكان حلماً غريباً، كان يقف في قاعة المرجان، وكنتُ أحمل بيدي ناياً فسقط منّي وانكسر، وكان الجنود حولنا يتقاتلون، وفي وسط ذلك القتال المرعب...

ابتسمت بسخرية مُتبعةً: رأيته يمدُّ إليّ كفه.

توقف العزف فجأة؛ فالتفتت إليه، وهبَّت رياحٌ مفاجئة حركت أطراف وشاحها وفستانها الأبيض يميناً، وارتسمت نظرةٌ ساخرة في عينيها وتابعت: إنْ كنتَ تريد حقاً أنْ تفعل شيئاً مِن أجلي، فكل ما أريده فقط هو ...

*****

القرن الواحد والعشرون، الساعة السادسة مساءً.

بقرب أحد مقاهي لندن، وحول طاولةٍ خشبية جلس الاثنان معًا، نظر إلى ساعته بينما كان (رائد) منشغلاً بمراقبة البخار المتصاعد مِن كوب قهوته الفرنسية بالبندق.

علَّق (زين) وهو يخفض يده: عليَّ أنْ أتجه إلى المطار حالاً، طائرتي ستقلع قريباً، ثم التقط كوب قهوته، وما إنْ قرَّبه مِن فمه حتى عاد لينظر إلى (رائد) الذي كان ما يزال سارحاً، سأله: ما بك؟ تبدو واجماً، لأول مرة أرى شخصًا يتخرَّج ثم يُظهر هذه التعبيرات على وجهه!

فغر (رائد) فمه ببلاهةٍ، فأتبع (زين) قوله: بالمناسبة، متى ستعود؟ لا تقل لي أنَّك تنوي الاستقرار هنا!

أطبق شفتيه وبدا أنَّه قد استوعب أخيراً؛ فدارت عيناه بطيشٍ، ثم رفعهما ناحية (زين) وسأل: ولماذا عليَّ أنْ أستقر؟

رفع (زين)حاجبيه مستنكراً السؤال، ثم ضحك بسخرية وهو يجيب: ببداهة، عليك أنْ تستقر؛ لتعيش، ستعمل، ستتزوج...

قاطعه وهو يمسك بكوبه ويرد بضجر: وأنجب أبناءً، وأستمرُّ بالذهاب إلى العمل كل يوم، ومشاهدة الأفلام في العطلة مع زوجتي، ثم متابعة ردود المتابعين على الصفحة العنكبوتية...، ثم ماذا؟

كتَّف (زين) ذراعيه وضحك بسخرية وهو يقول: حسناً، هذا هو الشيء الطبيعي.

ضرب (رائد) بأطراف أصابعه على الطاولة وهو يتبع: ثم تكبرُ بطني وأصبح مثلك!

هز رأسه رفضاً للفكرة وأتبع: هذا مملٌّ.

لوى (زين) فمه وهو يرد: لا تبالغ، على أيةِ حال لم تكبر بطني إلى الحد الذي تشير إليه أنت.

ارتشف مِن قهوته وهو يقول مؤكداً: ستكبر يوماً ما.

ضحك (زين) برقة ثم سأل بجدية: ما الذي يحدثُ معك؟ منذ الصباح وأنت لست على طبيعتك، حتى أنَّك لم تكن سعيداً أثناء الحفل، هل هنالك شيء يضايقك؟ أخبرني.

لم يرد عليه، وسرحت عيناه بكوبه للحظة، ثم عرج بهما نحو السماء، ورغم كلِّ الأضواء الساطعة حوله، كانت النجوم أشد سطوعاً وروعة حتى أنه اعتقد وكأنَّ هذه الليلة ممتلئة بالنجوم أكثر مِن غيرها.

نطق بشرود: لقد أخبرَتني بأنَّني سأجدها في كلِّ سماء.

خفض عينيه ببطءٍ نحو (زين) وهو يتم: ولكنّي لم أجدها.

تطلع (زين) إليه مستنكراً ومستفهماً: مَن تقصد؟

رفع عينيه إلى السماء مجدداً وأجاب: (سحاب).

ابتسم (زين) بتعجُّبٍ وهو يسأل: أيُّ سحاب هذا الذي يتحدَّث ويخبرك؟

نفخ الهواء بضجرٍ مِن فمه وهو يرد: لا بأس، دعك مِن هذا.

ثم أكملَ ما بقي في كوبه، بينما ظلَّ (زين) ينظر إليه باستغراب محاولاً قراءة خاطره دون جدوى، ثم ارتشف هو الآخر قهوته.

وضع الكوب على الطاولة وظلَّ يحدِّق في السماء وقلبه ينطق: الغبية، ألم تعلم بأنَّي لم أكن لأصل إلى السماء!

ومِن دون أنْ يشعر كانت يداه قد طحنتا الكوب الورقي.

ابتسم (زين) وهو يقول: سأكون بانتظارك، أخبرني عن أحوالك، وماذا قررت، ثم وقف معتدلاً وأتم: سأغادر الآن.

وقف (رائد) سريعاً وهو يقول: سأوصلك إلى المطار.

وبعد أنْ أوصله إلى المطار وودعه، عاد إلى شقته في شارع هالي.

خلع حذاءَه واتجه سريعاً إلى غرفته دون أنْ يشعل الأضواء، فتح دولاب الملابس وأخرج علبةً خشبية ووضعها على السرير.

فتحها وأخرج الساعة الزمنية منها، وأخذ يحدِّق فيها ويلومها ككل مرة:

لماذا أصبحتِ خردة؟ لماذا توقفتِ عن العمل؟

أحكم قبضته وضرب عليها ولكنَّها لم تنفتح، تبرَّم وجهه، وقذف بها على السرير بانزعاج، ثم قذف بنفسه، وأدار لها ظهره، أغمض عينيه ونطق: سأضربها، أريدُ أنْ أذهب؛ لأضربها فقط لما فعلته بي.

أطبق شفتيه بوجعٍ وطافت ذكرياتٌ متتابعة في خياله؛ فانقلب إلى الجهة الأخرى بتذمر.

فتح عينيه؛ وإذ بالساعة الزمنية أمامه مباشرة، وعبرت في خياله الصورة الأخيرة التي حرص على استدعائها كل ليلة لئلا ينسى ملامحها، وجهها الصارخ بالألم وهي تقول له: ستجدني في كلِّ سماء!

ومِن دون أنْ يدرك، كانت دمعةُ حنينٍ أفلتت مِن عينيه وانحدرت سريعا نحو الوسادة.

لقد كنتُ قادراً حقاً أنْ أبقى معلقاً في الزمن مِن أجلك، لمَ فعلتِ ذلك (سحاب)؟

وأخيراً، وفجأة، وبعد لحظةٍ طال انتظارها انبثقت أضواءٌ ملونة مِن ساعة الزمن دفعته إلى إغماض عينيه مِن شدتها، فجلس والتقطها سريعاً، ازداد خفقان قلبه وهو يشاهدها تفتح عن نفسها ويخرج القرص الثاني منها، رفع سبابة تهتز نحوها وحركها قليلاً، ورنَّ صوتٌ مِن الذكريات في أذنه قائلاً: كان أينشتاين يحب العزف على الكمان.

نزع العقرب وعلت شفتيه بسمةٌ فرحة وهو يقول: أخيراً سأعزف لحن العودة، ثم مرَّر العقرب على الساعة؛ فانتشرت الأضواء سريعاً وتداخلت. وما هي إلا لحظات حتى أصبحت الغرفة خاوية.

الفصل الأول: الأشياء التي لن تعود.

في كلِّ مرةٍ نمارسُ فيها المغادرة لا ندركُ بأنَّنا قد تركنا جزءاً منَّا لا يعود.

شعر بأنامل تهزُّ كتفيه؛ ففتح عينيه ببطءٍ، ثم سرعان ما أغلقهما بعد أنْ شعر بلفحةِ أشعة الشمس الساقطة عليه؛ فرفع ذراعه وغطى وجهه؛ وإذ به يسمع صوتاً يسأل: هل أنتَ بخير؟ هل فقدت وعيك؟

أزاح ذراعه لينظر؛ وإذا بشابٍ في السادسة عشرة من عمره يقف فوق رأسه، شعره بنيٌّ أشعث قليلاً، وعيناه بنيتان يدهشك صفائهما، وشفتاه واسعتان رقيقتان تميل إلى الحمرة، وعلى وجهه القمحي ذي الملامح الصغيرة ارتسمت معالم القلق.

اعتدل (رائد) مستنداً إلى كفيه، فساعده الشاب وهو يكرِّر: هل فقدتَ وعيك؟ هل تريد أنْ أحضر لك دواءً؟ ممَّ تعاني؟

صمت ولم يجبه؛ إذ سرعان ما عقدت الدهشةُ لسانه عندما رفع رأسه ورأى كلَّ هذه العمارة والحركة مِن حوله! كان الناس يغدون ويروحون كلّ في طريقه، وعلى ملامحهم ترتسم الجدية والنشاط.

سمع صوت خرير الماء يعلو مِن خلفه، وتناثرت بضع قطرات على كتفيه؛ فالتفت وإذا بحوضٍ نجمي الشكل مزينٌ بالفسيفساء الزرقاء والبيضاء، تعلوه نافورةٌ تُخرج الماء بأشكال هندسية متقاطعة، علَّق الصبي خلفه: إنَّها الساعة الثانية عشرة تماماً.

نظر إليه (رائد) متسائلاً؛ فعلق باستنكار: هل هذه أول مرة ترى فيها نافورة تعمل قبل أوقات الصلاة؟

ثم رفع إصبعه وهو يشير أمامه وأتبع: بقي نصف ساعة.

وقف (رائد) وابتعد بضع خطوات، وأمال رقبته إلى الخلف ليشاهد خلف أعمدة المياه المرتفعة قبةً عالية شاهقة تحيطها ستُّ مناراتٍ جميلة، فغر فمه بدهشة وسأل: أحقاً هذه مدينة الياسمين؟!

ندت مِن شفتيه بسمةٌ وأعماقه تهتف: لقد نجحوا في إعمارها أكثر مما تخيلت!

التفت إلى الشاب وعلَّق لا يخفي فرحه: لقد كنتُ هنا مِن قبل، ولم تكن المدينة على هذه الحال؛ لذا أنا مندهشٌ حقاً!

غمرت الريبة قلبَ الشاب؛ فراح يمعن النظر في ملابسه التي بدت له غريبة جداً، ثم اقترب منه وسأل: مِن أين قدمتْ؟

أجاب سريعاً دون تفكير: مِن لند..

بتر الحرف الأخير وتنحنح صوته وهو يجيب: أعني مِن بغداد.

رمقه بنظرةٍ مستخفة به وهو يعلق بتحامق: وهل يلبس البغداديون مثل ملابسك؟

كانوا يفعلون ذلك.

قالها وهو يبتسم ببلاهة، ثم تلفت حوله؛ ليستطلع المكان أكثر، وابتعد عنه عدة خطوات ثم عاد إليه؛ ليسأل: منذ متى وأنت تقطن هنا؟

أجابه بوقاحة: هذا لا يعنيك!

حكَّ (رائد) جبينه وهو يبتسم، ثم ثبَّت كفه على كتف الشاب وقال مؤكداً: اسمع، أنا لستُ مريباً، أعلم بأنَّك تفكر في هذا الآن وتقول في أعماقك: مَن هذا الشاب الغريب صاحب هذه الملابس العجيبة؟ صحيح؟ أليس هذا ما تفكر فيه؟!

فغر الشاب فمه ورمقه باستهتار، ثم لفظ كفه المتثبتة على كتفه، ولكن (رائدًا) تمسَّك بالكتف الأخرى وهو يقول مؤكداً: اسمع، إنَّني أبحث عن أصدقاء لي هنا، هذا كلُّ ما في الأمر.

أزاح يده الأخرى وهو يعلق: وجئتَ مِن بغداد تبحث عن أصدقاك فقط! عليَّ أنْ أصدق هذا؟!

أومأ موافقاً رغم إدراكه عدم تصديقه له، ثم سأل: هل تعرف سكان هذه المدينة جيداً؟

زم شفتيه، ثم كتَّف ذراعيه وأجاب بصوت متباهٍ: يبدو أنَّك لا تعرف مع مَن تتحدث، إنَّهم ينادونني بعرَّاف المدينة، إنَّني أعرف أفرادها واحداً واحداً، أعرف أين يقطن كلُّ فردٍ فيها، وماذا يفضِّل وماذا يكره.

لم يرق لـ(رائد) تباهيه هذا، فابتسم له ببلاهةٍ؛ ليخفي سخريته، ثم سأل: إذن، سأصدقك إنْ أخبرتني أين يمكنني أنْ أجد رجلاً طويلاً، مفتول العضلات، ذي شعرٍ طويل بندقيّ اللون...

أعاد (رائد) كفه لخلف رقبته وهو يشير إليها ويتبع: طويل، تحت كتفه تقريباً، وهو يعقده عادة، اسمه: (ليونهارد)، تلعثم قليلاً وأتبع: بل (حارث)، اسمه (حارث)، إنَّه لا يتحدث العربية جيداً، و..

صمت قليلاً، ابتلع ريقه وتابع بتردد: ومعه امرأة أقصر مني تقريباً.

مطَّ شفتيه للحظة مفكراً ومحدثاً نفسه: ربما تجاوزتني الآن.

حرك رأسه نافياً ثم أتبع: حسناً، لا يهم، شعرها أشقر، وعيناها رماديتان، وحول أنفها..

قاطعه متسائلاً: ما الذي تريده منهما بالضبط؟

-قلت لك: إنَّني أبحث عنهما، إنَّهما صديقاي.

هزَّ رأسه وقال بتملُّقٍ واضح: لكنّي لا أعرفهما، ثم بدا واضحاً بأنَّه يهمُّ بالاستدارة، أوقفه (رائد) بقوله: مهلاً، ربما تعرفهما باسمي: (حارث) و(سحاب).

صمت للحظة متردداً وأكمل: أو ربما يكون اسم المرأة (ماري).

رمقه باستخفافٍ وهو يرد: قلتُ لك: لا أعرفهما، ثم استدار مغادراً، لكنَّ (رائدًا) قفز سريعاً وقاطع تقدمه وهو يقول: أنت تكذب، مِن الواضح أنَّك تعرفهما.

ندت منه ضحكةٌ ساخرة، ثم استحالت ملامحه لغضب مصطنع ونطق: وهل تعتقد بأنّني ساذجٌ إلى هذه الدرجة؟ إنَّك وقحٌ حقًا، ألم تشاهد قبل ساعات فقط إعدام الخونة الذين تجسسوا لصالح (بيين)؟ ما يدريني بأنَّك لست منهم؟

حدجه مطولاً ثم حاول تجاوزه، لكنَّ (رائدًا) حاصره بذراعيه مجدداً وهو يقول راجيًا: قلت لك: لستُ مريباً، ولستُ ممن ذكرت، أنا لا أعرف أحداً هنا، أرجوك ساعدني! عليَّ أنْ ألتقي بهما، لقد جئت حقاً؛ للقائهما.

حركَّ ساقه يميناً ثم شمالاً لكنَّ (رائدًا) كان يحول دون تقدمه، بدا واضحاً إصراره، فقدَ الشاب هدوءَه؛ فعاد إلى الوراء سريعاً بضع خطوات، وبحركةٍ سريعة أخرج سيفه مِن غمده ورفعه في وجه (رائد) وهو يقول: ابتعد إنْ أردتَ أنْ تبقي رأسك في مكانها.

دقَّق (رائد) النظر فيه، كان يقف فارجاً عن ساقيه قليلاً وممسكاً بقبضة سيفه بيده اليمنى، وواضعاً كفه اليسرى فوق اليمنى بمسافة بسيطة، هذه الوقفة وهذا التأهُّب هو أسلوب (حارث).

ندت منه ابتسامه غريبة، جعلت الشاب يرتاب أكثر ويسأل بغضب: لماذا تبتسم الآن على هذا النحو الغريب؟ إنَّني جادٌ فيما أقوله.

اقترب (رائد) منه؛ فثبت السيف أكثر، ولكن ملامحه الواثقة قد انقلبت إلى ملامح متوترة، توقف (رائد) عن التقدم وقال: مِن غير اللائق أنْ ترفع السيف في وجه من هم أكبر منك سناً، خاصة إذا كان هذا الشخص هو صديق معلمك سيِّد عراف.

شخصت عيناه وخفض سيفه قليلاً وظل يرمقه للحظات ثم نطق: اسمي: (إياد السايس)، هكذا يناديني الجميع، سأعترف: لقد فوجئت عندما أخبرتني باسم معلمي القديم، قليلٌ مَن يعرفه هنا باسم: (ليونهارد).

أبعد (رائد) السيف بكفه واقترب حتى أصبح على بعد خطوة منه وهو يقول: هل صدقتني الآن؟ إنَّ معلمك هو معلمي أيضاً؛ بل هو مِن أعزّ أصدقائي، فهل ستأخذني إليه الآن؟ إنَّ معلمك سيسعد كثيراً برؤيتي.

اعتدل وأعاد سيفه إلى غمده؛ فابتسم رائد وأتبع يستحثه على الموافقة: سأطلب منه أنْ يكافئك، ثم مدَّ له كفه مصافحاً وهو يقول: اسمي: (رائد)، هل ستأخذني إليه الآن.

نظر لكفه الممدودة، ثم دقق في عينيه وقال: قلت بأنَّه صديقك، حسناً لدي شرط، سآخذك إليه شرط أنْ تجعله يضمن لي عملاً بالقصر، إنهَّم يرفضونني؛ لصغر سني.

كزَّ على أسنانه وهو يتبع بغيظ: مع أنَّ مَن هو أصغر مني يحمل رتبة أمير، تباً!

اجعلني أعمل تحت قيادة (حارث)، وسأدلُّك عليه.

فغر (رائد) فمه بدهشة ونطق: أهذا يعني أنَّ (حارثًا) يعمل هنا؟

ابتسم مندهشاً، وما إنْ همَّ بأن ينطق حتى تردَّد فيما يجيبه، فكر للحظة قبل أنْ يقول: أظنني لا أستطيع أنْ أعدك بذلك.

ألم تقل بأنَّه أعز أصدقائك؟

لكن....

صديقك هذا هو نائب قائد الحرس الخاص، لن يكون مِن الصعب عليه فعل ذلك.

رفع (رائد) حاجبيه مستنكراً: هل أنت جاد؟! (ليو) هو نائب قائد الحرس الخاص؟!

ابتسم (إياد) بتباهٍ وهو يجيب: أتعلم بأنَّه مستشار قائد الجيش الموحد أيضاً؟!

لم تسعه الفرحة؛ فندت منه ضحكةٌ مرتاحة وهو يعلق: يبدو أنَّه قد حدثت أشياء كثيرة أثناء غيابي.

خفض عينيه إلى الأسفل يتأمل التراب، كانت تلك الذكريات مِن دومدري تعبره فجأة، في تلك اللحظة التي كان (ليو) يختبئ فيها داخل كوخه، دمعت عيناه؛ فرفعهما عن الأرض، وإذ بـ(إياد) يشير إليه نحو أحد الأزقة وهو يقول له: اتبعني، سآخذك لمعلمي الآن.

عبرا الزقاق، ثم سارا بجوار بيوت كثيرة، ثم عبرا مِن حديقة جميلة للغاية مزروعة بالياسمين الهندي، وأخيراً توقفا في السوق.

كانت عينا (إياد) تبحثُ في كلِّ مكانٍ حولها، علق قائلاً: متى آخر مرة قابلت معلمي؟ لقد تزوج معلمي العام الماضي.

توقف (رائد) عن استطلاع ما حوله، لم يكن قادرًا على استيعاب ما سمعه للتو؛ لذا التفت إليه بعينين ذاهلتين وهو يسأل: هل قلت أنَّ (ليو) تزوج؟!

أومأ موافقاً، فكرَّر (رائد) بتعجب: (ليو) تزوج؟! (ليو) تزوج؟!

هز رأسه نافياً وحدَّث نفسه: يبدو أنَّ أشياءً كثيرة حصلتْ في غيابي، إن كان (ليو) تزوج، فهل...

أنقذه مِن تلك الفكرة المرعبة التي راودته للحظة كفُّ (إياد) التي ضربت على كتفه، ثم تراجع إلى الوراء سريعاً، ليس هذا وحده؛ بل كان الناس ينفضُّون فجأةً ويتجهون إلى اليمين أو الشمال؛ ليوسعوا الطريق؛ إذ كان الوزير الأول يسير محاطاً برجاله وسط السوق؛ أما (رائد) فلم يكن قد استوعب ما يحدث بعد، وظلَّ واقفاً مكانه في المنتصف مما جعل الرقاب تتجه ناحيته مستنكرة ومتسائلة.

كان خافضاً رأسه ينظر لكتفه التي تلقى عليها الضربة للتو، ثم تنبَّه لشخصٍ يقف أمامه، رفع عينيه وإذا بجندي يرمقه بحدة وهو يقول: تحرك!

ألقى (رائد) نظرةً سريعة مستطلعاً، كانوا ستة جنود، يتوسطهم رجل يبدو مِن قفطانه الحريري بأنَّه شخصٌ مهم للغاية، كان ذو ملامح هادئة، عكس أعماقه الثائرة، عيناه قاتمتان، وأنفه حادٌّ كالسيف، وشفته العليا عريضة نوعاً ما، وفوقها يتربَّع شاربان خفيفان.

ضرب الجنديُّ بطرف غمده كتفَ (رائد) وهو يأمره بالتحرك.

استنكر (رائد) فعلته، وتملَّكه شعور بإهانة كبريائه؛ فأشار بعينيه إلى يمين الجندي ونطق: يمكنك أنْ تعبر مِن هنا، إنَّ الطريق متَّسعٌ بالفعل.

رفع حاجبيه مندهشاً مِن رده الذي عدَّه تجاوزاً لمقام سيده الوزير العالي؛ فأمسك بتلابيب ثوبه وقال مهدداً: مَن تظنُّ نفسك لتقف في منتصف الطريق؟

وسريعاً حوصر (رائد) بستة سيوف حول عنقه، ونطق رئيسهم: سيدي، إنَّ شكل هذا الرجل مريب، إنَّه يلبس ملابس غير لائقة وغريبة، ربما يكون جاسوساً.

اقترب الوزير منهم حتى أصبح (رائد) على مدِّ بصره، التقت عيناهما، وثمة شعور غريب نبت بينهما في تلك اللحظة جعل الوزير يأمر بتردد واضح: أوثقوه!

قام أحدهم بلي ذراع (رائد) إلى الخلف؛ فراح يقاومه وهو يصرخ معترضاً: مهلاً، أنا لم أفعل شيئاً، ما ذنب ثيابي!

ثم تمكن مِن دفع أحد الجنود بذراعه الأخرى؛ فالتفوا حوله الستة بسيوفهم مجدداً، ثم أحكموا عليه، ودفعوه للجثي على ركبتيه؛ كي يوثقوه.

حينئذ، سُمع صوتٌ قادم مِن الخلف يقول: المعذرة سيدي الوزير!

شخصت عينا (رائد) وهو يهمس: الصوت!

دار بعنقه محاولاً أنْ يجد له فرجة مِن بين تلك الأجساد التي أحاطت به وحجبت رؤيته.

سمع الصوت ذاته مجدداً يقول: أرجو أنْ تترك هذا الشاب سيدي! فهو صديقي، وقد نزل في ضيافتي، إنَّه قادم مِن مملكة (بيين)، ولم يبدل ثيابه بعد.

صرخ (رائد) ببهجة وهو يقول: (ليـــــــــــو)!

أشار الوزير لحراسه بالابتعاد؛ فتركوه وأوسعوا له المكان، وما إنْ التقت عيناهما حتى اندفع نحو (حارث)؛ ليعانقه بحرارة، وهو ينطق بشغف: هذا أنت (ليو)! هذا أنت!! أنا لستُ مصدقاً.

ربَّت (حارث) على ظهره، ثم حاول إبعاده قليلاً وهو يقول بالشغف ذاته: لحظة، دعني أرى، دعني أراك جيداً؛ لأتأكد.

ولكنه لاحظ نظرات الوزير المرتابة التي كان ينظر إليهما بها؛ فأبعد (رائد)، والتفت إليه وقال: أعتذر منك سيدي الوزير!

حدج(رائدًا) بنظرة احتقار، وقال وهو يوجه حديثه إلى (حارث): علمه أنْ يحترمَ آداب الطريق، ثم استدار متابعاً طريقه وسط جنوده، بينما ظلَّ (رائد) يتبعه بنظرات احتقار هو الآخر ونطق بسخرية: وما الذي فعلته؟ كان الطريق واسعاً!

ثم التفت بشغفٍ نحو (حارث) إلا أنه باغته بضربة على جبينه؛ فصرَّ (رائد) على أسنانه وهو يعلق: أهكذا تستقبلنـ.

لم يكمل كلمته؛ إذ لفَّه (حارث) بين ذراعيه معانقاً، وطرفت عيناه سامحة لدموعه بأنْ تأخذ مجراها إلى شفتيه، ونطق بصوت متأثِّر: لقد عدت (راد)، أكاد لا أصدق!

ابتلع ريقه وأتبع: أيُّها الأحمق، لقد ظللتُ لدقائق أنظر إليك وأنت تسير، وظننت أنَّني أشاهد شبحاً أو أنَّني واهم، لكن حينما أوقعت نفسك بمصيبة..

ضحك وهو يمسح دموعه بأصابعه ويتم: أدركتُ بأنَّه أنت ولا شك، ثم صمت قليلاً وأخذ يربت على ظهره، ثم اعتدل وأمسك بكتفيه ونطق: قل لي بربك كيف عدت؟

ابتسم (رائد) رغم عينيه الدامعتين، وأخذ يدقق النظر في عينيّ (حارث) بودٍّ وشوقٍ؛ فشعر بالحرج، وأشاح بوجهه بعيداً وهو يمسح بقايا دموعه.

في تلك اللحظة ألقى الوزير نظرةً خلفه، وهمس بأذن حارسه الشخصي قائلاً: ذلك الشاب، ابحث جيداً عن خلفيته، مَن يكون؟ ومِن أين جاء؟ وماذا يريد؟ وماهي علاقته بذاك الأعجمي.

كان (إياد) هو الآخر يراقبهما من بعيد، ويبتسم محدثاً نفسه: لقد كان صادقاً، إنَّه صديقه بالفعل، ثم ابتعد قليلاً وسرعان ما توقف وألقى نظرة سريعة ناحية (رائد)، وأشار بسبابته ناحيته وهو يتم بأعماقه: سأتركك الآن، ولكني سأعود؛ لتحقق لي ما طلبته منك، ثم غادر.

سأل (حارث) متعجباً: كيف عرفت أنَّنا في دمشق؟!

-خمَّنت.

ابتسم وهو يجيب، ثم مالت عيناه يميناً؛ حيث كانت أزهار الياسمين معلقة في واجهة المتجر، تتمايل مع نسمات الهواء اللطيفة وكأنّها حسناء ترفل بثوبها الأبيض والأصفر، ولوهلةٍ فتح عينيه على آخرهما؛ إذ خيل إليه بأنَّه يرى (مارغريت) وكأنها تقف أمامها ضامة كفيها، والريح تدفع شعرها، والربطة البيضاء تتمايل وتكاد أنْ تسقط.

طرفت عيناه واختفت (مارغريت) وعاد لينظر إلى (حارث) بارتباك ويجيب: بسبب الياسمين، كنتُ أعلم بأنَّ (سحابًا) راغبةً في زراعته بشدة.

بدا على وجه (حارث) الارتباك هو الآخر، وبدت عيناه وكأنَّهما تخفيان شيئاً أو تهربان مِن شيء ما، لاحظ (رائد) ذلك سريعاً؛ لذا أتبع بتوتر واضح: أخبرني عنك (حارث)؟ ما الذي تفعله هنا؟ كيف هو وضعك؟

أمسك (حارث) بكفه وقال: علينا أولاً أنْ نبدل ثيابك المريبة هذا أول شيء سنفعله.

دفعه للسير معه، سأل (رائد) بتطلُّعٍ وسخرية: أخبرني (ليو) هل تزوجت حقاً؟ مَن هي هذه المرأة التي قبلت بك؟

رفع كفه الممسكة به وضرب بها على جبينه؛ ليخرسه وهو يقول: أرى بأنَّك مازلت سليط اللسان!

ابتسم وأجاب: وأنت مازلت تباغتني بضرباتك!

شدَّ على كفه وهو يتابع طريقه ويقول: بل قل: إنَّ مهارتك قد ضعفت وارتخت عضلاتك حتى أنَّ كفك عادت ناعمة، ما الذي كنتَ تفعله بالضبط كل تلك المدة؟

توقفا أمام متجرٍ للملابس وأجاب (رائد): حسناً، كنتُ آكل جيداً، وأنام جيداً، وأقرأ جيداً، وأشرب قهوة جيدة، وأذهب إلى الجامعة، و...

صمت قليلاً، بدا متردداً، ولكنه مع هذا أحدَّ النظر في عيني (حارث) وكأنه يستجدي جواباً منه وأتم: وأنظر إلى السماء كلّ يوم.

وجم وجه (حارث) للحظة، فقد أدرك ما يعنيه جيداً، طرف بعينيه إلى الجهة الأخرى، وعلق ببلاهة: آآآه!

خفض (رائد) رأسه إلى الأسفل لا يعلم لماذا شعر بأنَّ قلبه يهوى فجأة مِن أعلى جرف.

وفي تلك اللحظة تماماً وقعت عينا (حارث) على المتجر في الجهة الأخرى، وشخصت عيناه على آخرهما، وشعر بالعرق يتفصد من جبينه إلى الحدِّ الذي جعل شعر مقدمة رأسه يبتلُّ سريعاً.

أما (رائد)، فقد كان يقلب الملابس بين يديه، وما إنْ رفع عينيه نحو (حارث) حتى تحرك سريعاً ووقف أمامه مباشرة محاولاً أنْ يحجب رؤيته عما يقف خلفه، استغرب (رائد) مِن تصرفه هذا فسأل: ماذا؟ لماذا تقف أمامي هكذا؟

ابتلع ريقه دون أنْ يجيب؛ فتحرَّك (رائد) خطوةً إلى اليمين، وإذ بـ(حارث) يندفع إلى اليمين؛ ليسد عليه الطريق.

انكمش وجهه وسأل: ما الذي تفعله؟ أريد أنْ أعبر؟ ما الذي أصابك (ليو)؟!

حرك ساقه يساراً؛ فتحرك (ليو) في الاتجاه ذاته.

رمقه (رائد) بغيظ؛ فنطق (حارث) بارتباكٍ وهو يشير إلى يساره: سنذهبُ مِن هناك، هناك متجرٌ أفضل أشتري منه وأتعامل معه.

شعر بالريبة وأدرك أنَّ (حارثًا) يحاول أن يخفيَ عنه شيئاً خلفه، فدفعه؛ ليبعده، وما إنْ تحرك قليلاً حتى سقطت عيناه على جانب شخصٍ يقف أمامه، تجمدت عيناه وشعر وكأنَّ حواسه كلها قد تعطلت فجأة، فاستحال لتمثالٍ مِن الجمود، إذ لم يكن ذلك الشخص سوى (مارغريت)، كانت تقف ويظهر نصف وجهها له وهي ممسكة بثوبٍ تعاينه، وإلى جوارها يقف شاب وسيم ذو شعر أسود داكن، وعينين بنيتين صافيتين كعيني (غيث)، كان مِن الواضح بأنَّه يتحدث؛ أما هي فقد نظرت إلى عينيه مباشرة وابتسمت بخجل!

ما إنْ أبصر تلك البسمة التي كان يتوق إليها حتى شعر بالوهن يلف جسده، ومع ذلك شدَّ (حارثًا) إليه ببطء واختبأ خلفه ونطق بصوت خافت: ابقَ هكذا.

طاشت عيناه بتيهٍ إلى الأسفل، ثمة أحاديث وتساؤلات قد اختلطت بأعماقه، كيف ومتى ولماذا؟ أراد أنْ يصرخ بها كلها في وقت واحد، ليس بحثاً عن الإجابة، فكثير مِن الأسئلة نطرحها فقط استنكاراً؛ لأننا نعرف يقيناً أنَّ إجاباتها ستُحدِثُ وجعاً أكبر في أعماقنا.

أمسك (حارث) بكفه المتشبثة بذراعه واكتفى بقوله: لنذهب (رائد).

هز رأسه موافقاً متجنباً النظر إلى عينيه، ثم انطلق معه إلى الجهة الأخرى، ومع ذلك لم يستطع منعَ نفسه مِن الالتفات نحوها للحظة، كانت تهمُّ بالمغادرة برفقة خطيبها، وما إنْ استدارت حتى شدها (طاهر) بقوة تحت ذراعيه؛ إذ كان جندي يتقدم ناحيتهما سريعاً بخيله كاد أنْ يصطدم بها.

هزَّت رأسها مذهولة بفزع، ثم بدا واضحاً لـ(رائد) أنَّها تشكره بخجل.

أدار ظهره لهما وأخذ نفساً عميقاً وتابع سيره، كان يشعرُ وهو يحرك ساقيه بوهنٍ، تملَّكه شعور بشع بالهجر يشبه حذاء جوخ* المهجور والجزء المفقود مِن تماثيل (رونو كاتالانو)**.

أمسك (طاهر) بيد (مارغريت) وحثها على المشي. ولكنها توقفت فجأة واستدارت خلفها، استطاعت أنْ تميَّز ظهر (حارث) بزيه العسكري بين الناس، ولكن عينيها اتسعتا فجأة وهي تشاهد ظهر ذلك الرجل الذي يسبقه بخطوات.

شعرت بشيء غريب ينتابها فجأة، تابعته بعينيها وهو يبتعد، تلك الرقبة، ذلك الشعر الأسود الباهت، تلك المشية السريعة، لا يمكن!

شعرت بمشاعر تشبه الحنين الذي يأتي دون موعد ويلج بأعماقنا محدثاً ثورة هائلة من الشوق. أخرجها مِن فوضى المشاعر تلك سؤال (طاهر):
(سحاب)، لماذا توقفت فجأة؟

نطقت دون وعي: السماء.

قطب حاجبيه مستنكراً، وألقى بنظرة على السماء فوقه، ثم عاد لينظر إليها مستنكراً، كانت عيناها قد امتلأتا بالدموع وهي تنطق: سقطت!

تشابك حاجباه باستنكار واضح؛ فاستوعبت كلامها، وطرفت عيناها؛ لتلفظ دموعها وتمسحها، ثم التفتت ناحيته بارتباكٍ وهي تقول: دعك مما قلته، كنتُ سارحةً فقط.

ثم عادت لتدير رأسها ناحيته ببطءٍ وخوفٍ وتردُّد، وكأن خيطاً رفيعاً يشدها لتلك الناحية، ولكنه كان قد اختفى عن أنظارها؛ فشعرت بخيبةٍ أحاطت قلبها دون مسوِّغ؛ فزفرتها بتنهيدةٍ أثارت حيرة (طاهر) لكنه لم يعلق، شدَّ بقبضته على كفها وهو يقول: هيا لنذهب.

---

*إشارة إلى لوحة فان جوخ الحذاء المهجور.

** رونو كاتالانو: فنان فرنسي مِن أصول مغربية، ولد في جنوب فرنسا عام ١٩٦٠م
تتميز منحوتاته بوجود جزء مفقود فيها، أو جزء غير مرئي يستطيع المشاهد تخيله.

تبعته، ومع هذا كانت خطواتها ثقيلة؛ إذ كانت تلتفت مِن حين لآخر في الاتجاه ذاته وكأنها تبحث عن شخصٍ ما، تبحث عن ذاك المجهول الذي أثار في قلبها هذا الحنين.

في أعماقها تفجرت صرخةٌ تقول: إنه يشبهه!

ثم فرت بصوت خافت مِن بين شفتيها: أيعقل بأنَّه هو؟

توقف (طاهر) وحاصرها بنظراته المستطلعة؛ فهربت بعينيها سريعاً إلى الجهة الأخرى.

ازعجه ذلك، ولكنه أخفى شعوره وعلق قائلاً: يجب عليك أنْ تسرعي، سنتأخر هكذا. لم تجبه، وظلت عيناها هاربتان، فاقترب منها وأمال برأسه قليلاً ناحيتها وقال: هل عليَّ أنْ أحملك؛ لنصل سريعاً؟

بدت ملامحها لوهلة كطفلة ذاهلة وهي تنظر إليه بخجل؛ فندت مِن بين شفتيه بسمة ودودة وهو يقول: لا تذهلي هكذا، كنتُ أمزح فقط ، لنذهب.

ابتسمت بخجلٍ موافقة، وتحركت خطوة، ثم استدارت للمرة الأخيرة وبدا لها طيفه وهو يغادر، ثم يلتفت ناحيتها فجأة ويبتسم، ثمة روح شفافة على هيئة طفلة تعقد شعرها على هيئة ضفائر يونانية وتلبس فستاناً كرزي اللون، خرجت مِن جسدها وقفزت راكضة نحوه؛ فتلقفها بذراعيه معانقاً.

شعرت بدمعة تنسلُّ هاربةً، لعقتها بلسانها وهمست: كانت السماء ممتلئة بالنجوم، فهل كانت تبشر بعودته؟!

ابتسمت بسخرية وهي تتم: لقد أوشكتُ على الجنون.

*****

وصلا لمحل قهوة، طلب (حارث) قهوة عربية، وماهي إلا لحظات حتى قدَّم البائع لهما دلة القهوة مع فنجانين، صبَّ (حارث) وقرب الفنجان مِن (رائد)،

لكنه لم يبدِ أيَّ حراك، كانت ملامحه باردة وواجمة لا حياة فيها، لقد كان يشعر قبل قليل بأنَّه الجزء المفقود، والآن يشعر بأنَّه هو التمثال نفسه وقد تُرك جزءٌ منه.

نطق (حارث) بتردد: بالنسبة لـ..

قاطعه (رائد) بقوله: ماذا عنك (ليو)؟ أخبرني كيف تزوجت؟ هل هي مِن هنا أم مِن دومدري؟

زفر (حارث) الهواء بيأسٍ وأجاب: بل من هنا، اسمع..

قاطعه مجدداً: ماذا عن (باتر، وبتال، وكنان)؟ ما الذي حدث معهم؟

تأفف بخيبة وأجاب: (بتال) هو القائد العام للجيش الموحد، (باتر) هو قائد الحرس الخاص ونائبه أنا؛ أما كنان فسيفاجئك ما وصل إليه، لقد أصبح مستشار الوالي.

حاول أنْ يستجدي ابتسامة؛ ليظهر بهجته، ولكن أعماقه كانت مضطربة وثائرة؛ فخرجت بسمته مشوهة ومضطربة، أدرك ذلك فلفه الخجل وعبس وهو يخفض رأسه ويعلق: هذا رائع! إنها أخبار جيدة، يبدو أنَّ الجميع بخير، ثم مدَّ يده بارتباكٍ والتقط الفنجان وأفرغ كلَّ ما فيه دفعة واحدة.

صبَّ له (حارث) مجدداً، وما إنْ همَّ بالحديث حتى قاطعه (رائد) للمرة الثالثة وهو يقول: أريدُ أنْ أقابل (بتالًا، وباترًا، وكنانًا)، كيف يمكنني ذلـ..

نفد صبر (حارث)؛ فباغته بضربه على جبينه وهو يقول: هلا عدت إلى رشدك؟

توجع (رائد) وهو يحدُّ النظر إليه ويجيب: ما الذي فعلته (ليو)؟ هل تعلم كم عانى رأسي مِن ضربك المتكرر؟ في كلِّ مرةٍ يتحرك شيءٌ مِن دماغي، لقد فشلت في امتحاناتي بسببك،هل تعرف هذا؟

-أفضل، ربما يعود عقلك إلى مكانه الصحيح.

أحدَّ النظر إليه وأتبع: أريد أنْ أخبرك عن (سحاب) وما رأيته، ولكنك تقاطعني في كل مرة، منذ متى أصبحت جباناً هكذا؟ أتساءل حقاً.

حلَّ بينهما للحظات صمتٌ كئيب كانا خلاله يرتشفان قهوتهما فقط حتى ثبت (رائد) الفنجان على الطاولة، حاول أنْ يستدعي بسمة هادئة على شفتيه دون جدوى، ثم نطق بوجه واجم: أنا أعرف، لا أريد أيَّ جواب، أظن بأنَّه شيء طبيعي، كم سنة مرت! لقد كنتُ أعرف أنَّ كل شيء...

زم شفتيه للحظة مغالباً شعوراً موجعًا ألمَّ به في أعماقه، ثم أتبع: كل شيء قد انتهى في تلك اللحظة التي دفعتني فيها (سحاب) للمغادرة.

ابتلع ريقه وأتبع: على العموم، أنا لم آتِ إلى هنا مِن أجلـــ...

بترَ كلمته، لم يستطع أن يكمل الكذبة، ولم يستطع أنْ يغالب ذلك الشعور الموجع؛ إذ كانت أعماقه تصرخ: "أنت كاذب"، شعر برؤيته تنعدم فجأة؛ فحسر عن عينيه.

لماذا أتصرف هكذا؟ لماذا أبدو ضعيفاً إلى هذا الحد؟ إنَّ هذا لا يشبهني مطلقاً!

كيف لم أفكر بأنَّه شيء مِن الممكن أنْ يحدث؟!

ابتلع ريقه ثم فتح عينيه ونظر إلى (حارث)؛ فوجده ينظر نحوه بإشفاق واضح،

شعر بالحرج جراء نظرته تلك؛ فقال بارتباكٍ: لماذا تنظر نحوي هكذا؟! إنَّ نظراتك تستفزني (ليو)، ثم لماذا صمت هكذا؟ دعك مِن هذا وأخبرني عن أحوالك.

أنا أشفق عليك؛ لأنك لا تستطيع أنْ تكذب، تريد أنْ أصدِّق بأنَّك عدت من أجلي فقط، وبأَن أمرها لم يعد يهمك؟!

وجم وجهه للحظة، عبس فيها، ثم ابتسم بسخرية، ثم دقق النظر في عينيّ (حارث) وهز رأسه موافقاً وهو يقول: حسناً، لا يمكنني إنكار ذلك.

أخذ نفساً عميقاً وقال: أخبرني، كيف هي أحوالها؟

-(رائد).

قالها (حارث) وهو يشبك أصابع كفيه ببعضها، ثم أتبع: إنَّ زواجها قريب، وذاك الذي كان بجوارها هو خطيبها، اسمه: (طاهر)، وهو طبيب في القصر الملكي، لقد تعرفتُ عليه في القدس وهو رجل قد عانى كثيراً واجتهد؛ ليصل إلى ما وصل إليه.

فرج فمه قليلاً، وشعر بكلماته كأحجار تتساقط على رأسه تجبره على حمايته؛ فحنى رأسه سريعاً، وهربت عيناه يميناً، فرَّت مِن شفتيه بسمة مصدومة سرعان ما استحالت إلى عبوس وهو يعلق: ألا تستطيع أنْ تخبرني بذلك شيئاً فشيئاً؟!

خفض (حارث) عينيه بحرج، فسأل (رائد): متى سيكون زفافها؟

-بعد ثلاثة أشهر مِن الآن.

أومأ برأسه موافقاً، ثم ابتسم محاولاً إخفاء اهتزاز شفتيه وعلق: جيد، أنا سعيد؛ لأنها بخير!

هز (حارث) الفنجان بين سبابته وإبهامه وقال بارتباك: في الواقع...

رفع عينيه نحوه وتابع: كنتُ أنا مَن دفعها إلى ذلك، أقول لك هذا؛ كي لا تفكر بلومها ولو للحظة، فـ(مارغريت) تلميذتي، وأنا أيضاً أحبها وأحترمها.

حاول جاهداً إخفاء علامات الصدمة التي ارتسمت على وجهه وهو يجيبه بصوت خافت ينم عن الموافقة.

وضع (حارث) فنجانه جانباً وأتبع: أعلم بأنَّك مصدوم، وربما تشعر بالخيبة، ربما تلعنني الآن في أعماقك، أو ربما تتساءل الآن وتقول في أعماقك: ما الذي جاء بي؟ أنا أعرفك جيداً، فلا داعي لأنْ تخبِّئ عني مشاعرك، فقط قل ما يدور في خلدك.

ظل (رائد) صامتاً للحظات محاولاً لمَّ شعث مشاعره الممزقة، ثم أشاح بعينيه يساراً ونطق: أنت محق (ليو) مع أنَّه شيء منطقي، إلا أنَّه لم يرد على ذهني مطلقاً، لقد تصورت أنَّني سأقابلكما معاً كما تركتكما مِن قبل؛ لذا أنا أشعر بالصدمة.

صمت قليلاً قبل أنْ يتبع بوجع: وأشعر بالخيبة كما ذكرت بالفعل!

زفر (حارث) الهواء مِن فمه وعلق قائلاً: كما قلتُ لك كنتُ أنا مَن دفعها إلى ذلك، في الواقع كنتُ أشعر بحجم العبء الذي كلفتني به، لقد أوصيتني بحمايتها وتعليمها ومرافقتها وقد فعلت، ولكن...، لم أستطع رؤيتها وهي تذبل يوماً بعد يوم أمامي وأظلُّ صامتاً، مع أنَّها ازدادت جمالاً كما ازدادت قوة.

ضحك (حارث) بوجع وهو يتبع: لقد أحسنتْ استخدام السيف حقاً، لقد أذهلتني بالقوة التي تظهرها، ولكن كنتُ أعلم بأنَّها تقوم بذلك؛ لتقاتل روحها المحتضِرة فحسب، أعماقها.. كانت تذبل شيئاً فشيئاً، لم أستطع تركها هكذا، كان لا بُدَّ أنْ تنظر لحياتها.. نعم (راد)، مع أنَّها هي مَن دفعت بكَ كي ترحل، لكن كان مِن الواضح أنَّها متعلقة بأمل عودتك؛ بل سأعترف وأقول الحقيقة: رغم كلّ شيء، لقد ظلت تنتظرك. كنتُ أدرك هذا حتى لو لم تنطق به؛ لذا لا تفكر حتى بلومها.

لم يعلق (رائد) بشيء، كان يشعر حينها بأنَّ أعماقه تختنق بشدة، شعر بأنَّ عينيه تحدقان في الفراغ، وفجأة ظهرت (مارغريت) بدموعها المبعثرة، وهي تضغط على كفه؛ لتثبت ساعة الزمن وتقول له: "ستجدني كلما نظرت إلى السماء حولك".

-(راد).

أخرجه صوت (حارث) مِن زوبعته تلك، فرفع عينيه نحوه ببطء، حدَّق فيهما للحظة ثم نطق بصعوبة وهو يغالب دموعه بوضوح: لقد أحسنت صنيعاً (ليو)، أشكرك؛ لأنك حميتها كلَّ هذا الوقت!

ثبَّت (حارث) ذقنه بكفه وأخذ يحدِّق في عيني (رائد) للحظات، ضرب (رائد) على الطاولة وقال باندفاع: لا تنظر نحوي هكذا، حسناً سأقول الحقيقة، أنا أتألم بالفعل (ليو)، اهتزت شفتاه وهو يتبع: أنا أتألم الآن؛ بل إنَّني غارق في الألم، أودُّ أنْ أضربك وأطعنك أيضاً، ولكن...

صمت للحظة ثم أتم: حينما أفكر جيداً، أجد أنِّني لو كنتُ مكانك لفعلت مثلك حتماً؛ لذا أقول لك: شكراً! إنْ كنتُ سألومها على شيء، فلن ألومها على دفعي وتركي؛ بل لجعلها لي شخصاً هشاً على هذا النحـ..

بتر كلمته الأخيرة ولم يستطع أنْ يكملها وشخصت عيناه بعد أنْ شعر بتلك الدمعة التي خذلته وتسللت فجأة وفرَّت هاربة نحو شفتيه، كان (حارث) ينظر إليه بالنظرات ذاتها.

حسر عن عينيه بكفه، ثم وقف سريعاً وهو يقول: اللعنة، لقد دخل بعضُ التراب فجأة في عيني، لنذهب مِن هنا.

وقف (حارث) وقال محاولاً تغير الموضوع: اسمع، لنشتري لك ثياباً.

سارا معًا عدة خطوات، ثم توقف (حارث) وكأنه تذكر شيئاً فجأة، أدار يده إلى الخلف وخلع حزامه وأخرج سيفه ومده أمام (رائد) وقال: لقد تذكرت، هذا سيفك، خذه.

تناوله (رائد) بدهشة سرعان ما ازدادت حينما أخرجه مِن غمده وتعرف عليه، ونطق باستغراب: هذا سيفك القديم، الكيليج! ولكن كيف ذا؟ لقد تركناه ببيت لحم!

ابتسم وهو يجيبه: لقد أعاده لي عازف المزمار، هذا السيف كلما تركته عاد إليك، لاشك بأنَّه مرتبطٌ بك.

ابتسم (رائد) بامتنان وقبله وراح ينظر إليه للحظات بحنينٍ عميق، شعر لوهلة بأنَّه يعانق صديقاً قديماً، وقد منحه هذا الشعور بعضَ السلوى التي فقدها قبل قليل، ثم تابعا الطريق، حتى وقفا عند محل يبيع الثياب، وانشغل (حارث) بالبحث والانتقاء، بينما طاشت عينا (رائد)حوله. لمح (إياد) وهو

يسير يميناً؛ فلحق به لكنه ارتطم فجأة بأحدِ الأشخاص، وما إنْ اعتدل ورفع رأسه؛ ليشاهد مَن الذي ارتطم به حتى شعر بأنَّ عينيه قد تجمدتا، حتى إنَّ الواقف أمامه كان يشعر بالشعور ذاته.

كان (رائد) يحدق به متفحصاً وغير مصدق ما تراه عيناه الآن، فهذا الشخص كان آخر مرة شاهده فيها لا يتجاوز طوله كتفه؛ أما الآن فهو يتجاوزه بالطول.

وأخيراً بشَّت ملامحه معبرة عن الفرح وهو يعبِّر عن فرحته ويقول: (بارع العلالي)؟ أهذا أنت يا (بارع) حقاً؟! هل ما تراه عيناي حقيقة؟!

طرفت عينا (بارع) وأطبق شفتيه وثمة انحناءة عابسة لم يلحظها (رائد) وهو يندفع نحوه ويضع كفه على رأسه وهو يقول: كيف كبرت إلى هذا الحد؟ إنك تتجاوزني الآن!

انتفض (بارع) وكأنه أصيب بقرصة حشرة سامة فجأة؛ فلفظ كفَّ (رائد) وابتعد عنه بخطوات قليلة، استنكر (رائد) فعلته هذه؛ فأحدَّ النظر إليه متسائلاً، فاقترب منه (بارع) حتى مثلَ أمامه تماماً، حنى رقبته حتى أصبح وجهه ملاصقاً لوجهه، ونطق بلكنة هازئة: ما الذي جاء بك إلى هنا؟! يا لها مِن صدفة عجيبة هذه التي جعلتني ألتقي بك الآن بعد أنْ بحثتُ عنك كثيراً!

اهتزَّت عيناه وبدا واضحاً بأنَّه يصارع مشاعر مؤلمة في أعماقه، كزَّ على أسنانه بغيظٍ وخرجت مِن بين شفتيه: " أيها الحقير، إنْ كنت تفهم فلا تجعلني أراك مرة أخرى!"، ثم حدجه باحتقارٍ وغيظ، وضغط على طرف مقبض سيفه بكفٍّ ترتجف قبل أنْ يستدير مغادراً، بينما ظلت عينا (رائد) تتبعانه بذهول، غير مصدقتين ردة الفعل تلك.

شعر بكفٍّ تمسك كتفه وتديره نحوها سريعاً، كان (حارث) قد ألقى عليه الثياب وهو يقول على عجل: اتبعني.

لحقه بصعوبة؛ إذ كان مِن الواضح أنَّ (حارثًا) يتبع شخصاً ما. دخل في أحد الأزقة، ومشى بحذرٍ ثم توقف.

وقف (رائد) بجواره صامتاً؛ أما (حارث) فكان يراقب ذلك الرجل وهو يستلم ورقة مِن أحدهم، وبعد أنْ غادر التفت إليه (حارث) وقال: أنا واثقٌ مِن أنَّ هذا الرجل شاهدته مِن قبل مع رجال الوزير، تعال، سأتبع ذلك الرجل.

لكن (رائدًا) لم يبد أيَّ تجاوب؛ إذ كان مِن الواضح بأنَّه تائهٌ ومضطربٌ، نطق دون أنْ ينظر إلى (حارث) وقال:(ليو)، يبدو لي أنَّ المصائب هنا تتوالى الواحدة تلو الأخرى.

الفصل الثاني: الزَّهرة التي فقدتْ رائحتَها.

لكلِّ روحٍ حضورٌ يُميِّزُها.

رفع الغطاءَ عنه بكسل بعد أنْ شعر بتسلُّلِ الضوء إلى الغرفة، نهضَ مِن الفراش، وقف ليلقي نظرةً على نفسه في المرآة، كانت الفوضى تهيمن على ملامحه، شعر بالوجع بين كتفيه؛ فأخذ يربِّت عليهما، وما إنْ انتهى حتى ألقى نظرةً على شعره وثوبه، رفع إحدى خصلات شعره وحدَّث نفسه: لو كانت (عروب) هنا لقالت: دعني أسرحه لك.

تعجَّب لمرِّ خاطرها على قلبه الآن، وفجأة طرق صوت أذنه: " أيها الحقير"؛ فغطَّى أذنيه بكفيه، وكأنه بذلك سيخرس خاطره، نظر لانعكاس عينيه في المرآة وغار فيهما، تراءت له فجأة صورتها وهي تبتسم لـ(طاهر) بخجل، أراح بكفيه على المرآة ونطق: لو كان هذا حلماً فإني أريد أنْ أستيقظ سريعاً منه.

أخرجه مِن زوبعته تلك صوت طرق الباب؛ فالتفت بفزعٍ نحوه، عاد الطرق مجدداً؛ فاتجه ناحية الباب سريعاً وفتحه؛ وإذ به يفاجأ بفتاةٍ صغيرة ذات بشرة بيضاء شاحبة وملامح تنم عن الهدوء؛ إذ كان حاجباها مقوسان وعيناها باردتان وقاتمتان، وشفتاها صغيرتان رغم اتساعهما، أدركت بأنَّه قد فوجئ بقدومها؛ فأشارت بيدها نحو الغرفة وقالت: أتسمح؟ أريد أنْ أنظفها.

ولجت دون أنْ تنتظر منه جواباً، وقف أمام الباب يراقبها وهي ترتب السرير، ثم اتجهت نحو الدولاب وأخرجت ثوباً ووضعته على السرير ثم قالت: سيد (راد).

قطب حاجبيه باستنكار فتجاهلته واتبعت: بدِّل ثيابك مِن فضلك و..

توقفت فجأة وأشارت نحو المرآة وهي تتبع: على الطاولة وضعتُ المشط لك، بإمكانك أنْ تسرح شعرك.

طاشت يداه سريعاً فوق رأسه وشرع يهذب شعره بحرجٍ وهو يقول: حسناً.

ثم تقدمت حتى توقفت بجواره وقالت: وبعد أنْ تنتهي رجاءً تعال إلى الفناء، إنَّ السيد (حارث) والسيدة بانتظارك.

-السيد!

قالها بدهشةٍ مبتسماً، ثم سرعان ما تحولت البسمة إلى ضحكةٍ ساخرة وهو يعلق: ما الذي يحدث هنا؟ منذ متى (حارث) سيداً؟!

رمقته بنظرة مرتابة وهي تحدث نفسها متسائلة: هل هذا ذو عقل سليم، أم أنَّه مختل؟!

فهم ذلك مِن نظراتها؛ فسأل: مهلاً، أنتِ ما الذي تفعلينه هنا بالضبط؟ هل أنتِ خادمة أجيرة؟

-خادمة أجيرة؟!

قالتها مستنكرة ثم أتبعت: حسناً، أنا أقوم بخدمتهما حقاً، فأنا أَمَته في النهاية.

اكتسح الغضب ملامحه؛ فدنى منها حتى أصبح ماثلاً أمامها وهو يسأل مستنكراً: أقلتِ: أَمَتَهُ؟ أم أنَّني لم أسمع جيداً؟!

شعرت بالخجل والارتباك؛ فابتعدت خطوة إلى الوراء، حركت رأسها موافقة دون أنْ تنظر إليه.

ابتعد هو الآخر إلى الوراء وشعر وكأن ماءً بارداً سُكب على ظهره فجأة جعل جسده ينتفض، شدَّ على قبضته محاولاً أنْ يلمَّ خيبته ونطق: ما الذي يحدث بحق الله؟ رأسي لا يحتمل كلَّ هذه المصائب دفعة واحدة، ما الذي يحدث للجميع هنا؟

كزَّ على أسنانه بغيظ واضح، ثم التفت نحوها فجأة؛ فانتفضت ملامحها وهو يسألها: قلتِّ: إنَّه في الفناء؟!

رفعت إصبعها مشيرة نحو الباب دون أنْ تنطق؛ فاتجه نحو الباب مغادراً، تناهى إلى سمعه صوتها الذي أراد إيقافه بقولها: مهلاً، ثيابك، و....وشعرك.

لكنه تجاهلها وتابع طريقه، بينما ظلت تحدق فيه وهو يبتعد، ثم أغلقت الباب خلفها بهدوء وهمست: إنَّه غريبٌ بالفعل، هل هو حقاً صديق سيدي؟!

نادى بصوتٍ مرتفع وهو يعبر الممرات: (ليو)، أين أنت (ليو)؟

كانت ترتفع في الممرات التي كان يعبرها أقواس عالية تنتهي بفناءٍ واسع وجميل يقع في منتصفه حوض أسماك، زُرِعت أطرافه بالأشجار والأزهار، ونُصِبت على إحدى الأشجار أرجوحتان، وعلى مقربة منها كانت تقع طاولة مِن خشب السنديان، يجلسُ عليها (حارث) وزوجته؛ لتناول الطعام وشرب الشاي، كان المكان أشبه بغابة وسط مدينة.

تناهى إلى سمعه صوت صراخ (رائد)؛ فنهض عن الكرسي، وكان (رائد) حينئذ قد عبر الممر الأخير ووقف أمام الفناء، شاهد (ليو) واقفاً ولم يلحظ زوجته التي كانت تجلس بمحاذاته على الطاولة، ابتسم (حارث) لكن سرعان ما استحالت ابتسامته إلى عبوس وحيرة وهو يرى ملامح (رائد) العابسة وهو يقترب منه، لم تطل حيرته فقد وضَّح رائد قائلاً: (ليو)، هل هذا حقيقي؟! أحقاً تلك المرأة التي جاءت إلى غرفتي؛ لتنظيفها هي أَمَتُك؟!

-تقصد (مياسين)؟

بغضب كرر: أسألك، أهي أَمَتُك حقاً؟!

أطبق (حارث) شفتيه بحرج، فقد أدرك ما يجول في ذهن (رائد) الآن، واكتفى بالإيماءة.

جذبه (رائد) مِن ياقته بعنف، واتسعت عيناه بغضب وهو يرد بصدمة: كيف؟ كيف ذلك؟! ماذا عن وعد الوالي؟! لقد خاطرنا بحياتنا، أتذكر؟ ثم كيف؟ كيف تفعلها (ليو)؟!

أمسك بقبضة يده؛ ليبعدها محاولاً تهدئته وهو يرد: مهلاً (راد)، دعنا نتحدث وأفهِمُك.

حينئذ وقفت (كادي) زوجة (حارث)؛ لتعلن عن وجودها وتوقف هذا الشجار، أمسكت بإبريق الشاي وقالت: سيد (رائد)، أتشرب الشاي بسكر أم بدون؟

فوجئ بالصوت؛ فمال برأسه قليلاً ليشاهدها واقفة خلف (ليو) وهي تنظر إليه متسائلة.

كانت عيناها بنيتان، ووجهها قمحي ومدور؛ أما أنفها فصغير وأرنبتاه مدببتان قليلاً، وشفتاها واسعتان ورقيقتان، كانت تلبس فستاناً أزرق مزين بخيوط فضية، وتلف رأسها بوشاح أبيض؛ أما بطنها فكانت منتفخة قليلاً، كانت هذه أول مرة يشاهدها فيها، فقد وصل البارحة في وقتٍ متأخر مع (حارث) ونام سريعاً.

شعر بالحرج؛ فأزاح قبضته عن (حارث) وشرع يعتذر إليهما بارتباك.

خفض عينيه إلى الأسفل بخجلٍ واضح، كز على أسنانه وتمتم بغيظ قاصداً (حارث): لِمَ لَمْ تخبرني بأنَّ زوجتك هنا؟!

لوى (حارث) فمه بانزعاج وأجاب: وهل أعطيتني فرصة؟

حدجه مطولاً بحنق وبصوت أقرب للهمس نطق: ولمَ لمْ تخبرني بأنك ستصبح أباً أيها المحتال؟!

قاطعتهما (كادي): لم تجبني (رائد) أو (راد) كما يناديك (حارث).

نظر إليها، كانت تبتسم برقة؛ فتنحنح صوته وأجاب مرتبكاً: بسكر!

وضعت قليلًا مِن السكر في كأسه وقلبته وهي تقول: لقد حدثني عنك (حارث) كثيراً، ولكنه لم يقل أبداً بأنَّك عصبي المزاج!

ابتسم بحرج وهو يقول: آه، آسف!

ورمق (حارثًا) بغيظٍ واضح.

جلس (حارث) فاقترب (رائد) وعدَّل كرسيه وجلس إلى جواره؛ فرمقه الآخر بنظرة ساخرة.

كانت (كادي) تراقب تلك النظرات بينهما وتخفي ابتسامتها.

جاءت (مياسين) تحمل صينية بين يديها ووزعت الأطباق على الطاولة ثم وزعت كؤوس الشاي عليهم.

كان (رائد) يتبعها بعينيه ثم يرمق (حارثًا) باستياء.

وما إنْ غادرت حتى نطق (حارث): مالك تنظر إلي هكذا؟

-أنت تعرف لماذا.

-حسناً، امنحني فرصة؛ لأخبرك.

بغضبٍ لوح (رائد) بيده وهو يقول: تفضل.

أمسك (حارث) بكأس الشاي وقال: حسناً، أنت تعلم بأنَّه لم يمضِ وقتاً طويلاً، بمعنى أصح ليس كافياً لتطبيق الوعد، وقد وفى –صدقني- والي بغداد بوعده، إنَّك لن تجد عبيداً إلا قليلا جداً في بغداد، والحال هنا أيضاً مشابه ولكن يبدو أنَّك نسيت المجازر التي شهدناها، عليك أنْ تعلم بأنَّ هنالك كثيرًا مِن النساء والرجال والأطفال ظروفهم مختلفة جداً، لا أهل لهم، ولا أقارب، ولا عمل يتقنونه سوى خدمة غيرهم، و(مياسين) مِن هؤلاء، إنْ تركتهم هكذا سيموتوا!

قاطعه (رائد) بغضب: لماذا لم يطبق نظامًا آخر يكفل لهم حريةً أكثر، على سبيل المثال: حرية تمنحهم مغادرة أسيادهم متى ما أرادوا، أو تمنحهم الحق بالتعليم، أو ممارسة أي عمل يشاؤون؟

باللهجة ذاتها ردَّ عليه (حارث): حسناً، افعل هذا بنفسك، إنْ كان عندك حلول واقتراحات قدمها لوالي بغداد بنفسك، أو أمير الشام، لا أظنك ستجلس وتتبرم هكذا فقط دون عمل.

باندفاعٍ ردَّ: سأفعل هذا، سأسافر غداً إلى بغداد.

لوى (حارث) فمه بازدراء فأتبع (رائد): ولن أطلب منك أنْ تأتي معي، سأفعل ذلك وحدي.

تجاهله (حارث) وارتشف من الشاي؛ فرمقه بغيظ، وما إنْ رفع عينيه أمامه حتى كانت (كادي) تبتسم في وجهه وتقول: لست مضطراً لأن تذهب إليه (رائد)، يمكنك أنْ تُخبر القائد (بتّال)، إنَّه يأتي كل ثلاثة أشهر أو أربعة، وربما سيأتي؛ لحضور زفاف الأمير (شهاب).

تطلع إليها متسائلاً فأتعبت موضحة: وإنْ كان كذلك، فأظنُّ بأنَّه سيأتي خلال أيام.

ألقت بنظرة مستغربة نحو (حارث) وأتبعت: غريب! ألم يخبرك (حارث) بأنَّه زواج سياسي؟! الأمير سيتزوج مِن أميرة مملكة (ببين).

فغر فمه باندهاش ونطق: (ببين)؟!

أومأت موافقة واتبعت: حسناً، لقد كانت المفاوضات التي أجراها (حارث) هي من أثمرت هذا الزواج السياسي وحالت دون وقوع الحرب، في الواقع..

أشارت بيدها نحو (حارث) وقالت باعتزازٍ واضح: إنهم يسمونه هنا المُنقِذ.

نظر إليه باندهاش بينما أفرغ (حارث) كلَّ ما في كأسه، ثبته على الطاولة بقوة ونظر إلى (رائد) بحنق وعلق: لذا، أنا لست متفرغاً لسماع صراخك، ثم وقف مغادراً.

-مهلاً.

أراد أنْ يوقفه ولكنه تجاهله، شرب ما بقي في كأسه على عجل، ثم نهض سريعاً؛ ليتبعه، ولكنه توقف فجأة كمن تذكر شيئاً، فالتفت ناحية (كادي)، فرج فمه قليلاً وبدا واضحاً بأنَّه يهمُّ بنطق شيئاً ما ولكنه كان متردداً، نظرت إليه بتطلع تحثه على الحديث، فخفض طرفه وقال: مِن الأفضل لكِ سيدة (كادي)ألا تكثري مِن شرب الشاي هذه الفترة.

ابتسمت وهي تجيب: لقد أخبرتني بذلك الطبيبة (سحاب) أيضًا.

ما إن سمع اسمها حتى تجمد وجهه وغارت عيناه، لاحظت ذلك؛ فسألت: ماذا؟

هز رأسه بارتباكٍ، ثم أحنى رأسه مجدداً وهو يقول: سأغادر الآن، وما إن استدار حتى سمعها تقول: مر غرفتك أولاً وبدل ثيابك، و...

التفت إليها وهو واضعاً يده على شعره وعلى شفتيه ترتسم ابتسامة بلهاء جعلتها تجاهد كتم ضحكتها دون جدوى.

*****

في السوق، كانت (مارغريت) تتجوَّل برفقة (طاهر)، وقفت تنظر إلى الزينة المعلقة في الشوارع كطفلةٍ تنظر بشغف إلى قطع الحلوى، ظلَّ (طاهر) يراقبها بصمت وشغف، فـ(مارغريت) لم تكن في العادة تخرج مِن عملها؛ لترى أشياء كهذه، ولم يكن هو مهتماً بهذا؛ لذلك، غمره شعورٌ مبهج لم يجربه من قبل.

ظلت تتجول بعين شغوفة بالحياة والأزهار والزينة من حولها.

وقتئذٍ كان (رائد) قد أضاع (حارثًا) فجأة في السوق، ظلَّ يسير دون هدى ويلتفت هنا وهناك دون أنْ يعطي للزينة حوله أدنى اهتمام، ظلَّ يزفر الهواء بضجرٍ مِن فيه مِن حين لآخر وهو يتقدَّم، ثم وجد نفسه فجأة يدخل في حشد مِن الناس كانوا قد التفوا حول فرقة موسيقية تتدرب على تقديم فقرة في حفل الزفاف.

أمسك (طاهر) بكف (مارغريت) واتجها معًا إلى هناك، استطاع أنْ يوسع لها (طاهر) الطريق؛ ليجدا مكاناً يشاهدان منه تلك الفرقة، وفي الوقت ذاته كان (رائد) قد عبر مِن جوارها دون أنْ يراها، وارتطم كتفه بكتفها، لم يكلف نفسه عناء النظر خلفه بينما نظرت هي خلفها؛ لترى ذاك الذي ارتطم بكتفها للتو.

الرقبة ذاتها! والشعر ذاته! والمنكبين ذاتهما! والمشية ذاتها! خفق قلبها؛ فحرَّرت يدها مِن كف (طاهر) وأسرعت راكضة تلحق هذا الذي يبتعد، تدافع الجموع أمامها علها تصل إليه، وما إنْ تمكَّنت مِن الخروج مِن الحشد، حتى فقدت أثره، تلفتت حولها بارتباك، وفجأة أمسك أحدهم بكتفها؛ فالتفت

خلفها بفزع سرعان ما تبدد حينما رأت (طاهرًا) مقطبٌ حاجبيه متسائلاً: لماذا غادرتِ فجأة هكذا؟

تجاهلته وعادت لتطيش بعينيها باحثة، ضغط (طاهر) على كتفها؛ فتوقفت مستوعبة موقفها، عرجت عيناها ببطء نحوه، ثم رسمت على شفتيها بسمة فاترة وهي تقول: آسفة! أريد أنْ أعود لعملي الآن، لقد اكتفيت، ثم أزاحت كفه عن كتفها واستدارت مغادرة بعد أنْ أوقدت عاصفة من القلق في قلبه.

ظلَّ ينظر إليها وهي تبتعد ويحدث نفسه: ما الذي يحدث معها يا ترى؟! ما الذي يصيبها في السوق؟!

وقف (رائد) أمام محلٍّ يبيع الأقواس والسهام، لفت انتباهه قوساً مركباً، التقطه وأخذ يحدق فيه للحظات، شتت ذهنه صوت ساخر مِن الذاكرة ارتبط عنده بتعلم الرماية، اخترق سكون أعماقه وهو يقول:" رجلٌ مِن الشام ولا يعرف كيف يرمي السهام؟!".

أجبرته تلك الذكرى أنْ يبتسم وهو يهمس باسم صاحبتها (بيلسان)، ولوهلة اخترق صوتٌ آخر أعماقه ونطق: " أيها الحقير".

اعتلته نظرات الذعر، فأعاد القوس إلى مكانه وسرح في فكره.

حينما قالها (بارع)، كانت شفتاه وعيناه تهتزان، كان مِن الواضح بأنَّه يتألم، ما الذي حدث؟ لابدَّ أنْ أقابله مجدداً وأعرف منه، لا يمكنني أن أقف فقط، وإلا سأصاب بالجنون.

تلفت حوله ونطق: أين اختفى (ليو)؟

لمح فجأة ذلك الرجل الذي كان (ليو) يلاحقه من البارحة؛ فتبعه دون تفكير، وظلَّ يسير خلفه بحذر حتى دخل إلى أحد الأزقة ولكنه اختفى عن أنظاره وكأنه استحال لشبح، فتلفت حوله مذهولاً وقلق، ثم شعر فجأة بصوت أنفاسٍ خلفه؛ فالتفت بذعر وإذ بسيف ذلك الرجل معلق في الهواء، ثم هوى به على (رائد)، قفز إلى الوراء لكن السيف كان أسرع؛ فجرح كتفه جرحاً طفيفاً نزفت منه دماؤه.

احمرت عينا الرجل وصرخ: لمَ تتبعني؟!

ابتلع (رائد) ريقه ووضع يده على مقبض سيفه؛ لإخراجه، لكن الرجل كان قد اندفع بسرعة أكبر منه.

أغمض (رائد) عينيه، وسمع صراخ ذلك الرجل فجأة، فتح عينيه وإذا بالرجل مديراً له ظهره والدماء تنزف منه ويقف أمامه عراف المدينة (إياد) بسيف يقطر دمًا.

اعتدل رغم توجعه وأسرع هارباً مِن جوار (رائد). نظر (إياد) إليه وسأل: هل أنت بخير؟

أمسك (رائد) كتفه وهو يقول: أظن ذلك، إنه جرح طفيف على ما يبدو.

اقترب منه وقال: أظن أنك أصبحت مديناً لي، ولكن...

أحدَّ النظر في عينيه وسأل: لماذا كنتَ تتبع ذلك الرجل؟ إنه مشبوه!

رفع (رائد) حاجبيه وسأل بحذر: هل تعرفه جيداً؟

-ألم أقل لك بأنَّني عرَّاف المدينة، هذا الرجل رأيته مرةً يتحدَّث مع الوزير (حاتم) على انفراد، ورأيته مرةً مع الوزير (آصف) في أحد المقاهي وهما متخفيان، كما رأيته مرةً مع رئيس العيارين.

توقف للحظة وكأنه أدرك خطأه وعلق: مهلاً، لماذا أخبرك بكلِّ هذا؟

أشار بإصبعه نحوه وقال: عليك أنْ تجعلني أعمل في القصر مقابل هذه المعلومات، لقد وعدتني بذلك.

ابتسم (رائد) بسخرية وقال: ما الذي تظنه بشأني؟ إنَّني رجل عادي.

قاطعه باندفاع: أنت صديق (حارث) المقرَّب، رأيته وهو يعانقك بشدة! أخبرني لماذا يسمحون لأطفال عائلة العلالي بالعمل، انظر إلى (بارع)، إنَّه

ملاصق لقائد الحرس (باتر) وبرتبة أمير، بينما أنا أُرفض لصغر سني مع أنه أصغر مني!

انكمش وجه (رائد) جراء الوجع وهو يمسح على الجرح ويقول: أنتَ لستَ شخصاً عادياً على أية حال. صدقني، سأحاول أنْ أفيَ بوعدي لك حالما تسنح الفرصة لي.

قبض على كتفه وهو يتبع: بالمناسبة، لقد كان ذلك الوشم غريباً.

سأل إياد مستنكراً: أيُّ وشم ؟!

أجابه: الذي على ذراع الرجل، حينما رفع سيفه نحوي شاهدت طرفاً مِن وشمٍ أحمر على يديه، لقد بدا لي كرأس عنقاء.

هزَّ (إياد) كتفيه وهو يعلق: لم ألحظ ذلك.

أزاح كفه الملطخة بالدم عن كتفه وهو يعلق: لا بأس، ولكن أخبرني، أين يمكنني أنْ أجد (بارعًا) الآن؟

أخرج منديلاً من جيبه وناوله إياه وهو يقول: امسح دماءك، مِن المؤكد أنَّك ستجده في الثكنات العسكرية.

شكره بامتنان، وأخذ يضغط على جرحه ويمسح الدماء المنبثقة منه، بدا له بأنَّها لن تتوقف، اقترب منه (إياد) وعاين الجرح ثم قال: ربما يتوجب عليك الذهاب إلى المستشفى.

ارتبك فقط من الفكرة؛ لذا حملق فيه بارتباك وهو يرد: هذا ليس مِن شأنك، ثم استدار مغادراً تاركاً (إيادًا) فاغراً فمه ناظراً إليه بذهول وهو يعلق: لماذا غضب هكذا؟! إنَّه حتى لم يشكرني!

بينما تابع طريقه دون هدي وهو يكرر بسخرية: مستشفى! أيريد منِّي أنْ ألقاها هكذا؟!

ابتسم بسخرية ومطَّ شفتيه قائلاً: محـــــــــال!

خرج مِن السوق وبدا أنَّه قد ابتعد كثيراً عن المنازل، أدرك بأنَّه قد تاه، ومع هذا تابع سيره، لمح مِن بعيد بحيرةً بين الأشجار؛ فأسرع نحوها، وقف ينظر إلى صورته المنعكسة على سطح الماء، ثم قفز وغمر كامل جسده بالماء، مسح جرحه جيداً ثم رشق الماء على وجهه، وبعد أنْ قضى بعض الوقت وهو يرشق الماء على وجهه وجسده، خرج واتَّكأ على الشجرة للحظات قليلة هادئة؛ إذ سرعان ما آثار

ذعره صوتُ وقع أقدام خافت قادم مِن خلفه؛ فالتفت سريعاً ولم يكن ليتصور بأنَّه سيشاهد ما يراه الآن، تصلبت عيناه، وبردت أطرافه؛ أما تلك التي عطلت كلَّ حواسه فكانت ماتزال تقترب بخطوات حذرة غير متزنة، تلك المرأة ذات العينين الواسعتين، والشفتين الضيقتين، والبسمة ذات الغمازتين، يعرفها جيداً ولم يكن ليتصور بأنَّه سيلتقي بها مرةً أخرى مطلقاً، لم تكن هذه المرأة سوى (بيلسان).

لكن ثمة شيء مختلف بها، إنَّ ملامحها كما هي لكن روحها ليست هي، إنَّنا نشعر بالأرواح وتغيرها أكثر مما نلحظ تغير الأجساد، نلحظ ذلك في ردة فعلنا وكأنَّ لكل روح حضورٌ نميزه بها؛ إذ كان لحضور روحها دوماً ثقل عليه، ولكن هذه المرة لم يكن كذلك!

لم يكن ما شل إرادته عن الحراك الآن هو إحساسه بالنفور لحضورها؛ بل استنكاره لغياب هذا الشعور.

كانت خطواتها ثقيلة وبطيئة وغير متوازنة ويدها تطيش في الهواء، والأخرى ترفع بها طرف فستانها قبل أنْ تضع ساقها على الأرض؛ أما عيناها فقد غدتا فجأة وكأنَّ الحياة قد غادرتهما.

أحس بنبضات قلبه تزداد كلما اقتربت، وما إنْ أصبحت ببعد خطوة منه حتى فوجئ بها تعبره دون أنْ تلاحظه، أو تبدي أية إيماءة تدلُّ على أنَّها قد شاهدت شخصاً جالساً هنا، وأيّ شخص هو؟ إنَّه شخص له معها قصة مؤلمة! كلّ منهما بلا شك يحاول محوها مِن ذاكرته.

شحُب وجهه كشخص غادرته الروح للتو وبالكاد استطاع أن يلتفت ببطء ناحيتها.

تابعت خطواتها المضطربة المتجهة نحو البحيرة، وحينما أصبحت على بعد خطوة منها، وهمت برفع ساقها؛ لتتقدم، حتى نهض سريعاً فاغرًا فمه عن: "توقفي"، لكنَّ قدمها زلت؛ فاندفع بجسده وأمسك بذراعيها قبل أنْ تسقط، صرخت وهي تتشبث بذراعيه وتعلق برهبة: رباه، المكان زلِق!

رفعت وجهها نحوه ووقعت عيناها الواسعتان على عينيه، ومع ذلك بدت له وكأنَّهما لا تنظران إلى شيء، شعر بقلبه يتوقف وهي تنطق: أهذا أنت (بارع)؟

لكنّها سرعان ما أدركت بأنَّه ليس هو فعرجت بيديها على كتفيه وانكمشت ملامحها وهي تتمتم بوجلٍ وكأنَّها تحدث نفسها: دم !

عادت لترفع عينيها نحوه، سألت بتردُّدٍ ساوره الشك: أنتَ لستَ غريباً، أهذا أنت بتّال ؟

سؤالها الأخير جعله يدرك بأنَّ الواقفة أمامه لا يمكنها أنْ تبصره بالفعل، وككاهن طروادة* حينما التفَّت الأفاعي حول عنقه؛ لتخنقه، شعر هو الآخر بالاختناق حتى جمدت الدموع في عينيه، وغشي ملامحه رعب كئيب، واهتزت شفتاه عن لا شيء، حاول أنْ يحرك ساقيه ويبتعد، أنْ يهرب، لكنَّه لم يستطيع، كان يشعر حقاً وكأنَّه واقف على أرض مائلة مموجة، إنْ تحرك خطوة فسيقع أو ستقع عليه.

لا يمكنه أنْ يتصور هذا، لا يمكنه أنْ يصدق أنَّ هاتين العينين الجميلتين والمفتوحتين عن آخرهما والمتسائلتين لا يمكنهما أنْ تبصره!

ما يحدث معه الآن شيء بشع تمنى لو أنه لم يرَ شيئاً. لعن في أعماقه ساعة الزمن ألف مرة، ولم يعد تعامل (بارع) له يشكل لغزاً فالجواب أمامه الآن.

---

* كاهن طروادة: ذكر في الإلياذة بأن كاهن طروادة حذر مواطنيها من قبول الحصان الخشبي الذي اختبأ فيه الجنود الإغريق، فأرسلت إليه الآلهة -وفق تصورهم الباطل- حيّتان عظيمتان التفتا حوله وخنقتاه.

أحاطت (بيلسان) وجهه بكفيها الغارقتين بدمائه؛ فاتسعت عيناه بذهول، مرَّرت أناملها على حاجبه برفق؛ فانكمشت ملامحه وأغلق عينيه بوجع، ثم

بصعوبة رفع يديه والتقط كفيها وأنزلهما بلطف، ثم سحبها مبتعداً عن البحيرة دون أنْ ينطق بشيء، لكنها توقفت فجأة عن المشي وسألت بوجهٍ مضطرب: أيمكن؟!... مهلاً أنت؟

أطبقت شفتيها وخفضت عينيها إلى الأرض، بدت مترددة، لكنها عادت لترفع رأسها وتقول: قل شيئاً رجاءً! أسمعني صوتك.

ابتلع ريقه بوجع، وشعر أنَّ رؤيته فجأة أصبحت ضبابية، وسرعان ما انحدرت دمعته، أراد أنْ يجيبها، أنْ يقول لها بأنَّه (رائد) مع أنَّه شعر بأنَّها أدركت ذلك وعرفته، ولكن ما الذي ستقوله بعدها؟ هذا ما يوجعه أكثر.

تناهى صوت (بارع) في المكان وهو ينادي بنبرة مملوءة بالقلق: أماه؟! أماه؟! أين ذهبتِ؟!

التفتت ناحية الصوت؛ أما (رائد)؛ فقد استدار سريعاً واختبأ خلف إحدى الأشجار.

اقترب منها (بارع) وبصوت ممتلئ بالجفاء علق: ألن تكفِّي عن هذا؟! أنتِ تُقلقين الجميع بتصرفاتك هذه.

أشاحت بوجهها وتنفست بعمقٍ في محاولة يائسة؛ لاسترجاع هدوئها وقالت: أريد أنْ أقضي بعض الوقت مع نفسي فقط، أنتم تبالغون في حمايتي.

ابتسم (بارع) بسخرية، ثم رمقها باحتقار وهو يرد: هم، ولستُ أنا!

لم تعد لكلماته الجارحة أيّ وقع على قلبها؛ لذا تجاهلته وتابعت تقدمها للأمام.

طاشت يدها فلمح آثار دماء عليها، اقترب منها حتى أصبح يسير بجوارها وسأل: هل أصيبتْ يدك؟

سريعاً غطَّتها بكفها الأخرى وخبأتهما خلفها وارتسمت على شفتيها بسمة ساخرة وهي تجيب: لماذا تسأل؟ هل أنت قلقٌ عليَّ يا ترى؟

شعر بدمه يغلي جراء تعليقها المستفز؛ فاندفع يسبقها وهو يصرخ منادياً: (عروب)، أين أنتِ (عروب)؟

كانت تركض باتجاهه وما إنْ اقتربت منه حتى توقفت تلتقط أنفاسها، ثم نظرت إليه متسائلة، ثم وقعت عيناها على (بيلسان) مِن خلفه وهي تقترب، عادت تنظر إليه فقال لها بوجه صارم: اهتمي بها!

ثم غادر المكان سريعاً.

تلقفتها (عروب) مِن كفها وهي تسأل: (بيلسان)، هل أنتِ بخير؟

ابتسمت في وجهها بحرج وهي تقول: آسفة! أرجوك لا تغضبي مِن أسلوبه معك!

كان (رائد) قد مال برأسه قليلاً وشاهد (عروب) وهي تمسك بكفها وتسحبها للمشي حتى ابتعدتا.

ظلَّ واقفاً هناك بساقين لم تعودا قادرتين على حمله، وبغمٍّ ناء بقلبه؛ ففطره نصفين. ظلَّ هكذا حتى غربت الشمس، تحرك بعدها وسأل بعضَ العابرين حتى تمكَّن مِن العودة إلى بيت (حارث)، وما إنْ ولج من الباب حتى ذُهلت (مياسين) وهي تشاهد ثوبه الممزق مِن عند كتفه والدماء تغطيه؛ فصرخت مستنكرة: ما الذي حدث معك؟! وأين هو سيدي؟!

جرَّته سريعاً دون أنْ تنتظر الجواب، أجلسته في الفناء وغادرت؛ لتحضر عدتها، وهو يراقبها بصمت، مزَّقت الثوب، ثم شرعت بتنظيف الجرح وهي تتأفَّف بقولها: إنَّها عميقة نوعاً ما، قد تحتاج إلى خياطة، مِن الأفضل أنْ تذهب إلى المستشفى.

لوى وجهه إلى الجهة الأخرى وهو يقول: نظفيها ولفيها فقط.

راقبها وهي تقصُّ الشاش وتُعدُّه؛ فقال: مِن الواضح أنَّك تجيدين ذلك، مَن علمك؟ هل تدرسين الطب؟

توقفت تنظر إليه وقد اعتلتها لوهلة نظرةٌ حانقة لاحظها، ثم عدلت عنها وابتسمت بتصنُّع وهي تردّ: لماذا تتصرف وكأنَّك لا تعرف؟! إنَّ أمثالي لا يحق لهم ذلك، ثُم وضعتْ له مرهماً على الجرح، ثم شرعت بلفه. كان يراقبها وهو ينظر إلى عينيها محاولاً كشف شيء مِن أغوارهما اللتين شعر بأنَّ خلفهما تختبئ كرة متأججة بالنار.

في تلك اللحظة كان (حارث) قد عاد، وما إنْ شاهد كتف (رائد) المربوط حتى اندفع نحوه بقلق، ولكن ما إنْ همَّ بسؤاله حتى نظر إليه (رائد) بعينين تائهتين وعاجله بالسؤال: (ليو)، أيمكن بأيِّ طريقة كانت أنْ أكون مسؤولًا عن..

ابتلع ريقه وأتم: فقد السيدة (بيلسان) لبصرها؟

*****

بجوار البحيرة مرَّ بائعٌ متجول، لمح شيئاً على الأرض يشبه الساعة، التقطه ومضى عابراً سبيله.

الفصل الثالث: قَيد

ما تفعلُه الوعود هو تقييدُنا وحسب.

كان يمشي بخطواتٍ ثابته وسريعة على الأرضيات الخزفية، عابراً مِن تحت القباب الضخمة، وهو بكامل زيه العسكري ودروعه، متجهاً بالتحديد إلى قاعة المرجان، كانت هذه القاعة هي القاعة الرئيسية في القصر التي تُعقد فيها الاجتماعات، كانت رؤيتها بمنزلة حلمٍ لمن هم خارج القصر؛ إذ كانت تعلوها قبةٌ عالية مِن زجاجٍ ملوَّن ومزخرفٌ بزخارف نباتية، وعندما تسقطُ الشمس عمودية فوقها فإنَّ أشعتها تعكس ضوءها الملون وأشكال زخرفتها على طاولة الاجتماعات؛ ليبدو منظرها الساحر وكأنَّه مشهدٌ مِن قصة خيالية، ناهيك عن اتساعها وإحاطتها بأربعة أبوابٍ عملاقة مِن كل الجهات، وفي شمالها يقبع كرسيُّ الحكم الذي يجلس عليه (شهاب الغوث).

ومع أنه كان اجتماعًا مغلقًا، ولم يكن مِن المقرر حضور (باتر) إلا أنَّه تجاهل الأوامر. ما إنْ اقترب مِن الغرفة حتى أوقفه حارسان اثنان على خوفٍ منهما، فهذا الواقف أمامهما لم يكن أيّ شخص؛ بل كان (باتر العلالي البغدادي) أمير الحرس الخاص، وشقيق أمير الجيش الموحد (بتال)، الكل يقول ذلك بوقارٍ يشوبه الحسد.

- المعذرة سيدي الأمير! إنَّه اجتماعٌ مغلق.

حدجه (باتر) بنظرة حانقة ثم دفعهما بيديه، لم يقاوماه كثيراً فقد كانت عيناه توحي بمدى غضبه، دفع الباب بقوة ودخل، دارت أعناق الجميع نحوه وبدا على وجوههم الاستنكار جراء تصرفه غير اللائق.

ولكنه مع هذا تابع تقدمه غير آبهٍ حتى وقف خلف الوزير الأول (حاتم) مباشرة، كان يجلس على طرف الطاولة، وعن يمينه (آصف)، وبقية الوزراء كانوا ملتفين حوله؛ أما الأمير (شهاب) فكان يجلس في مقدمة الطاولة.

تراجع (شهاب) إلى الخلف قليلاً وأحدَّ النظر في عيني (باتر) مستطلعاً، ومع أنَّه شعر بالغضب مِن تصرفه إلا أنَّه كان قادراً دوماً على أنْ يغفر له حماقاته واندفاعه المتهور، الجميع يعرف ذلك ويعرفُ بأنَّ علاقتهما علاقة صداقة قبل أنْ تكون علاقة أمير بحارسه؛ لذا امتلك زمام غضبه، وابتسم

برقة وهو يقول: لماذا أمير الحرس غاضب هكذا؟ اجلس ولنسمع منك ما تودُّ قوله.

حنى رأسه قليلاً باحترام ونطق: آسف سيدي الأمير!

ثم رفع رأسه وقال بثباتٍ دون تردُّد: (شهاب)، أوقف مشروع خطِّ القدس الجديد.

رفع الأمير حاجبيه متعجباً ثم ابتسم بسخرية وأجاب: (باتر)، إنَّنا ندرس الآن هذا المشروع.

قاطعه بحدة: أعلم؛ ولذلك جئت لأطلب منك إيقافه.

دارت أعناق الجميع صوب الأمير بتطلُّعٍ وترقُّبٍ لما سيقوله، وراهن بعضهم على أنَّه سيفقد أعصابه الآن، وأحدهم تمنى أنْ يدب شجارٌ بينهما، ولكنه سأل بكلِّ هدوء: هل تعتقد بأنَّك تملك صلاحية طلب ذلك؟

بثبات ردَّ: نعم، لقد أتيت للتو مِن العزاء الذي أقيم لسبعة عشر رجلًا سقطوا جرَّاء العمل.

انكمش وجه الأمير وألقى نظرةً سريعة مستفهمة على وزرائه حوله، فلم يبلغه أحدٌ بذلك، وسرعان ما هربوا بأنظارهم.

أتبع (باتر) بصوت واثق: هذا المشروع يجب أنْ يتوقف، أصبح واضحاً للجميع أنَّ الغاية منه قطع طريق القدس القديم، ومنح (بيين) سلطة أكبر رغم المواثيق التي وقعوها مع والي بغداد، وليس لمصلحة الحجيج والزوار كما يشاع.

أرخى (شهاب) رأسه على الكرسي وقال: (باتر)، أفهم تحسسك مِن هذا الموضوع، ولكن مشكلة (بيين) ستُحَلُّ قريباً بالزواج، الطريق سيكون مِن صالحنا جميعاً، ثم إنَّك تعلم بأَن والي بغداد قد وافق على المشروع.

والي بغداد لم تصله الصورة كاملة، وإن كان لا بد إذن...

ألقى بنظرةٍ سريعة على المسؤول المباشر عن المشروع، والذي كان يدعى (أمين)، ثم عاد لينظر إلى الأمير وقال: يجب عليك تغير المسؤول عن المشروع.

رمقه (أمين) بحنق ولم يستطع كبت غضبه فعلَّق قائلاً: هذا شيء لا تقرره أنت!

ابتسم بسخرية وردَّ: ومَن كان مِن حقه منع العمال مِن أبسط حقوقهم الطبيعية مِن طعام ومأكل ومعاملتهم كالآلآت بواسطة ...

رفع يده وأشار لـ(أمين) وأتبع: جنودك؟ ثم مَن سيعوض الأسر السبعة عشر الذين فقدوا معيلهم؟!

تلوَّن وجه (أمين) لدرجة جعلته ينتفش بالغضب؛ فوقف وهو يشير بسبابته نحو (باتر) مهدداً وهو يقول : أنت تقتحم المكان في حضرة الأمير، وتلقي التهم دون أدلة، وتتحدث كما يحلو لك، كلُّ ذلك لأنَّك ابن العلالي البغدادي؟! أتظنُّ أنَّ أحدًا لا يستطيعُ أنْ يقف في وجهك؟

أمسك بكفه الوزير الذي بجانبه؛ ليهدئه، فجلس بينما كان الوزير الأول (حاتم) يرمقه بسخرية وشماتةٍ واضحتين.

أما (باتر) فقد ابتسم بهدوء وهو يجيبه: أتطلب دليلًا؟!

التفت إلى الأمير وانحنى باحترام وقال: سيدي، لقد بعثتُ بعضَ رجالي الأسبوع الفائت إلى الطريق، أعلم أنَّ ذلك ليس مِن اختصاص الحرس الخاص، ولكن لم يكن أمامي خيارًا آخر، وكان الموضوع يستلزم التدخل السريع؛ إذ وصلتني معلومات عن وجود العيارين هناك، وبالفعل ألقى الرجال القبض على مجموعة منهم هاجموا العمال هناك، وقطعوا الطريق على الحجيج، ولقد تمكنُّوا مِن العثور على مخبئهم وإلقاء القبض على زعيمهم، وهنالك وجدوا..

توقف فجأة والتفت ناحية (أمين) ثم أتبع: وجدنا طعام العمال المختوم بالختم الملكي في مستودعاتهم.

قاطعه (أمين) بغضب: طبيعي لقد سرقوها، فهم لا يتركون شيئاً، أتظنُّ بأنَّ هذا دليلاً تدينني به؟

أخرج مِن جيبه مرسوماً وفتحه، ثم مرره أمام أعين الجميع وهو يقول: ووجدنا هذه في حوزة زعيمهم.

ناولها الأمير، وما إنْ قرأ الأسطر الأولى حتى احتقن وجهه بالغضب، ومع ذلك احتفظ بهدوئه، فالتفت ناحية (أمين) بخيبة ونطق: لماذا؟!

كانت عينا (أمين) مصدومتين، شعر بساقيه تترنحان؛ فانهار جالساً ولم ينطق بأيِّ شيء، ولكنه سرعان ما انتفضَ وصرخ مدافعاً: كذب.. هذا كذب.. سيدي الأمير بإمكان أيّ شخص أنْ يزوِّرَ هذا الكلام.

التفت الجميع نحو (باتر) فإذ به يقول: ومَن يستطيع تزوير ورق عائلتكم.

رد باندفاع: حتى هذه مِن السهل سرقتها!

دققَّ الأمير في الورقة ثم طاشت عيناه لا تخفي استياءها فكر قليلاً قبل أنْ يقول: سنحقِّق في ذلك، ثم وجه حديثه نحو (أمين) وقال: أنت الآن متهم، وعلينا أنْ نحقق معك، آسف لذلك! ولكن لا يمكنك البقاء هنا.

ابتلع الأمير ريقه وأمرَ الحراس بأخذه سريعاً؛ لإكمال التحقيق معه في وقتٍ لاحق،

وما إنْ خرج حتى ألقى بنظرة سريعة عليهم وهو يقول: بإمكانكم أنْ تغادروا الآن، سنتابع اجتماعنا في وقتٍ لاحق، ثم أتمَّ وهو يوجِّه حديثه إلى (باتر): بالنسبة للمشروع سأعيِّنُ شخصاً جديداً؛ ليهتم به.

حنى رأسه باحترام وما إنْ وقف الجميع وهمَّ (باتر) أيضاً بالانصراف حتى قال له الأمير: ابقَ هنا؛ فتوقف (باتر) وعبر الجميع من جواره يكتمون غيظهم؛ أما الوزير (حاتم) فما إنْ عبر مِن جواره حتى توقف وندت مِن شفتيه بسمة لا تخفي حنقها وهو يقول: أحسنت صنيعاً! إنني معجب حقاً بطريقتك التي تحل الأمور بها!

ثم تابع طريقه دون أنْ ينظر لردة فعل (باتر) الذي كان ينظر نحوه باستغراب من هذا الذم المغلف بالثناء.

وما إنْ خلت الغرفة مِن آخرهم حتى قال الأمير: أنت عجيب حقاً! أكثر شيء تجيده هو خلق الأعداء! كان عليك أنْ تخبرني بذلك على انفراد، ثم سأتصرَّف أنا بعد ذلك، على الأقل لا تبقَ واضحًا في الصورة.

ابتسم (باتر) ثم سرعان ما تحوَّلت بسمته إلى ضحكة خفيفة وهو يقول: إنَّني أفعل ذلك؛ لأحثهم على استخراج نواياهم وكشفها سريعاً.

تنهد الأمير وهو يجلس ويقول: أنت تضطرني الآن لمعاقبتك.

فغر فمه مندهشاً فأتبع الأمير: نعم، لاستخدامك الحرس الخاص في غير موقعه، كان عليك أنْ تعوز هذه المهمة إلى(حارث).

أطبق شفتيه ودارت عيناه في حيرة، ثم حنى رأسه نحو الأرض قبل أنْ يقول: أعلم ذلك، وأنا أعترف بخطئي. سأقبل أيَّ نوعٍ من العقاب تقرره.

اقترب منه وربت على كتفه وهو يقول: للأسف، لا يمكنني أنْ أفعل ذلك!

رفع عينيه إليه وبادله الابتسام، ثم ابتعد خطوة واستأذن بالخروج قائلًا: عليَّ أنْ أقابل (حارثًا) الآن، لديه شيءٌ مهمٌّ ليخبرني به.

*****

سأقتله! سأقتله!

صرخ بها (آصف) وهو يسبق الوزير الذي أغلق الباب خلفه وتأكَّد مِن إحكامه، التفت (آصف) نحوه متهجماً وهو يقول: أرأيت كيف أهانني، وكيف كان ينظر إليَّ متوعِّدًا وكأنه يقول: أنت التالي؟

أبعد رأسه إلى الخلف قليلاً وهو يتم: أنت السبب، نعم أنت السبب، لقد كان على مرأى بصري في أنطاكية، كان سهمٌ واحدٌ كفيلاً بقتله آنذاك، إنَّه بشر مثلنا، فلماذا هذا الخوف منه، لماذا أوقفتني؟

كانت إيماءات (حاتم) الباردة وغير المكترثة تزيد مِن غضبه، أضف إلى أنَّه اتجه إلى كرسيِّ المكتب وكأنه لم يسمع شيئاً؛ لذا اتجه (آصف) نحوه وضرب بكفه المكتب وهو يصرخ: لماذا لا ترد؟! لماذا تتجاهلني؟! أتريد أنْ ينتهي الحال بنا كـ(أمين)؟!

تأفَّف (حاتم) ونظر إليه بضجر وهو يجيب: أخبرتك ألف مرة بعدم الجدوى من قتله! سيحضرُ لنا والي بغداد ألفَ بغدادي عوضاً عنه، ولكنك عجول.

كز على أسنانه ومال بجسده قليلاً نحوه وقال: أخبرني إذن، متى ستنفذ خططك؟ أراك جالساً، وهذا الأحمق تزداد سلطته يوماً بعد يوم؟ أضف إلى أنَّه بقيت أيام على زواج الأمير، وأميرة (بيين) ستصل قريباً، وهذا الزواج سيحطِّم مشروعنا نهائياً. أخبرني ماذا فعلت حتى الآن؟!

أحاط رأسه بكفيه وهو يعلق: لقد أصبتني بالصداع، لا يمكنني أنْ أحتمل صراخك بعد الآن.

أزاح بكفيه ونظر إليه وقال: هلا هدأت قليلاً؛ لأفهمك.

حملق في عينيه للحظات استعاد خلالها هدوءه، ثم سحب كرسيًا وجلس أمامه وقال: حسناً أخبرني، ما الذي تفكر به؟

ندت مِن شفتيه بسمة ماكرة وهو يجيبه: ماذا إنْ أخبرتك بأنَّ أميرة (بيين) في صفنا؟

تدلى فكُّ (آصف) من الدهشة وعلق: أنت تكذب، أنت تخدعني. كيف لك أن تعرف ذلك؟!

ابتسم حاتم بسخرية، ثم استحالت بسمته لضحكات متتابعة وذاك ينظر إليه باستغراب، وأثناء ذلك طُرق الباب؛ فتوقف (حاتم) عن الضحك وأذن لمن بالخارج بالدخول. كان أحد الحراس، اقترب منه ثم انحنى وهمس له بشيء ثم أحنى رأسه له باحترام وغادر مغلقاً الباب خلفه؛ أما (آصف) فكان كالتائه لا يدري ما الذي يحدث حوله، التفت ناحية (حاتم) وسأل: ما الذي أخبرك به؟

التمعت عينا (حاتم) وهو يجيبه: لقد أبلغني بأنَّ رئيس العيارين قد قُتل في سجنه، هذا غريب! من يفعل ذلك؟ (أمين) مسجون، وأنا لم آمر بذلك.

عبَّر (آصف) عن استنكاره هو الآخر وردَّ: لمصلحة من غير (أمين) وغيرك، أريد إسكاته يا ترى؟!

ثم انخرطا في صمت. كان (آصف) يراقب إيماءات (حاتم) المضطربة قبل أنْ يسأله: أخبرني أولاً، كيف تعرف أنَّ الأميرة في صفنا؟

توقف عن التفكير ونظر إليه وهو يبتسم ويجيب: أخبرني أحدهم أثق به يملك طيوراً في كلِّ مكان.

كرَّر (آصف) بسخرية: طيور؟!

تراجع حاتم إلى الوراء وقد انتفش بالثقة وهو يقول: أخبرتك، سأجعل كلَّ البغداديين يرحلون مِن هنا، وأبناء العلالي سينتهون.

*****

مهابة!

ذلك ما شعر به (رائد) وهو يشاهد الحرس الخاص وهم يصطفون؛ لأداء التحية لـ(حارث)، ظل يراقبه بنظرة اعتزاز وفخر وهو يستدعي كلَّ تلك الذكريات التي عاشها معه أيام ثورة دومدري وسجن القدس، ثم شعر باضمحلاله وهو يتذكر صراخه في الصباح على (حارث) وتأنيبه له ورفضه ارتداء الزي العسكري. لاحظ حارث نظراته تلك؛ فاقترب منه وسأل: ما الذي يشغلك؟

راقب الجنود بعينيه وقد شرعوا بتدريباتهم الصباحية للحظات ثم أجاب: أنا فقط سعيد من أجلك (ليو)!

رفع (حارث) حاجبيه مستنكراً فأتبع (رائد): حتى أنَّني أشعر بأنَّني أودُّ معانقتك الآن، ثم شرع ذراعيه واقترب منه، أبعده (حارث) ممازحاً وهو يقول: إن كنتَ مشتاقاً لعناق أحدهم...

صمت ولم يكمل ورمقه بنظرة متفحصة، تأفَّف (رائد) بضجر وهو يرد: تريدني أنْ أعيد ما قلته صباحاً لك؟ حسناً سأكرر: أنا لن ألقاها، ثم تشاغل بكمِّ قميصه وهو يقول: على أية حال متى سيأتي (باتر)؟ مع أنِّي مشتاقٌ إليه، إلا أنني أشعر بالمهابة قليلاً، ثمة ما يخيفني دوماً منه، ربما بسبب الظروف التي جمعتنا سابقاً.

لقد تغير (باتر) كثيراً ولكنه ما يزال متهوراً وحادّ المزاج، ولكن صدقني حينما أخبرته بأمرك، سُرَّ لذلك كثيراً.

أجابه بذلك، ثم التفت مجيباً أحد الحراس الذي وقف؛ ليكلمه.

بدا الملل يتسلل إلى (رائد)، استند إلى أحد الأعمدة القريبة منه، ثم رفع عينيه للأعلى، أبصر قبةً عالية جداً لفتت انتباهه.

أيمكن أنْ تكون قبة القصر؟

تحرَّكت ساقاه دون أنْ يشعر نحوها، عبر ممراتٍ طويلة، وحديقتين جميلتين محاولاً الوصول إليها، ثم استوعب فجأة بأنَّه ابتعد كثيراً عن ثكنات الحرس الخاص، حكَّ شعره بارتباكٍ وتلفت حوله، لم يكن يوجد سوى المساحات الواسعة المزروعة بالحشائش الخضراء، وأحواض الماء، وسلال الورد المعلقة، وقتئذ كانت (مارغريت) بفستانها الأبيض الذي زُينت أطرافه بخيوط كتان صفراء ونقوش نباتية، وقد لفت شعرها بوشاحٍ أزرق انعكس على لون عينيها الرماديتين تقترب مِن أحد تلك الأحواض، رفَعت رأسها ولامست بأناملها زهرة الياسمين المعلقة بإحدى السلال، ووقفت للحظة تشمُّ عبيرها، وما إنْ التفتت خلفها حتى تجمَّدت عيناها؛ إذ بدا لها نصف جسد (رائد) يظهر مِن الجهة المقابلة وهو يتلفت حوله وكأنَّه يبحث عن شيء ما.

فغرت فمها عن دهشة ممزوجة بصدمة وتحركت شفتاها بثقل عن قولها: لم أكن واهمة إذن! لقد كان هو حقاً!

انفلتت دموعها سريعاً وجرت نحو شفتيها.

لم يكن ما رأيته في السوق وهماً إذن!

لم يكن ...شعوري ذلك عبثاً...

تحركت ساقاها ببطءٍ خطوتين تجاهه دون أنْ تدرك، ولكنها توقفت فجأة حينما لمحت زيه العسكري!

ارتجف قلبها، وعصفت بها الفوضى وساورتها الشكوك...

منذ متى وهو هنا؟ لماذا لم يخبرني؟ أكان يتجنبني؟

تراجعت خطوتين وهزَّت رأسها نافية محاولة أنْ تطرد الفكرة.

وإنْ يكن، وإنْ يكن... إنَّه (رائد) الذي انتظرته طويلاً.

ضمت كفيها إلى بعضهما، وابتسمت بشوقٍ، وما إن همَّت أنْ تندفع نحوه حتى أحسَّت الخاتم في إصبعها؛ فانكمشت ملامحهما، وتوقفت، وخفضت عينيها تنظر إلى بنصرها؛ فارتجفت يدها كما قلبها، كانت هذه المرة الأولى التي تشعر بمدى ثقل هذا الخاتم.

غطته بكفها الأخرى، ثم رفعت إليه عينيها الدامعتين تنظر إليه.

لقد كنتُ أنتظره طويلاً، لقد كنتُ طوال هذه الأعوام أنظر إلى السماء، وأمني نفسي بعودته، وبأنِّي لن أتركه يرحل حتى لو أراد هو ذلك، فلماذا الآن لا أستطيع أنْ أتحرك نحوه؟

لماذا أشعر بهذا الثقل، أريد أنْ أتحرك، لماذا جسدي لا يطاوعني؟

لامست الخاتم وهي تتبع:

أهذا ما تفعله الوعود، تقيدنا وحسب؟

كنتُ أعلم بأنَّه قيد، ولكن..

شخصت عيناها؛ إذ أدركت بأنَّه يهم بالنظر ناحيتها؛ فاستدارت بكامل جسدها مديرةً له ظهرها وبالكاد استطاعت المشي؛ إذ كانت تتعثر وتشعر بثقل

ساقيها، ومع ذلك استمرت بالابتعاد دون أنْ تلتفت خلفها رغم إيقانها بأنَّه ولاشك ينظر إليها الآن.

وبالفعل، ما إنْ أبصر ظهرها، حتى ساوره الشك بأنَّها هي؛ فتقدَّم بخطوات مندفعة ولكنه توقف عند أول حوض ماء صادفه، وظل يراقبها مِن بعيد وهي تجرُّ خطواتها مغادرة. كانت نسمات الهواء تحرك أطراف فستانها يميناً.

لم يستطع أنْ يبعد ناظريه عنها، إنها كسحابته بالضبط، وكأنَّها قد تحولت إلى ياسمينة بفستانها الأبيض وهي تمشي بين الياسمين.

فُرجت شفتاه ناطقتان: إنها هي.

ولكنه لم يستطع أنْ يلحقها، كانت صورتها وهي تبتسم لـ(طاهر) كأعمدة مسامير ثبتت قدميه على الأرض.

تابعت (مارغريت) سيرها، ثم توقفت قليلاً خلف أحد الأعمدة تحاول جمع شتات مشاعرها، لاحظت (بيلسان) تجلس عند أحد الأحواض، فخمَّنت بأنَّها تنتظر (باترًا) ولا شك.

اقتربت منها وألقت عليها التحية ثم غادرت، عرَفَت مارغريتُ بيلسانَ هنا في دمشق، وعرفت القصة التي لم يروها (رائد)؛ بل شاهدت فصولًا مِن القصة لم يشاهدها هو، ومع هذا كانت قادرة على التماس العذر لها والحديث معها بكل بساطةٍ وود؛ بل ربما تملكتها مشاعر شفقة نحوها؛ إذ كانت في أحيان كثيرة حينما تقوم بفحصها أو تعاينيها تسرح في عينيها الفاقدتين لبريقهما، وتحدث نفسها قائلة: كلتانا تعيشان حباً لم يكتمل، والمضحك أنه للرجل ذاته!

حينما وصلت إلى المستشفى لاحظت الفوضى والاضطراب عند إحدى الغرف، وسمعت صوت بكاء مكتوم ينبعث منها، لقد كانت تعرف هذه الغرفة جيداً، كان ينام فيها شاب مريض أشرفت على علاجه والاعتناء به، أسرعت نحو الغرفة راكضة ووقفت أمام الباب ووقعت عيناها عليه وهو مغطى، وفوق رأسه وقفت أمه تبكي و(طاهر) بجوارها يحاول التخفيف عنها؛ ففهمت بأنه قد مات.

كان (طاهر) قد أقنع والدته بالخروج، وعبر مِن جوار (مارغريت) ولاحظ ملامحها المصدومة؛ لذا عاد بعد دقائق ليجدها داخل الغرفة تنظر إلى الجثة بوجه صامت ولكن بأعماق تصرخ مِن الألم.

وقف إلى جوارها؛ فشعرت به وقالت: (طاهر)، متى ستتوقف هذه المآسي التي نشاهدها كل يوم؟ لقد تعبتُ بالفعل!

وضع يده فوق كتفها؛ ليواسيها، ولكنه نطق بكلمات أرهبتها، إنَّ الكلمات التي تحمل إلينا حقيقة نتجاهلها هي في الغالب ترهبنا حينما تقال لنا حتى لو كنّا ندركها جيداً.

قال: على المآسي ألَّا تتوقف.

بعينين ذاهلتين حملقت في عينيه، ومع أنَّه أدرك استنكارها هذا إلا أنَّه كرَّر مؤكداً:" نعم، على المآسي ألَّا تتوقف، وإلا فلن يجدُ الرسام ما يرسمه، وسيتوقف الفنان عن العزف، وسيجفُّ مداد قلم الكاتب، لولا المآسي لما وقفنا ننظر إلى اللوحة بانبهار، ولما بكينا لمقطوعة، لولا المآسي لما تطلعنا إلى السماء بأمل، لولا المآسي لفقدت كثير مِن الأشياء بريقها".

ظلت تنظر إلى عينيه البنيتين، وغرقت فيهما للحظات، ولوهلة شعرت بأنَّ رؤيتها قد أصبحت ضبابية؛ إذ شعرت بأنَّ أغوار عينيه تخفي مأساة فظيعة هي الأخرى لم تعد قادرة على التعمق فيهما أكثر؛ لذا أشاحت بعينيها وتحركت شفتيها بعد لحظات متسائلة: ألهذا دوماً ألحانك حزينة؟

*****

كان (باتر) و(حارث) يسيران بجوار بعضهما بحثاً عن (رائد)، كان خلالها (باتر) يقصُّ عليه ما حدث في قاعة المرجان، وما إنْ اقتربا مِن ساحة الياسمين حتى أبصرا (رائدًا) متسمراً في مكانه، استنكرا ذلك بداية وسريعاً نادى عليه (حارث)؛ فالتفت (رائد) ووقعت عيناه على (باتر) الذي ابتسم باتساع؛ لرؤيته، ظلَّ واقفاً مكانه بينما تقدم نحوه (باتر)، وما إنْ أصبح أمامه حتى مَدَّ له كفه وهو يقول: أهلاً بعودتك (رائد).

نظر لكفه ثم ابتسم وهو يصافحه ويقول: سررت برؤيتك!

فوجئ بـ(باتر) يشده نحوه ويعانقه وهو يقول:

كيف وصلت إلى هنا؟ ولماذا اختفيت أصلاً المرة السابقة؟

اعتدل (رائد) وهو ينظر إليه ويجيبه: لا يهم، المهم بأنِّي عدتُ الآن.

-سيسعد (بتّال) كثيراً لرؤيتك.

قالها (باتر) وهو يبتسم باتِّساعٍ ثم أتبع: سيصل قريباً إلى هنا.

أومأ (رائد) موافقاً وهو يقول: لقد أخبرني (ليو) بذلك.

ألقى بنظرة سريعة على زيه وقال موجهاً حديثه إلى (حارث): ما الذي فعلته؟ هذا الشخص مكانه ليس صفوف الجند.

-إنَّه يريد أنْ يتبعني فحسب، لقد رفض حتى أنْ أقدمه للأمير.

قالها (حارث) وهو يرمق (رائدًا) بازدراء.

-حقاً؟

التفت إلى (رائد) وأتبع: لماذا يا رجل؟

ابتسم (رائد) بحرج وهو يجيب: في الواقع لا أعلم كم سأمكث هنا، ربما سأغادر بعد الزفاف على أية حال؛ لذا لا أريد أنْ أرتبط بأيِّ شيء، يمكنك أنْ تقول: إنِّني مجرد زائر وحسب.

وقعت الكلمة على قلب (حارث) ثقيلة، ومع ذلك لم يجادله واكتفى بالعبوس.

آنذاك كان (بارع) قد قدم، وبدا جسده يظهر مِن بداية الممر، ولكنه توقف فجأة ما إنْ أبصر ثلاثتهم، (باتر) يقف في وجهه، بينما (حارث) و(رائد) يديران له ظهريهما، وللحظة قرَّر أنْ يتراجع ويسلك طريقاً آخر، لكن

(باترًا) كان قد شاهده؛ فأشار إليه بيده وهو يقول: (بارع)، تعال وشاهد مَن هنا.

لم تكن علاقته مع (باتر) جيدة هي الأخرى، ولكنه لم يستطع الرفض؛ فتقدم بخطوات ثقيلة شعر بها (رائد)؛ إذ إنَّه شعرَ هو الآخر بثقلٍ يمنعه مِن الالتفات خلفه.

استدار ببطء، وما إنْ وقعت عيناه عليه حتى أشاح (بارع) بعينيه ووجَّه نظره إلى شقيقه وقال برسمية: نعم سيدي الأمير.

فوجئ (باتر) ليس مِن طريقته الرسمية؛ بل مِن تجاهله لـ(رائد)؛ فظنَّ أنَّه لم يعرفه؛ لذا أشار إليه وقال: انظر جيداً، ألم تعرفه؟ هذا (رائد)، معلمك.

طرفه بنظرةٍ سريعة خالية مِن أية تعبير ثم قال: لقد قابلته مِن قبل.

تعجب (باتر) مِن رده وموقفه البارد حتى أنه لم يستطع التعليق، واكتفى بنظرات مستنكرة وحائرة تجاهه. زمَّ (بارع) شفتيه ثم خفض رأسه وقال: سأذهب الآن.

وما إنْ تجاوز (باتر) بخطوة حتى توقَّف وقال: لم يكن لدي معلم على أية حال.

ثم تابع تقدمه. التفت (باتر) ناحيته سريعًا وبغيظ ونطق: أيها الـ...

عضَّ على شفتيه؛ ليبتلع غضبه، ثم عاد لينظر إلى (رائد) الذي هرب بعينيه سريعاً خشية التعليق، ثم قال بارتباك: (ليو)، ألن تبدأ التدريب معي؟

حرَّك (حارث) رأسه موافقاً، فنظر ناحية (باتر) وقال: سأذهب الآن مع(ليو)، أستأذنك، ثم تقدم سريعاً، تبعه (حارث)، لكن (باترًا) أوقفه بقوله: أخبره بأنَّني سؤأدِّب ذلك المتعجرف، ثم سلك هو الآخر طريقه ناحية القصر، لكنه فوجئ برؤية إحدى خادمات (بيلسان)، حرَّك عينيه حول المكان بحثاً عنها وسرعان ما بدا له نصف ظهرها؛ إذ كانت تجلس على طرف إحدى النوافير.

أسرع نحوها وما إنْ اقترب حتى وقفت هي سريعاً وسألت: (باتر)؟

اقترب منها وطبع قبلةً على جبينها وهو يسأل باستغراب: أماه، ما الذي جاء بك إلى هنا؟

عبست وهي تجيب: لقد مضى أسبوع لم تأتِ فيه إلى المنزل، لقد قلقت عليك و...

صمتت للحظة، ضاقت عيناها خلالها ثم تابعت: اشتقت إليك أيضاً، ولكني سمعت...

قاطعها؛ إذ جرها نحوه وضمها إلى ذراعيه وربت على ظهرها معبراً عن شوقه وهو يقول: أنا أيضاً اشتقت إليك!

ربتت على ظهره هي الأخرى ،ثم اعتدلت وقالت وقد اضطربت ملامحها من القلق: سمعت بأنَّك اقتحمت مجلس الأمير، ما الذي تعتقد أنَّك فاعله؟! ألن تكفَّ عن تهورك؟ (باتر)، إنَّ الأمور لا تحل هكذا، كن أكثر تعقلاً رجاء!

ابتسم بلطف ثم استحالت بسمته لضحكات متتابعة مفعمة بالسعادة، التقط كفَّها وسار معها وهو يقول: حسناً، لن أفعل ذلك مجدداً، ما رأيك الآن بما أنَّك جئت إلى هنا أنْ نتنزَّه في الحديقة قليلاً؟ إنَّها ممتلئة بالأزهار التي تحبينها.

أومأت موافقة، سحبها معه ولحقتها الخادمات، فأشار بيده؛ لإيقافهن، ثم تابعا المشي. عبرا بجانب كثير مِن الزهور الملونة، كان (باتر) يدقق النظر فيها وينتقل ببصره بين الواحدة والأخرى، ثم توقف فجأة حتى قال: أتسمعين خرير الماء؟

أومأت موافقة فأتبع: إنَّها نافورة مميزة، إنَّها منحوتة على هيئة فراشات وأزهار، والماء يخرج مِن أعلى إناء فيها، إنَّها جميلة حقاً! هل نجلس بجوارها؟

أومأت موافقة؛ فسحبها وأجلسها، تلمَّست بأصابعها البلاط حتى وصلت لحافته، ثم غطست أصابعها بالماء وأخذت تعبث بتحريكه.

أخذ يحدق فيها وينتقل ببصره بين كفها وعينيها، ثم أشاح بوجهه إلى الجهة الأخرى وتنهَّد بصوت مسموع.

فسألت: ما بك؟ لمَ تتنهد هكذا؟

- سآتي اليوم للبيت أماه، سنتناول العشاء معًا، وسأمسك بـ(بارع) الأحمق، لقد أحرجني قبل قليل.

ضحكت (بيلسان) بخفة وعلقت: حسناً، إنَّه يذكرني بك وأنت أصغر قليلاً.

امتعض وجهه كطفلٍ واعترض قائلا: أنا ؟! أنتِ تظلمينني بذلك.

ابتسمت ثم رفعت عينيها للأعلى وصمتت وبدا واضحاً بأنَّ عينيها تسبحان في ذكريات قديمة، أخذ (باتر) يراقبها وهي تبتسم ثم تعبس فجأة، ظلَّ هكذا حتى التفتت ناحيته وسألت: لمَ صمتَ فجأة؟

كنتُ أراقبك وأنت تبتسمين وتعبسين، ما الشيء الذي كنتِ تفكرين به أماه؟

ابتسمت بحرجٍ وقالت: كنتُ فقط أسترجع أيامنا في بغداد، لقد تذكرت والدك؛ فابتسمت، ثم ...

بترت كلماتها التي كانت على طرف شفتيها، لم تستطع أنْ تقول بأنَّها تذكرت كيف أصبح (بارع) و(بتال) بعد موته، أحدهم لا يكترث لوجودها والآخر يعاملها كأنَّها عدو.

حركت رأسها نحو الماء ونطقت: كنّا أحباء في ذلك الوقت.

ربت على كتفها وكأنه قد فهم تماماً ما صمتت عنه وقال مطمئناً: ذاك الأحمق لا تقلقي بشأنه، إنَّه مجرد طيش وحسب.

أومأت برأسها موافقة فأتبع هو: أنا معك (بيلسان).

ابتسمت بحرج وراحت تلعب بأناملها في الماء، كتَّف ذراعيه وأخذ يراقبها للحظات قبل أنْ يقول: أتساءل، متى ستفتحين عينيك جيداً وترينني مرة أخرى؟

توقفت عن تحريك الماء وحركت رأسها ناحيته ببطء وقالت: ما الذي تقوله (باتر)؟ أنا أفتحهما جيداً، كلّ ما في الأمر أنَّه لا يمكنني أنْ أدخل الضوء بهما فقط.

-بل ستفعلين.

ابتسمت بسخرية وهي تقول: حسناً!

-(بيلسان).

جمد وجهها للحظة، فهي تدرك ذلك أكثر مِن غيرها، تدرك بأنَّ عينيها سليمتان، وأنَّ ما يمنعها عن الإبصار كان مجرد صدمة وخوف وحزن، أمسك بكفها وأخرجه مِن الماء ورفعه وهو يقول: (بيلسان)، لقد أخبرتك سابقاً بأنَّني أكثر شخص يعرف أعماقك جيداً، يجب عليك أنْ تنسي حزنك، لقد فقدتِ بصرك إثر حزنك على والدي وشعورك بالذنب، حاولي أنْ تنسي ذلك أرجوكِ! وحينها ستكونين قادرة على رؤيتنا مجدداً، إنَّ علاج عينيكِ..

رفع كفها ووضعه على صدرها وأتبع: هنا، يجب أن تُزيحي حزنك مِن هنا أولاً.

سحبت كفها بارتباك وغطسته مجدداً في الماء، التقطت نفساً عميقاً وظلت صامتة للحظات قبل أنْ تعلق: أنت...أنا أخاف منك حينما تناديني (بيلسان).

ابتسم بودٍّ ثم وقف وهو يقول: أخبرتك كثيراً بأنَّني أعرف أعماقك أكثر مِن أيِّ شخص آخر، كما أنَّني ...

أمسك بكفها يحثُّها على الوقوف وهو يقول: لن أتركك، لنذهب الآن أماه ولنكمل نزهتنا، سأحدثك عما يشغلني، ولكنه صمت فجأة؛ إذ لمح أحد الجنود

يقترب منه، أشار له بالتقدم؛ فاقترب وانحنى وهمس في أذنه بخبر موت زعيم العيارين بالسجن.

انتفض جسده وشدَّ على قبضته الممسكة بكفٍّ (بيلسان) وهو يقول: لقد فعلها ذلك الخبيث، أنا واثق.

الفصل الرابع: الشَّرخ

كم فجرًا تحتاجُ الذكريات النائمة في أعماقنا كي تستيقظ؟

-لم يكن لديَّ معلم على أية حال.

كانت هذه الكلمات تحاصر ذهنه، تتكرَّر تكرارًا مزعجًا أشبه بطنين نحل، يحوم حوله ويتناوب على لسعه.

لم يعد قادراً على استبدال هذا الخاطر؛ ففتح عينيه ونهض مِن فراشه، وما إنْ لمح نفسه في المرآة، حتى انكمشت ملامحه؛ إذ تذكَّر بأنَّه لم يشاهد ساعة الزمن.

كان يضعها في جيب ثوبه الذي تمزَّق حينما تقاتل مع ذلك الرجل الذي كان يتبعه، اتجه سريعاً نحو الدولاب وفتَّش فيه، لكنه لم يجده، صرخت أعماقه وهو يدفع فكرة أنَّ تكون(مياسين) قد تخلَّصت منه.

طُرق الباب فجأة؛ فاندفع نحوه وفتحه سريعاً، وكما توقَّع كانت هي مَن يقف خلفه، عاجلها بسؤاله: هل تخلصتِ مِن ثوبي الممزق؟ لقد كان بداخل جيبه شيء مهم؟

هزَّت رأسها بارتباك وهي تجيب: لم أجد شيئاً به!

صرخ مستنكراً: كيف ذا؟!

انكمش وجهها ومالت برقبتها إلى الوراء وأشاحت بعينيها بعيداً.

أدرك بأنَّه قد بالغ في رفع صوته؛ فاعتذر على الفور.

زفر الهواء متأفِّفاً ودارت عيناه للأسفل مفكراً، اقتربت منه بحذرٍ وسألت: هل هو شيء مهم جداً؟

غطَّى وجهه بكفه وعلق: إنَّني أحمق بالفعل، يبدو أنَّني أسقطتها في البحيرة.

اتجه صوب الدولاب سريعاً وأدخل أحد الأثواب في جسده، ثم عبر مِن جوارها ولكنه توقف؛ إذ كانت تشير له نحو المنضدة؛ فعاد أدراجه ولبس الحزام، علَّق سيفه وهو يقول: أخبري (ليو) أنَّني سألحقه.

لكنها أوقفته مجدداً بقولها: مهلاً سيد (رائد).

أشارت لشعره بخجل، تأفَّف بوضوح، ثم رفع يده وخلل أصابعه بين خصلاته وبعثره وهو يقول: لماذا تعتقدين أنَّه كلما كان ممهداً كان أجمل؟! هذه الموضة في قرني.

رفعت حاجبيها مستنكرة وهي تحدث نفسها: ألم أقل بأنَّه مجنون؟! إنَّه يتصرف وكأنه مِن عصرٍ مختلف.

أما هو فقد تابع تسريحه ثم قال بتذمر: أهكذا جيد بالنسبة لك؟ هل عيَّنك (ليو) لمراقبة شعري؟

بزغت على شفتيها بسمة ساخرة حاولت إخفاءها وهي تخفض رأسها للأسفل، فلاحظها وضحك وهو يشير نحوها يقول: اسخري قدر ما تشائين، لن أغضب من هذا، على العموم أنا أعفيك مِن خدمتي، أستطيعُ أنْ أرتِّب غرفتي وأحضِّر ثيابي بنفسي، ثم استدار وهو يقول: لا تنسي أنْ تخبري (ليو)، بينما تابعت هي السخرية منه في أعماقها بقولها: حتى إنَّه يسمي سيدي باسم غريب، إنَّه مجنونٌ بالفعل!

انطلق سريعاً في طريقه، عبر السوق مروراً وما إنْ أصبح على مشارف البحيرة حتى شعر بجسده يُسحب إلى الخلف فجأة مِن كمه، التفت سريعاً وإذ بـ(إياد) يقف خلفه ويرمقه بنصف عينه وهو يقول: إلى أين؟

لفظ كفه؛ ليتخلص منه وهو يجيب: اسمع، أنا لستُ متفرغاً للحديث معك، لدي شيء مهم أبحث عنه.

لوى (إياد) فمه ثم اقترب منه وهو يقول: آهاااااا، لا تريد أنْ تتحدث معي، لم أعد شيئاً نافعاً الآن؟ أنسيت الوعد؟ يا لَك مِن وغد حقاً، لقد رأيتك وأنت تتبختر البارحة بزيك العسكري، لقد أخذتَ مكانك سريعاً ونسيتني.

كتف (رائد) ذراعيه بضجر وهو يرد: لا بأس إذن، إنْ كنتَ تريد الزي سأتنازل عنه لك، ولكن دعني الآن، ثم استدار مغادراً، ولكن (إيادًا) أوقفه قائلًا: مهلاً، أنت تأخذ الموضوع باستهتار، لقد خدعتني حقاً.

أرخى ذراعيه بتملل وهو يجيبه: حسناً، أنت محق، لقد خدعتك بالفعل، ولكن اتركني الآن وشأني، سنتفاهم فيما بعد، ثم استدار، لكن الآخر سدَّ عليه الطريق وسدَّد نحوه نظرات محتقنة وهو يقول: أنت تتجاهلني! أنا لستُ غبياً لتردَّ عليَّ بمثل هذه الردود، لقد وعدتني وعليك أنْ تفي بوعدك، أنتَ صديق معلمي والقائد (باتر)، فما الذي لا تستطيع فعله؟

كتف ذراعيه وراح يرمقه بضجر للحظة وهو يفكر بطريقة تخلصه منه، أرخى ذراعيه وربت على كتفه وتقدم وهو يقول: حسناً، ما رأيك أنْ تكون حارسًا شخصيًا لي مؤقتاً، إنْ جلساتي المتكررة أمام الحاسوب أفقدتني كلَّ مهارتي.

صمت للحظة وهو ينظر لفم (إياد) الذي التوى معبراً عن استيائه قبل أنْ يتبع: إنَّني جاد، ألا تريد وظيفة في القصر وحسب؟

حينما لم يجبه (إياد) وظل يرمقه بالنظرات ذاتها استدار (رائد)، لكن (إيادًا) جرَّه مِن كتفه وأوقفه مرة أخرى وهو يقول: لن تخدعني.

انفجر (رائد) معبراً عن استيائه وغضبه: أنا لن أخدعك، لقد وعدت بأنَّني سأحدث (ليو) بشأنك سيد عراف، أرجوك أنْ تفهم بأنَّني مشغول الآن! إنَّ ذهني مشوشٌ، ولكن صدقني، أنا أفي بوعودي دائماً، سأفعل ما أستطيع.

أرخى كفه ثم ابتعد خطوة إلى الوراء وقال: حسناً، سأنتظرك، هذا وعد.

أومأ له (رائد) موافقاً، وما إن همَّ ليستدير حتى عاد لينظر إليه ويسأل: أخبرني، لماذا أنت مصرٌّ إلى هذا الحد؟ إنَّ الناس عادة تهرب مِن الخدمة العسكرية، وأنت تسعى إليها سعياً!

ندت منه بسمة مريرة خلقت في (رائد) إحساساً مربكاً؛ إذ بدت له وكأنها تخفي خلفها ألماً ثم أجابه: لدي شيء أبحث عنه، شيء افتقدته وأريد استرداده.

لاحت إيماءة حائرة على وجهه لكنه سرعان ما ابتسم له ثم استدار متابعاً طريقه.

سلك طريق البحيرة، وما إنْ وصل إليها حتى شرع يفتش حولها بين الحشائش دون جدوى، ثم قفز نحو الماء وأخذ يفتش فيه بيديه ويغطس حيناً ولكنه لم يجد شيئاً، أنهكه البحث؛ فخرج من الماء وأخذ نفساً عميقاً، عض على شفتيه بضجر ولام نفسه كثيراً: كيف، كيف لي أنْ أضيع شيء مهماً كهذا؟!

ألقى بجسده على الأرض وتمدَّد، رفع رأسه نحو السماء، كانت أشعة الشمس تتسلل مِن بين فروع الأشجار الكبيرة، وتسقط عليه بخيوط رفيعة، أخذ يحدِّق طويلاً حتى عبرت سحابةٌ أخفت جزءاً مِن أشعة الشمس.

نطقت شفتاه دون وعي: أريد، ثم أكمل في أعماقه: رؤيتك...أكثر مِن أيِّ وقت مضى.. ولكن كيف؟ بأيِّ وجهٍ مِن الممكن أنْ أقابلك؟

أغمض عينيه وأرخى رأسه بيأس.

شعر فجأة بحركة خلفه؛ فجلس مستنداً إلى ذراعيه بفزع، فوجئ بحجم المسافة التي تفصله عن تلك الواقفة خلفه.

كانت (بيلسان) تبعد عنه مسافة ثلاث أو أربع خطوات فقط، كانت تلتقط أنفاسها بعمقٍ مغمضة عينيها سامحة لنسمات هواء الربيع أنْ تدفع وشاح رأسها الأبيض إلى الوراء.

حاول بيأسٍ أنْ ينهض دون أن يُحدث صوتاً، ولكن سرعان ما كشفه صوت تحرك الحشائش، التفتت (بيلسان) ناحيته بفزع وسألت: مَن هناك؟! أيوجد أحد؟!

ابتلع ريقه ولم يجب، ثم وقف بهدوء وعاد إلى الوراء خطوات قليلة، أدركت بأنَّ ثمة إنسان يقف أمامها، ولكنها تجاهلت ذلك وعادت تنظر إلى الأمام وتقدمت بضع خطوات، وما إنْ اقتربت مِن البحيرة كثيراً حتى تقدم (رائد) خطوة نحوها وقد همَّ أن ينطق: توقفي.

لكنها توقفت فجأة بالفعل والتفتت ناحيته وهي تقول: لا تقلق، لن أتقدم أكثر، لقد عددت خطواتي جيداً البارحة، شكراً؛ لأنك ساعدتني على ذلك!

صُعق مِن ردها للحظة، وغمره الشك في أنَّها حقاً لا تراه، هل تتظاهر بذلك؟ كيف تمكَّنت من معرفة وجود الشخص ذاته الذي أنقذها البارحة وهو لم ينبس بحرف؟

انكمش وجهه وضاقت عيناه، راقبها وهي تجلس على الحشائش وتتبع: يمكنني أنْ أشم رائحة الأزهار مِن هنا، البارحة كانت أول زيارة لي لهذا المكان، لقد أردتُ فقط أنْ التقط بعد الزهور، لكنّهم يبالغون في حمايتي.

رفعت أصابعها وطاشت بالهواء قليلاً ثم التقطت زهرة مِن جوارها وهي تقول: يمكنني أنْ أخمن مِن رائحتها أنَّها فل، أليس كذلك؟

صمتت لحظة وأتمت: كما أنَّني أشم رائحة الياسمين، ألا يوجد هنا ياسمين؟

مدت يدها أكثر وكادت أصابعها أنْ تمسك بنبتة شوكية؛ فنطق رائد: إنَّها شوكيـ...

أبعدت أصابعها، وخفضت عينيها ببطء للأسفل غير مصدقة ما سمعته للتو، لقد تأكَّدت شكوكها، كانت تشعر بأنَّه هو، لكنَّها لم تكن متيقنة والآن ..

حرَّكت رأسها ناحيته ببطءٍ، ورفعتْ إليه وجهًا منكمشًا، كان مِن الواضح أنَّ شفتيها تهمان بالنطق، لكنَّها لم تفعل، وعادت لتميل برأسها إلى الجهة الأخرى، مدت أصابعها مجدداً ونجحت بالتقاط الياسمين.

أما هو فقد التقم سبابته وعضَّ عليها وحار فيما سيفعله، بشَّ وجهها فجأةً وأشرق في عينيها فرحٌ فعادت لتنظر ناحيته وقد ندت مِن شفتيها بسمة جميلة وهي تقول: حينما ساعدتني البارحة عرفتُ بأنَّه أنت، ولكني لم أصدق فقط.

ازداد اتساع بسمتها وبرزت غمازتاها وهي تتبع: أهلاً بك (رائد).

شخصت عيناه وأزاح إصبعه عن فمه وخفض يده ببطء شديد، لم يعد الهروب ينفع الآن، فغر فمه لا يدري ما يقول، و سرعان ما أطبقه عن لا شيء، وأخيراً هوى جالساً على الحشائش مستسلماً، أخذ نفساً عميقاً، ثم رفع

رأسه هاماً بالرد لكنها سبقته بقولها: مِن الجيد أنَّني رأيتك، في الواقع لقد تمنيت ذلك كثيراً.

أشاحت برأسها إلى الجهة الأخرى وكأنها تخفي خجلها وتابعت: فأنا مدينةٌ لك باعتذار كما تعلم.

شخصت عيناه مذهولة للحظات، عبرته خلالها ذكريات سريعة لطالما حاول نسيانها، دموعها.. ضحكتها.. وحتى بسمتها الساخرة، حرَّك رأسه بارتباكٍ وأغمض عينيه علّه يلمّ شتات شعوره، ثم جاهد نفسه لينطق أخيراً: لا بأس.. سيدتـــي.

كررت بسخرية: سيدتي!

ابتسمت برقة وهي تتبع: المهم، هل أنت بخير؟ ما الذي فعلته بعد أنْ غادرت بغداد و...

صمتت قليلاً ثم أتمت: كيف هي إصابة بطنك؟

وضع يده على بطنه وتذكر تلك الطعنة الموجعة؛ فابتسم بارتباكٍ وقال: لقد مضت أربع سنوات، لقد شفيتُ تماماً.

ساد بينهما صمتٌ لم يكن غريباً لكنه كان ثقيلاً جداً، ربما لأنَّ كليهما كان يحمل في داخله رغبة بالنسيان والبدء من جديد.

رفع عينيه ونظر إليها، كانت تعبث بالوردة بين أصابعها، فندت مِن شفتيه بسمة مرتاحة استنكرها، فأشاح بعينيه إلى الجهة الأخرى وزاد استغرابه؛ إذ وجد نفسه يتحدث إليها بكل أريحية ويقول: لقد ذهبت إلى القدس بعد أنْ غادرت بغداد.

- لقد أحسنتَ صنيعاً، لقد حدثني (بتال) عما فعلتموه بالفعل، ولكني فوجئت برحيلك المفاجئ.

بدا متردداً وهو يسأل: ماذا عن السيد؟

جاوبته سريعاً: لقد مات.

ثم عاد الصمت ليثقل عليهما، لقد آلمه ذلك الخبر بشدة؛ لذا حاول أنْ يشغل نفسه بأي شيء حوله، وراح يلتقط الحشائش بفوضى مماثلة لفوضى مشاعره، لم يكن يريد أنْ ينتهي الأمر بينهما على ذلك النحو القاسي، كان بإمكانه حينئذ أنْ يعبِّر له عن أسفه وتقديره له، وامتنانه لإنقاذه وإكرامه، ولكن مع ذلك لم ينطق بأيِّ كلمة؛ بل حبسها في أعماقه، كم من الكلمات نقتلها في أعماقنا بالتأجيل وكأننا لم ندرك بعد أنَّ الموت لا يعرف التأجيل.

اهتزت شفتاه عند هذا الخاطر الأخير، وكادت دموعه أنْ تسقط لولا أنها نطقت:

صحيح، أصبح لصديقك (بتال) بنت جميلة، أتود أنْ تراها؟

رفع (رائد) حاجبيه بدهشة وهو يسأل: حقاً؟! ما اسمها؟

صمتت للحظة بدت فيها وكأنها مترددة ثم قالت: حسناً، قد يبدو هذا غريباً، لكنه أسماها (بيلسان).

خفض رأسه مبتسماً وسأل متعجباً: وما الغريب في ذلك؟!

رفعت رأسها نحوه وتاهت عيناها في اللاشيء وهي تجيب: فعل ذلك مع أنَّه لا يحدثني.

عبس وجهه ولاحت في عينيه نظرة ألم، لم يستطع أنْ يسألها عن السبب، فهو يعرفه جيداً؛ لذا اكتفى بقوله: اسمك جميل على أية حال!

ابتسمت بسخرية سرعان ما بترها الوجع وهي تعلق بكل صراحة: كان عليك أنْ تكره هذا الاسم.

عبس للحظة، ثم استدار ناحية البحيرة وأخذ يحدِّق فيها.

كانت أشعة الشمس تنعكس عليها؛ فتضيء صفحتها، طاشت عيناه بالأشجار حوله؛ وإذ بشجرة بيلسان لم يلحظها من قبل لم تكن بعيدة عنه، ظلَّ يتأملها

للحظات ثم عبرته فكرة؛ فوقف فجأة واتَّجه نحوها والتقط منها البيلسان، ثم عاد إليها، شعرت به يقف أمامها؛ فرفعت رأسها متسائلة، عاجلها بقوله: ارفعي كفك... (بيلسان).

ذُهلت للحظة، فهذه أول مرة يناديها باسمها، أتراه أراد بذلك أنْ يكسر حاجزاً بينهما؟

رفعت كفها بتردد وأراحته، فوضع فيها زهرة البيلسان، أطبقت أصابعها وراحت تتحسها وسألت: هذه؟

- (بيلسان)، أصبح بحوزتك الآن الفلُّ والياسمين والبيلسان.

جمعتها بيدها وهي تبتسم بارتباك وتقول: شكراً لك!

ثم راحت تشمها وتقول بصوت منخفض وكأنها تحدث نفسها: إنَّ رائحة البيلسان غريبة بالفعل، تشبه رائحة اللوز المر.

التفتت ناحيته وأتبعت: أتصدِّق، هذه أول مرة أمسك بها البيلسان؟

جلس قريباً منها وضم ساقيه إليه ونطق بتردد: أليست كلها متشابهة؟

سألت مستنكرة: متشابهة؟! أبداً، لكل واحدة شكل ورائحة و...

قاطعها بقولة: أعني..

تنحنح صوته وهو يتم: ألسنا نطلق على جميعها أزهارًا في كل الأحوال؟ تلك الزهرة التي سقطت مِن على الشجرة، هل يمكن لنا ألا نسميها زهرة لمجرد وقوعها؟ ما ذنبها إنْ كانت الريح قاسية؟

انكمش وجهها وظلت تطيش بعينيها في كلِّ اتجاه في حرج، لقد أدركت ما كان يرمي إليه، أدركت الرسالة التي أراد أنْ يوصلها إليها، لقد أراد أنْ يقول لها بأنْ تتوقف عن إحساسها بالذنب تجاهه، وكأنه يخبرها بلطف: لا بأس، لقد غفرتُ لك.

ومع ذلك اعتلتها بسمة ساخرة وهي ترد: لم تكن الريح قاسية، كانت الزهرة ميتة وهي على الغصن.

انكمش وجهه بألمٍ وراح يحدِّق في إيماءات وجهها المضطربة، وعينيها الممتلئتين بالدموع، ومع ذلك حركت وجهها ناحيته أكثر وندت مِن شفتيها بسمة ودودة للحظة؛ فشعر بأنَّ ثقلًا كبيرًا قد انزاح عن صدره.

أدارت رأسها إلى الجهة الأخرى وهي تخفي دموعها وتعلق: أنت لم تتغير مطلقاً.

شعرا بتحرُّك الحشائش خلفهما؛ فالتفتا معًا، كان (بارع) يقف خلفهما، وقف (رائد) سريعاً وتبعته (بيلسان) التي لم تعرف مَن الواقف، لكنها شعرت بالقلق لصمت (رائد) المريب.

ارتسمت على شفتي (بارع) بسمة ساخرة وهو يتنقل ببصره نحوهما سرعان ما استحالت لضحكة جعلت شفتي (بيلسان) تعبسان، ثم تحولت ضحكته إلى قهقهة هستيرية وهو ينظر إليهما ويشير ناحيتهما، ويتمايل بجسده إلى الوراء كمن كان في حالة سكر.

نطق خلالها بكلمات متقطعة، ولكنها كانت مفهومة: أنتما معاً؟! سأقتلكما إذن معاً.

صمت بعد أنْ نطق بالكلمة الأخيرة فجأة، واعتدل، ووجمت ملامحه وكساها الغضب.

اقترب مِن (رائد) ومال برقبته نحوه حتى صار وجهه مقابلاً لوجهه، كان من الواضح أنَّه لا يريد (بيلسان) أنْ تسمع؛ لذا نطق بصوت منخفض: أنت،ما الذي تريده الآن؟ أتريد أن تجدد ليالي الغرام؟

-(بارع)

اهتزت شفتاه وهما تنطقان باسمه رافضتين هذا البهتان، ورمقه بحدة، ومع ذلك تابع (باتر) يقول:

أتظنُّ أنَّني لا أفهمك؟

-(بارع).

قالها بصوتٍ أكثر هدوءًا مِن السابقة.

ماذا؟ أشعرت بالخيبة وأنت تشاهد طبيبتك مع رجلٍ آخر، وجئت لكي...

-(بارع)، توقف أنت تسيء الأدب.

قالتها (بيلسان) هذه المرة بشفتين ترتجفان، لقد كانت قادرة على سماع ما يدور بينهما، أطبق شفتيه وحدجها بنظرة غاضبة ثم اقترب منها وقال: لماذا تريدين مني أنْ أصمت؟ أنت تسمعين مني أكثر مِن ذلك كل يوم، كل يوم.

ابتسم بسخرية واهتزت شفتاه وهو يتبع: أم أنَّكِ الآن خائفة على مشاعره؟

رفع حاجبيه وأتبع: لماذا؟

ثم انتفض جسده وصرخ بأعلى صوته: أسألك لماذا؟!

اصطكت أسنانه ببعضها ثم نطق: هل لأنكِ مازلتِ تحبيـ...

أخرسته الصفعة التي باغتته، رفع عينيه؛ وإذ بكفٍّ (رائد) ما تزال معلقة في الهواء، ثم اندفع نحوه وجره مِن تلابيب ثوبه ونطق: لقد ضقتُ بكَ ذرعاً، لديك شيء، خذه مني أنا، توقف عن إهانة والدتك، أنا لن أقول ذلك مجدداً، أفهمت؟

أمسك بكفه؛ ليبعده وهو يحدق في عينيه باستغراب؛ إذ كانتا ممتلئتين بالدموع، ومع ذلك دفعه واعتدل ووضع يده على مقبض سيفه متأهباً وهو يزفر أنفاسه الغاضبة ويقول: وهذا بالضبط ما سأفعله.

أخرج سيفه مِن غمده، وأمسك (رائد) بمقبض سيفه هو الآخر، إلا أنَّه تردد قليلاً فهو لم يفعل ذلك منذ مدة طويلة، وتدريباته مع (ليو) هذا الصباح لم

تكن كافية، ومع ذلك أخرجه مِن غمده، ووقف متأهباً؛ أما (بيلسان) فطاشت يديها بلا هدي؛فصرخت: توقفا!

لكنَّ صوت التحام السيفين سرعان ما وصلها.

عادت لتصرخ مجدداً: قلتُ: توقفا!

لكنهما لم يسمعان، كان (بارع) يضرب بكل قوته، وكان (رائد) يكتفي بصده دون أنْ يبدأ بأيِّ هجوم، فتوقف (بارع) وابتعد إلى الخلف قليلاً وهو يصرخ بمرارة: لماذا؟! أعلم أنَّك مبارز جيد، أم أنَّك تظن أنَّني أضعف مِن أنْ أهزمك؟!

ثم اندفع نحوه يضربه بتتابعٍ وذاك مازال يصده فقط؛ أما (بيلسان) فلم تدري ما تفعله، كانت تصرخ علهما يتوقفان، ولكنهما لم يستمعا إليها، ووسط تلك الغلبة تحركت بطيش دون هدي، حاولت الاقتراب منهما بخطوات مرتجفة علهما ينتبهان لها؛ فيتوقفان، اقتربت حتى أصبحت دون أنْ تدرك على مرمى سيفِ (بارع)، أدرك ذلك (رائد)؛ فتحرك سريعاً وصدَّ الضربة التي كادت أنْ تجرحها، ورغم رؤية (بارع) لها إلا أنَّه لم يتوقف، ولم يبتعد خطوة، ولم يترك لـ(رائد) مجالاً؛ ليبتعد أو ليبعدها، لقد أعمت رغبته في الانتقام مِن رؤيته، فلم يكن يفرق بين (رائد) ووالدته، اندفع بكل قوته نحوهما؛ فدفعها (رائد) بيده بكلِّ قوته؛ ليبعدها عن مجال الضربة؛ فارتدت إلى الخلف ولم تتمالك جسدها وسقطت وارتطم رأسها بحجرة؛ فنزفت دماؤها، ومع ذلك لم تشعر بوجع الضربة وحاولت أنْ تجلس وتستند إلى ذراعيها؛ لتفاجئ برؤيتها قد صفت فجأة وهي تشاهد (بارع) يضرب (رائدًا) بسيفه قبل أنْ يتمكن مِن أنْ يعتدل. أخذ السيف مجراه فوق جسده وأحدث له جرحاً عميقاً؛ فتناثرت دماؤه وطاشت، ليتلقاها وجه (بيلسان) كضربة ثانية عنيفة، تهاوى (رائد) إلى الخلف ليسقط على ركبتيه أمامها، رفع رأسه بإجهادٍ وألقى بنظرة خاطفة على (بارع)، كانت عيناه ممتلئتان بالدموع، وثمة انحناءة ساخرة بزغت على طرف شفتيه قبل أنْ يفقد وعيه ويتهاوى على ظهره ساقطًا بجوار (بيلسان)؛ أما هي فقد ظلت فاغرة فمها تطرف عينيها ذاهلة غير مصدقة بأنَّها تشاهد هذه الدماء حقاً وهي تنبثق من صدره بكل تلك الغزارة، ومع ذلك أخذت رؤيتها تزداد ضبابية، وأنفاسها

تتسارع، ثم لم تعد تملك نفسها وشعرت برأسها يهوي على صدره لتغرق في دمائه، ثم لم تعد تشعر بشيء؛ أما بارع فقد ظل واقفاً كصنمٍ وهو يشاهد سيلان الدم مِن رأسها، والبركة التي أحدثها جرح (رائد) تحتهما، صوتٌ مِن الماضي عبر ظلمات قلبه فجأة، هذا الجسد الممدَّد انتفض واقفاً مِن مكانه وضمه إلى صدره؛ ليخفي عنه تلك العينين الممتلئتين بالدموع، وهو يربت على ظهره ويقول:" حينما تكبر ربما في يوم ما سأعبر ذاكرتك، ربما حينها ستلعنني أو ستشتمني، وربما ستبصق بالهواء وكأنك تبصق على وجهي، ومع هذا أريدك أنْ تتأكد مِن أنَّني....أحببتك بصدق!".

عند الكلمة الأخيرة اهتزت أصابعه الممسكة بالسيف، وسالت قطرات الدماء العالقة به؛ لتحدث بقعة صغيرة أسفله، خفض عينيه نحوها ليسمع صوته الصغير وهو يعترض متسائلاً: ولماذا أفعل ذلك؟ أنا أحبك معلمي!

-لقد حاولت أن أحميك...

رفع عينيه لتقعا على جسده الممدد وعلى والدته وهو يتذكر التتمة:" حاولت أنْ أحميها".

شخصت عيناه وعبرته تلك البسمة الساخرة التي بزغت مِن فم (رائد) قبل أنْ يهوي وصوته وهو يتابع:" ولكنني في النهاية سلبتك الشيء الكثير".

تناهي في الأرجاء صوت صرخة جعلته ينتفض، كانت (عروب) واقفة بوجه يكسوه الفزع وهي تنظر لهذين الجسدين الممددين أمامها؛ فاندفعت إليهما وشرعت تحركهما دون فائدة.

أما بارع فقد شعر بماءٍ حار عبر خده الأيمن كتم معه كل الأصوات حوله ولم يعد يشعر إلا بصوت صبيٍّ في الثانية عشرة مِن عمره يصرخ بصوت مرتفع: "معلمي ...معلمي ...معلمـــــــــــــي".

كان ذلك الصبي يبكي.

الفصل الخامس: النَّاي

لقد كانوا ذوي حظٍّ جيد أولئك الذين حفظت اللوحاتُ قصصهم ومنحتهم مشاعر معلقة للأبد.

كانت عيناه تراقبانها بعمقٍ وهي تتنقل أمامه مِن صندوق لآخر تعاين ما فيه وتضع الناقص وتلف الشاش، بدت كفراشةٍ ملونة وسط حقل مِن أزهار بيضاء، هذه الفراشة جلست فجأة وتابعت لفَّ الشاش، ثم سرحت عيناها في ضوء الشمعة، ناء بها سؤالان منذ تلك اللحظة:" لماذا لم أستطع أنْ أذهب نحوه؟ "، " ولماذا لم يخبرني بعودته؟".

انتشلها مِن أغوار فكرها صوتُ الناي الذي علا في الغرفة فجأة، استدارت خلفها، كان (طاهر) يمرِّر أصابعه على فتحات الناي وينفخ فيه لحناً جميلاً أجبرها على الابتسام، عدَّلت كرسيها واتكأت على ذراعها وظلت تستمع إليه، فتح عينيه، وحينما شاهد ابتسامتها توقف.

قطبَّت حاجبيها متسائلة؛ فأشار إليها بأنْ تقترب، اقتربت منه وجلست إلى جواره؛ فناولها الناي وهو يقول: جربي أنْ تعزفي.

أظهرت إيماءاتٍ مضحكة ممزوجة بالدهشة والاستغراب وهي تبعده وتعلق: لا شك أنَّك تمزح! هل تريد أنْ يثور المرضى علينا؟!

أطلق ضحكةً خفيفة ثم علق: لماذا؟ سأعلمك، لديك أنامل ناعمة ستتعلمين بسرعة. ابتسمت بخجل ورفعت أصابعها تنظر إليها وتقول: هذه الأنامل صدقني لا تنفع إلا لخياطة الجروح والغوص في الدماء.

وضعه في كفها ورفعه إلى فمها وهو يقول: انفخي فقط.

بدت مترددة وهي تقول: ألن أزعج أحداً؟!

وضع أصابعه على الناي وهو يقول مؤكدا: انفخي فقط.

ابتسمت موافقة، وما إنْ همَّت بالنفخ حتى فُتح الباب فجأة وظهر مِن خلفه (حارث) بوجه شاحب والدماء تلطخ صدره، وما إنْ وقعت عينيه عليها حتى نطق: (سحاب)، إنَّ...

زاغت عيناه فجأة وشعر بتيهٍ يلفه، من أين يبدأ؟ هل عليه أنْ يخبرها بعودته أولاً؟

وقفتْ على ساقين ترتجفان وسقط الناي مِن يدها؛ فأحدث سقوطه دوياً على الأرض وانكسر جزء منه، اندفعت نحو (حارث) وعاينت الدماء التي على صدره، ثم رفعت إليه عينين مصدومتين وهي تقول: أهي لـ(راد)؟!

لم تنتظر إجابته، وغادرت سريعاً دون أنْ تدرك بأنَّ خيوط حلمها الأخير بدأت تنحل في الضوء.

فوجئ (حارث) بمعرفتها، ثم حرك عينيه ناحية (طاهر)؛ وإذ به ينظر إلى الناي المحطم على الأرض بعينين ذاهلتين للحظة قبل أنْ يجمع شتات فكره وينطق: أين المصاب؟

أشار إليه (حارث) وهو يقول: اتبعني إذن.

كان (رائد) ممدَّداً على السرير، وقد شرعت الممرضات بتنظيف الجرح، كان حاجباه يتقلصان ويتمددان جراء إحساسه بالوجع، كانت (مارغريت) تقف جامدة خلف (طاهر)، عاينه بنظرة سريعة، ولاحظ عمق الجرح عند الرئة، وأبدى إيماءاتٍ غير مرتاحة وهو يوجه حديثه لـ(مارغريت): من الواضح أنَّنا سنفتح الجرح من هنا؛ لنتأكد من سلامة الرئة... (سحاب) استعدي للتخديـــر..

تجاوزته واندفعت نحو الممدَّد ومالت برأسها نحوه، هزت كتفيه بعنفٍ وهي تسأل: هل تتألم كثيراً؟! أجبني.

فتح عينيه بإجهادٍ وأبصر وجهها المكلَّل بالألم قريباً منه؛ لذا ظنَّ بأنَّه يهذي؛ فأغلق عينيه؛ أما هي ففرَّت دمعةٌ سريعة منها وسقطت على وجهه وهي تقول: أتشعر بوجع؟ هل يؤلمك كثيراً؟

فتح نصف عينيه، لم يكن يراها بوضوح؛ بل بدت له وكأنها تهتزُّ أو أنَّ الأرض تهتزُّ مِن تحته، رفع كفه الملطخة بالدماء ولامس بأطراف أصابعه خدَّها وهو يتمتم بصوت منخفض: لماذا وجهك متألمًا هكذا؟

ثم هوت كفه بسرعة كما هوت دموعها هي الأخرى، وشعرت بتوقُّف كل شيء حولها لوهلة، واستحالت كل الألوان في عينيها إلى لون رمادي.

دوت مِن فمها صرخة لم تسمعها هي بينما أرهبت كلَّ مَن في الغرفة وجمَّدتهم في أماكنهم، انحنت عليه وأخذت تهزُّ كتفيه بعنف، وأخيراً تحرك (طاهر)؛ ليوقفها، أمسك برسغه يعاينه، ثم أمسك (مارغريت) مِن ذراعيها؛ ليبعدها وهو يقول: إنَّه حيٌّ، لقد فقد الوعي فقط، لقد نزف كثيراً مِن الدماء ويتوجب نقل دمٍ له أيضاً.

هدأت قليلاً، وأخذت نفساً عميقاً ثم قالت: إذن، سأفعل ذلك أنا.

أومأ (طاهر) موافقاً وهو يتم: إذن جهزي ذلك بسرعة.

خرج الجميع مِن الغرفة وتم تهيئة (رائد)؛ لنقله إلى غرفة الجراحة.

شرع الطبيب بعمله بمساعدة الممرضات، وما إنْ انتهى حتى وجد باستقباله (حارثًا)، و(باترًا)، و(عروب) وقد التفوا حوله، فقال مطمئناً: الحمد لله، لم تتأثر أعضاؤه الحيوية، أظنُّ أنَّه بحاجة إلى الوقت فقط؛ ليتعافى -بإذن الله-، وربما سنضطر لنقل الدم له، ثم تابع طريقه بحثاً عن (مارغريت)، توقع أنْ تكون في غرفة التحضير، وما إنْ ولج ورأته حتى مسحت دموعها عن خدها، وحاولت جاهدة أنْ تبتسم في وجهه لكنها سرعان ما عبست وأشاحت وجهها بتوتُّرٍ واضح.

سألها: هل أنهيت الإجراءات؟

-نعم، إنَّ دمه متوافقٌ مع دمي.

-جيد.

قالها وهو يقترب منها حتى أصبح ماثلاً أمامها، نظر إلى عينيها الهاربتين وثمة سؤال يحترق داخل صدره، لم تكن تلك النظرة التي نظرت إليه بها عادية، لم تكن تلك الصرخة المتألمة التي انبرت مِن فمها عادية،

لم يكن موقفها كله عادياً! حتى أنَّها حطمت نايه الذي يفضله دون أنْ تنتبه، مَن يكون ذاك الذي لطَّخ بدمه خدها ووصف وجهها بالمتألم؟ لماذا تألَّمت إلى هذا الحدِّ فعلاً؟

رفعت عينيها نحوه ببطءٍ وما إنْ التقت بعينيه حتى أشاح بهما، وتنحنح صوته؛ إذ شعر بأنَّه ابتلع جمرةً في جوفه.

بلَّل منديلاً بالماء وقرب الكرسيَّ وجلس أمامها، مدَّ كفه؛ ليمسح الدم عن وجهها، لكنه فوجئ بها تمنعه وتشيح وجهها، التقطت المنديل مِن يده ونطقت: سأمسحه أنا.

نظر لكفيها الملطختين بالدماء وعلق متعجباً: أنتِ حتى لم تمسحي الدماء عن يديك!

عبس وجهه قليلاً ثم استدار مغادراً، وقبل أنْ يغلق الباب التفت نحوها وقال بتردُّد: سأقوم بكل أعمالك اليوم، بإمكانك أنْ تبقي إلى جواره؛ لتراقبي حالته.

رفعت عينيها تنظر نحوه بوجعٍ صارخ ارتجف له قلبه، ومع هذا اصطنع بسمة وهو يتبع: انتبهي للنبضِ جيداً.

خذلتها دموعها وسالت سريعاً نحو شفتيها رغم أنَّها كانت تحاول أنْ تبتسم.

أدار ظهره مغادراً وكأنه لم يرَ، ولكنه لم يستطع أنْ يخطو خطوةً واحدة؛ فعاد إليها حتى وقف بجوارها، مال برأسه نحوها ونطق: إنْ كنتِ ستستمرين بالبكاء فسأغيِّر رأيي، أنتِ تعرفين بأنَّ نفسية الطبيب تؤثِّر على المريض، أليس كذلك؟

مسحت دموعها بتوتُّرٍ مُلطِّخةً خدها الآخر بالدماء، ثم ندت مِن بين شفتيها بسمة فاترة ونطقت: سأفعل.

انكمش وجهه وهو يلقي نظرةً سريعة على وجهها الذي تلطخ بالدماء أكثر مِن قبل، ثم ابتسم وقال: لقد زدتِ الأمر سوءاً.

التقط المنديل ووضع سبابته على فمه مشيراً لها بالصمت، ثم شرع ينظفه لها؛ فابتسمت بخجل، وما إنْ انتهى حتى قال: انتبهي لنفسك، ثم غادر المكان، وتمنَّت أنْ يغادر قلبها أيضًا ويريحها مِن هذا الشعور الثقيل الذي تشعر به، هذا الشعور المربك الذي له طعم الذنب والندم معًا.

قضت (مارغريت) ليلتها تلك في المستشفى ولم تعد إلى البيت، بعد أنْ خضعت لعملية نقل الدم، ظلت بجواره طوال الليل رغم تعبها وإرهاقها، تراقب نبضه وتنفسه بين حينٍ وآخر، وكذا ظلَّ (باتر) و(حارث) لوقت طويل قبل أنْ يعودا، وفي ساعات الفجر الأولى انتفضت كفُّ (رائد) اليمنى، انحنت (مارغريت) سريعاً نحوه وأمسكت بكفه وسألت: هل تسمعني؟ هل أنت بخير؟

ربتت على خده ولكن دون جدوى، تنهَّدت بعمق، ثم شرعت بتغير الضمادات التي كانت ممتلئة بالدماء.

اطمأنَّت على حرارة جسده، ثم عادت لتجلس بجواره، حرَّك رأسه ببطء؛ فوقفت وانحنت عليه ونطقت: (رائد)؟

فتح عينيه ببطء، كانت رؤيته مشوشة، رأى صورتها ضبابية وهي تضرب على خده محاولة إيقاظه مناديةً باسمه، فمال رأسه فاقداً الوعي مرة أخرى.

ضربت عليه بقوة أكبر وحركت رأسه يميناً وشمالاً وهي تنطق بوجع ورجاء: أرجوك أجبني! (رائد)... (راد) أتسمعني؟ أرجوك أجب!

هز رأسه ببطء مجيباً؛ فتوقفت، فتح عينيه وحرك شفتيه محاولاً أنْ يبتسم ونطق: أسمعك.

بشَّ وجهُها وبزغ في عينيها فرحٌ، شهقت بارتياح ونطقت: الحمد لله.

ألقى نظرة خاطفة على الغرفة حوله، ثم عرج بعينيه نحوها وثبتهما، لوهلة ظنَّ بأنه يحلم، وبأنَّ رؤيته لها سابقاً عن قُرب كانت حلماً هي الأخرى، ولكن الوجع الذي أحسَّ به جعله يتذكر بأنَّه قد أصيب ونقل إلى هنا، إنَّ الواقفة أمامه ليست طيفاً أو محض خيال، ليست صورةً مِن أحاديثه الليلية التي دأب على استدعائها قبل أنْ ينام، فبقايا أثر الدموع على وجنتيها وعينيها المحمرتين تثبت بأنَّها هي، سحابته التي يتوق إليها بشدة، أقلقتها نظراته السارحة تلك؛ فانحنت نحوه تعاينه، وحينئذٍ شعر وكأنَّ كلَّ حواسه استيقظت فجأة؛ فانتفض بارتباكٍ وحرك رأسه إلى الجهة الأخرى.

ابتسمت وعلقت: أنت بخير الآن.

أراحت كفها على جبينه تعاين حرارته، لكنّها فوجئت ببرودته،

فوضعتها تحت رقبته وعلقت بارتباك: حرارتك طبيعية، ولكن، أتشعر بالبرد؟

لم يجبها بشيء واكتفى بالنظر إلى الجهة الأخرى فقط، اعتدلت واتجهت نحو أحد الدواليب وأخرجت غطاءً آخر وغطته به وهي تقول: هذا سيدفئك أكثر.

ولكنها توقفت فجأة كمن يفكر بشيء وهي واضعة يدها فوق صدره قبل أنْ ترفعها وتعتدل وتقول: لقد كان الجميع قلقاً عليك، سأرسل مَن يطمئنهم باستيقاظك.

طاشت عيناه في الغرفة، أراد أنْ يسألها عن (بيلسان) لكنه لم يستطع، وحينما لم يرد عليها بشيء استدارت مغادرة، ولكنها فوجئت بشيء يشدّها إلى الخلف فجأة ويوقفها، التفتت إليه وإذ به ممسكاً بكمِّ ثوبها.

رفعت إليه عينين متسائلتين؛ فارتبك وأرسله وهو يقول: آسف!

شردت عيناها للحظات مفكرة، لقد كرهت بشدة هذا الجو المتوتر بينهما، وكأنَّهما غريبان التقيا للتو، لقد تمنَّت للحظة لو تضربه أو تشتمه أو حتى تسقطه؛ ليتعثر، ثم تمرُّ هاربةً كما كانت تفعل دوماً، ولكن هل ينفع هذا الآن خاصة مع...

كانت نظرة حزينة غشيته فأتمت:" مع نظرته الحزينة تلك"

التقطت نفساً عميقاً ثم قالت: حسناً، يبدو أنَّك تود قول شيء ما.

قرَّبت الكرسيَّ وجلست بجواره، ولكن مع ذلك ساد صمت الكهوف بينهما للحظات طويلة، كانا يتبادلان فيها صوت أنفاسهما فقط، وكلاهما يدركان بأنَّ الوضع لم يعد كالسابق وأنَّ ثمة أحاديث كثيرة مِن الخير لها أنْ تبقى حبيسة أعماقهما، ولكن إلى متى سيكونان قادرين حقاً على إخفائها؟

سئمت (مارغريت) هذا الصمت من قِبله، فأرادت أنْ تكسره، ابتلعت ريقها لأكثر مِن مرة وفغرت فمها كثيراً وأطبقته حتى تمكنت أخيراً مِن سؤاله: كيف تشعر الآن؟ كيف هو جرحك؟

أجابها دون أنْ ينظر إليها: يؤلمني قليلاً، ولكن لا بأس أنا بخير.

أشرق وجهها بإيماءاتٍ مرتاحة لم يشاهدها؛ إذ ظلَّ خافضاً طرفه، وبعد لحظات صمتٍ حرَّك عينيه نحوها دون أنْ يلتفت وسأل: كيف هي أحوالك سحـ،

بتر كلمته الأخيرة وعاد ليتبع بارتباك: (مارغريت)؟

شعرت بوترٍ اخترق قلبها؛ فجعل ملامحها تجمد للحظة، ثم لان عن ملامح خيبة وهي تعلق بألم: أتصدق؟! لم يعد أحد يناديني بـ(مارغريت)، لقد نسيت هذا الاسم تقريباً.

عبست شفتاه وأشاح بوجهه في حرج، ابتلعت ريقها والتقطت شهيقاً حبسته للحظات قبل أنْ تزفره بوجع، شعرت بالدموع تتراقص على أطراف جفنيها منتظرة إذنًا بالعبور، لقد تأكَّدت الآن بأنَّه لم يخبرها بعودته؛ لأنه كان يتجنبها دون شك.

ندت مِن شفتيها ابتسامة ساخرة تبعها عبوس تلته بسمة خيبة، بالكاد زمَّت شفتيها بوجع للحظات تستجمع فيها شيئاً مِن القوة قبل أنْ تلتفت إليه وتقول: الحقيقة أنَّني...

خَفُتَ صوتها وهي تتم: لستُ بخير.

شعر بكلماتها تقع على قلبه كحجرة ملتهبة تسقط في بحيرة راكدة؛ فتثير بخارًا كثيفاً أخنقه مع كلمات (حارث) له في شجارهما الأخير:" إنَّها تعمل ليل نهار، إنَّها تخرج مِن المستشفى الملكي وتذهب لمستشفى الصفاء؛ لتعالج المرضى، أتظنُّ بأنَّها تعود بعدها إلى المنزل؟ كلا، إنَّها تذهب بنفسها للمرضى الذين لا يستطيعون الذهاب، أتظنُّ أنَّها بخير بعد كل هذا؟ أتساءل حقاً إنْ كانت بخير فعلاً ".

في أعماقه دوت صرخة مشابهة تقول:" أنا أيضاً لستُ بخير مِن دونك"، ولكن عاصفة مِن الوجع اجتثت كلَّ الحروف التي تعلَّمها وكلَّ الكلمات التي أتقنها وتركت ذهنه خالياً مِن كل قاموس للغات؛ فصمت دون أنْ ينبس بكلمة واحدة.

التفتَ نحوها ببطء والتقت عيناهما في صمتٍ طويل للحظات لم يقطعه سوى وقوف (مارغريت) فجأة وهي تقول بارتباك: إنْ احتجت لشيء اطلبني، بعد ساعة سأحضر لك دواءً، ثم غادرت الغرفة سريعاً، بينما أرخى هو برأسه وأخذ يتحسَّس جرحه وهو يشعر بأنَّ قلبه هو أكثر ما يوجعه.

*****

في الصباح، اتجه (باتر) إلى المستشفى قاصداً الغرفة التي تنام فيها (بيلسان)، فبعد تلك الحادثة فقدت وعيها ولم تستيقظ، وما إنْ وقف عند الباب وهمَّ بفتحه، حتى فُتح وخرج مِن خلفه (بارع)، وما إنْ أبصر (باترًا) حتى هرب بعينه بعيداً، ثم أحنى رأسه باحترام وهو يهمُّ بالمغادرة، أوقفه باتر بسؤاله: ما الذي تفعله هنا؟

عبس وأجابه دون أنْ يستدير: كنتُ أطمئن على صحتها فقط.

ابتسم (باتر) بسخريةٍ لاذعة وهو يقول: صحتها! لو لم يدفعها (رائد) البارحة لما كان الأمر مجرَّد ضربة على الرأس، لم تكن لتتردَّد في إصابتها على أية حال.

انكمشت ملامحه، لم يستطع أنْ ينكر أو يدافع عن نفسه، كيف له أنْ يدافع عن نفسه وهو لا يدري إلى حدٍّ هذه اللحظة كيف رفع السيف فوقها، تقدم خطوتين؛ ليغادر دون أنْ يجيب، لكن (باترًا) سبقه وشدَّه مِن تلابيب ثوبه وقال متوعِّداً: أتظنُّ بأنَّني تركتك حراً طليقاً؟! أنا لن أغفر لك فعلتك، فقط لأنَّ زفاف الأمير غداً لا أريد شوشرة، وإلا لكنتَ في السجن الآن.

رمقه (بارع) بنظرة باردة لا تحملُ معها أي تعبير لا عن ندم أو حتى أدنى اهتمام، ثم أشاح بعينيه إلى الجهة الأخرى؛ فاستفزه ذلك؛ لذا أتبع يهدده: ليكن في علمك، إنْ آذيتها مرة أخرى ولو بكلمة فإنِّي سأقتلك!

عاد لينظر إليه بالنظرة ذاتها وأمسك بكفه وأبعده.

ابتعد خطوةً، ثم خفض رأسه باحترام، وغادر المكان دون أنْ يردَّ عليه.

ظل (باتر) يراقبه وهو يبتعد بغيظٍ ممزوج بالاستنكار؛ إذ لم يكن (بارع) ليتصرف عادة مع تهديده له بهذه الطريقة الباردة.

عاد إلى الغرفة وولج سريعاً، اقترب مِن السرير وأخذ يمسح ملامحها النائمة بعينيه، كانت معصوبة الرأس، غائبة عن الوعي، تتنفس بهدوء.

مال برأسه نحوها ونطق: أماه، هل تسمعينني؟ أماه؟

مرر أصابعه على وجنتها وأبعد خصلات شعرها خلف أذنيها وهمس بوجع: إلى متى تنوين البقاء هكذا؟

سرح بملامحها الملائكية وعادت به الذاكرة إلى الوراء، إلى تلك اللحظة التي شاهدها فيها أول مرة حينما كانت في الخامسة عشرة، وقدمت المنزل بصفتها زوجة أبيه وأمه الثانية، لم يكن ليعترف بذلك يوماً ولا حتى هي، كانا يلعبان كطفلين، رشقته بالتراب كثيراً، وأغرقته بالماء أيضاً، ركبا الخيل معًا، علمها استخدام الأقواس والسهام، تدحرجا معًا على جريدة نخل مِن على سفح جبلٍ رملي.

كانت تلك الصور تعبرُ خياله سريعاً وتستدعي دموعه، ودون أنْ يدرك، فوجئ بدمعته تسقط على وجنتها وسالت نحو رقبتها، مسحها لكنه فوجئ بأمطار أخرى تتساقط مندفعة مِن عينيه، أمسك بكفها ووضعها على جبينه ونطق: إلى متى تنوين البقاء دون أنْ تبصري شيئاً؟ أرجوك عودي كما كنتِ أماه!

أعاد يدها وغطاها جيداً، ثم وقف ينظر إليها قليلاً، ثم غادر الغرفة بينما كانت عيناها تطرفان فجأة بشدة.

*****

كان (رائد) يجلس متكئاً على السرير حينما ولج عليه (حارث) وعلى شفتيه بسمة منشرحة وهو يقول: أرى بأنك بخير الآن!

أومأ (رائد) برأسه وسمع صوتاً آخر يخرج مِن عند الباب ويقول بسخرية: بخير!

استدار (حارث) إلى الخلف وأصبح الشخص الواقف عند الباب على مرأى بصر (رائد)، كان ذلك الواقف (إياد)، أتبع وهو يوجه كلامه إلى (حارث): لقد أقعدَتْه ضربةٌ بسيطة كهذه على الفراش، لقد خابت كلُّ توقعاتي بشأنه.

اندهش (حارث) وقال: إياد! كيف حضرت إلى هنا؟

ثم أخذ ينتقل ببصره نحوه ونحو (رائد) مندهشاً وهو يسأل: منذ متى تعرفه أصلاً؟!

رفع (إياد) أحد حاجبيه واعتلته ملامح مكرٍ وهو يجيب: أووه أعرفه! يمكنك أنْ تقول بأنَّ بيننا مشاريع أيضاً...، ثم ...

اقترب مِن (حارث) وهو يضرب على صدره ويقول متباهياً: معلمي، لا تنسَ بأنَّني عرَّاف المدينة!

لوى (رائد) فمه بسخرية، بينما اقترب (إياد) منه وهو يرمقه بشماتةٍ ويقول: أووه يا لَلمسكين! بعد أنْ شاهدتُ المبارزة البارحة، أظن أنَّك بحقٍّ بحاجةٍ إلى حارس شخصي إذا كنتَ ستنتهي جرَّاء ضربة بسيطة كهذه.

وضع (رائد) كفه على خده ورمقه بازدراءٍ وهو يجيبه: ولماذا وقفت إذن دون أنْ تتحرك؟

هزَّ كتفيه ونطق: لم تعطني أيَّ مرسومٍ بذلك.

فوجئ بضربة على كتفه مِن الخلف؛ فأطلق صرخةَ توجُّع والتفت؛ وإذ بحارث يضربه مرة أخرى على رأسه.

ابتعد إلى الوراء قليلاً وبتذمُّرٍ صرخ: لمـــــــاذا؟!

اقترب منه وهو يقول: ألن تتوقف عن السخرية والشماتة بغيرك، ثم ما الذي تفعله هنا؟ أليس مِن الأفضل أنْ تكون في عملك الآن.

نفخ فمه متذمِّراً، ثم راح يقول باندفاع: أيُّ عمل؟! إلى متى ستظلُّ تتجاهلني معلمي؟! إنَّني في الخامسة عشرة الآن، لماذا لا تُلحقني بالحرس الخاص؟ متى ستعترف بقدراتي؟ أنتَ بنفسك قلت: إنَّني أملك قوةً هائلة، وإنَّني أفضل تلامذتك على الإطلاق، فلماذا تفضِّل هذا الضعيف علي؟

سدد له ضربةً على كتفه؛ ليسكته ثم قال: لحين أنْ تتوقف عن التباهي والسخرية من غيرك.

كتَّف ذراعيه وعبس وسدَّد لـ(رائد) نظرات ازدراء، بينما كان ينظر إليه هو بنظرات شامتة انتهت بمدِّ لسانه نحوه؛ لإغاظته أكثر.

انتفض بغيظٍ وهو يشير نحوه ويقول: معلمي، إنَّه يمدُّ لسانه نحوي، إنَّه يسخر مني هو الآخر!

التفت (حارث) نحوه وإذ به يبدي إيماءات بريئة توحي بأنَّه قد افتري عليه؛ لذا عاد لينظر نحو (إياد) ويقول: لقد سئمتُ منك حقاً! هيا اخرج من هنا، واسمع.. انتظرني عند بوابة النصر أريدك بشيء.

بشَّ وجهه وهو يقول: حقاً؟! حسناً سأفعل، ثم لوَّح لـ(رائد) بيده مودعاً، وسقطت من جيبه قشور لبٍّ لم ينتبه لها، وخرج راكضاً؛ فلحقته صرخة (حارث):" ألن تتوقف عن أكل اللب! توقف عن الركض في الممرات يا أحمق".

انفجر (رائد) بالضحك، ثم انكمش وجهه سريعاً إثر إحساسه بالوجع، اقترب منه (حارث) وهو يبتسم ويقول: منذ متى وأنت تعرفه؟

اعتدل وهو يجيبه: لقد قابلته في أولِّ يوم وصلت فيه.

ابتسم بإعجابٍ وهو يتم: لقد أدهشني منذ البداية، إنَّه سريع الحركة وقوي، لكنه مندفع.

ردَّ حارث: إنَّ حماسته تذكرني بك، إنَّني أحب روحه المرحة رغم الأهوال التي عاشها.

كرَّر متسائلاً: أهوال؟

أومأ موافقاً وأتبع: لا تعبأ بذلك، على العموم سأغادر الآن، سآتي في المساء مع (كادي).

وما إنْ وصل عند الباب حتى أوقفه (رائد) بقوله: (ليو).

التفت إليه فأتم: بعد الزفاف سأغادر.

لم يجبه (حارث) بشيء عدا إيماءة بسيطة ظهرت على طرف شفتيه، ثم غادر الغرفة.

*****

كان يتحرك في الغرفة يمنة ويسرة دون هدي، وكان الآخر يجلس متَّكئاً على الطاولة يراقبه بضجرٍ واضح.

طرق على الطاولة بسبابته؛ فانتبه (حاتم) وتوقف ونظر إليه؛ وإذ بـ(آصف) يسأل: لقد وصلت الأميرة وغداً سيقام الزفاف، متى تنوي التحرك؟ أخبرني.

اقترب منه وقد انفرجت شفتاه عن بسمة خبيثة وهو يقول: لماذا أنت مستعجل هكذا؟ إنَّ الأمور لا تجري على هذا النحو، إنَّ الخطط الكبيرة تستغرقُ وقتاً لتنفيذها.

حينئذ كان الباب يُطرق وأُذِن لمن خلفه بالدخول، كان أحد الجنود، وقف أمام (حاتم) ومدَّ له شيئاً ملفوفًا بقطعة قماش، وقال: سيدي، هذا ما طلبته.

ربَّت (حاتم) على كتفه وهو يقول: أحسنت! ثم سمح له بالانصراف.

استدار ناحية (آصف) الذي كان ينظر إليه مستفهماً؛ فأجابه: إنهَّا سهامٌ مِن سهام العلالي.

ابتسم بسخرية وسأل: هل سرقتها؟! أتعتقد بأن الأمير سيصدق شيئاً كهذا؟!

ضحك (حاتم) ساخراً ثم أجاب: بالطبع لا. كل مانريده هو الإلهاء فقط.

*****

طرق بابه بخفةٍ وفتح، كانت (مارغريت) تقف خلفه وبيدها تحمل إناءً وأقراص الدواء، لم تدخل عليه طوال اليوم؛ لذا فوجئ بها؛ إذ اعتقد أنَّها لن تفعل ذلك مطلقاً.

انتفض محاولاً أنْ يعتدل على السرير بارتباك، ولكنّه سرعان ما انكمش على نفسه وهو يشعر بسكاكين تخترق صدره وكتفه، فهوى بضعفٍ عليه.

أسرعت نحوه ووضعت الدواء على الطاولة وساعدته على الاعتدال وهي تلومه قائلة: ما الذي تفعله؟! لا تنسَ بأنك مصاب! كن حذراً رجاء!

-ظننتكِ...

التفتت إليه وما إن التقت عيناهما حتى شعر بالارتباك وخفتَ صوته وهو يتم: لن تأتي.

وجم وجهُها للحظة ولكنّها سرعان ما أخذت الدواء وناولته إياه وهي تجيب: ولماذا؟ يجب عليَّ أن أقوم بواجبي، خذ اشرب الدواء.

نظر إليه دون أنْ يبدي أيَّ حراكٍ، فقرَّبته أكثر نحوه مستنكرة، تناوله باضطرابٍ ثم ابتلعه كلّه جرعة واحدة وظهرت علامات الاشمئزاز على وجهه جراء طعمه المر، ثم ابتلع القرص سريعاً.

ابتسمت وهي تعلق: مر جداً!

مسح شفتيه وسأل بجدية: كم علي أنْ أبقى هنا؟

-أسبوعان على الأقل حتى تتعافى.

امتقع وجهه وهو يرد بتذمر: أسبوعان؟! سأموت!

ابتسمت بلطفٍ وفوجئ بها تريح كفها على جبينه تعاين حرارته، شعر بالدم يتفجر بكلِّ أوردته فجأةً، وبقلبه ينبض باضطراب، وبتنفسه يتسارع فكرَّر بحماقة: سا...أموت!

وأتم بقلبه: إنْ بقيتِ هكذا أطول.

أزاحت كفها وهي تعلق: لا لن تموت، إنَّ حرارتك جيدة والحمد لله، عليك أنْ تتحمَّل فقط وتصبر ولا ترهق نفسك.

فوجئ بها تمدُّ كفها له؛ فسأل باستنكار: ماذا؟!

حركته تستحثه على الوقوف وهي تقول: هيا، يجب عليك أنْ تمشي قليلاً.

أطال النظر لكفها بتردُّدٍ واضح، ثم حرك رأسه أخيراً وهمَّ بالوقوف وهو يقول: سأفعل ذلك بنفسي.

ولكنه ما إنْ ثبَّت ذراعيه على السرير حتى شعر بالألم يمزِّق كتفه، ومع هذا ضغط على نفسه محاولاً النهوض، فوجئ بها تنحني نحوه ببساطة وترفعه مِن ذراعيه؛ لينهض، شعر بالفوضى تعصف بأعماقه، هو يعرف تماماً بأنَّ هذا الشعور لم يفارقه أصلاً حتى بعد رحيله، ولكن هو فقط لا يريد أنْ يشعر به الآن.

ما إنْ اعتدل حتى ابتعدت عنه خطوة وهي تقول: هيا لنذهب.

احمرَّ خداه خجلاً، أراد أنْ يقول لها: لا تقتربي منِّي مجدداً؛ لأنَّها إنْ فعلت ذلك مرة أخرى فلا يدري أيّ تصرف أحمق سيصدر عنه، ولكنه عوضاً عن ذلك نطق بصوت لا يخفي انزعاجه: أنتِ؟!

نظرت إليه باهتمام، فأتبع بعصبية واضحة: هل تساعدين الجميع هكذا على النهوض؟!

قطبت حاجبيها مستنكرة ثم أمالت رأسها وأحدَّت النظر في عينيه باستفهام، فأبعد رأسه بارتباك وأردف: انسي الأمر، لا أحتاج مساعدة، سأسير وحدي، ثم تقدم يسبقها بخطوات.

اقتربت منه وسارت بمحاذاته وهي تقول: ومَن قال إنَّني أنوي مساعدتك أصلاً؟ ارفع ظهرك أكثر، حاول ألا تنحني.

رفع رأسه ببطء وانكمش وجهه مِن الوجع، ضغط على صدره وطاشت يده الأخرى باحثة عن شيء صلب تتكئ عليه، أدركت ذلك؛ فاقتربت منه وأمسكت بذراعه وهي تقول: بإمكانك أنْ تعدني جداراً وتتكئ علي حتى نصل.

ابتسم بارتباك وأشاح بعينيه، وللحظة شعر بأنَّ حاجزًا قد كُسر بينهما الآن.

تابع طريقه، كانت تسير بجواره دون أنْ تنطق بشيء، وصلا لآخر الممر، فسأل (رائد): أهذا يكفي؟

-هل يعني ذلك بأنَّك استسلمت سريعاً؟!

وجم وجهه للحظة، ثم أغمض عينيه بانزعاج، ثم فتحهما دون أنْ يردَّ. حاول أنْ يسرع بخطواته أكثر، لكنها أوقفته مِن ذراعه وأشارت إلى الجهة الأخرى وهي تقول: هواء الحديقة عليل سينعشك قليلاً.

أومأ موافقاً، ذهبا إليها، وما إنْ توقَّفا حتى شعر (رائد) بنسمة هواءٍ باردة تعبرُ رئتيه وتنعشه، أخذ نفساً عميقًا، ثم فتح عينيه وأدار رأسه نحوها. كانت تنظر إلى الجهة الأخرى، وتميل برقبتها قليلاً تلتقط أنفاساً عميقة، ثم عرجت عيناها على أزهار الياسمين التي كانت عن يمينها، دقَّقت فيها للحظة، ثم التفتت ناحيته فجأة؛ فأشاح بوجهه بارتباكٍ واضح، سألت: هل تعبت؟

هزَّ رأسه نافياً وتابع سيره، سارت خلفه ببطءٍ، كانت تنتقلُ بعينيها مِن زهرةٍ لأخرى، توقَّف واستدار بنصف جسده نحوها؛ فرفعت عينيها متسائلة باهتمام؛ وإذ به يسألها: أَستطيع أنْ أجلس قليلاً؟

أومأت موافقة؛ فتقدَّم ناحية حوضٍ وجلس، ضغط على صدره وأخذ نفساً بإجهادٍ واضح وهو يعلق: التنفس بعمقٍ مع رئةٍ مصابة مجهدٌ بحق.

جلست بجواره وضمَّت كلتا كفيها ببعضهما، شعرت بالخاتم؛ فاختنقت، وراحت تخفي يدها في الجهة الأخرى، وسرحت عيناها في صمتٍ.

حرك عينيه نحوها ببطءٍ وشاهد النصف البادي مِن وجهها، كان تحت عينيها هالاتٌ سوداء، وكانت شفتاها جافتين، وكان أثرُ الأرق والإجهاد واضحاً على ملامحها.

شعر بالضيق مِن ذلك، وكتم زفرةً منزعجة في أعماقه، وأبعد عينيه إلى الجهة الأخرى ثم رفعهما نحو السماء متأمِّلاً، وبعد طول صمت بينهما كرهاه بالشدة ذاتها، سأل بتردُّد: ألن تقولي شيئاً؟

فغرت فمها عن قولها: آآآآه!

ثم أطبقت شفتيها ورمقته بلوم، ثم أشاحت بوجهها عنه وأجابت: كنتُ أودُّ أنْ أقول: أهلاً بعودتك!

وجم وجهه للحظة؛ فالتفتت إليه وأحدَّت النظر فيه وأتبعت: ولكنكَ اختبأت.

زمَّ شفتيه بحرجٍ واضح وخفض عينيه للأسفل وسمعها تقول: لا تقلق، لن أسألك لماذا اختبأت، ولكن ماذا عن ساعة الزمن؟

شخصت عيناه بذهولٍ؛ إذ تذكر بأنَّه قد فقدها، نظر إليها وأجاب بارتباك: ماذا بها؟ إنَّها معي وهي جيدة وتعمل.

- هكذا إذن!

كان مِن الواضح بأنَّها لم تصدقه وبأنَّها تخفي شيئاً، مما جعله يمعن النظر إليها متسائلاً، ولكنها تجاهلته وعرجت بعينيها نحو ساقه اليمنى وسألت: ماذا عن فخذك اليمنى؟ هل أنت جيد مع هذه الإصابة؟ أكانت هي السبب في إبطائك؟

فوجئ بالسؤال إلى الحد الذي جعله ينظر للحظات في عينيها بدهشة دون أنْ يجيب، وأخيراً، فغر فمه عن سؤاله: كيف عرفتِ بشأنها؟

رمقته بغيظٍ؛ فانكمشت ملامحه، وأخرج صوتاً ينمُّ عن الفهم، ثم أشاح بوجهه عنها وصمت دون أنْ يجيبها، وغرقا مجدداً في صمت الكهوف.

عبرتهما نسماتٌ عليلة من الهواء حرَّكت أطراف ثيابهما معاً، كما حركت مشاعر (مارغريت)، فشعرت معها بأنَّ كثيرًا مِن الكلمات المعلقة في أعماقها قد تحرَّكت بفعلها وهي في طريقها إلى الخروج من جوفها، فطاشت عيناها إلى الأسفل، ثم نطقت بشرود: لقد عدت إلى (دومدري) وظللت أنتظر شخصاً أحمقَ يطرق الباب، ويقول: بإمكانك أنْ تهربي معي.

صمتت للحظة وغشيت عينيها الدموع وهي تتبع: ولكن لم يأتِ أحد!

حرك عينيه نحوها ببطء ثم التفت إليها بوجه واجم، ابتلعت ريقها واتبعت بصوت يهتزّ دون أنْ تنظر إليه: ثم عدتُ إلى بغداد، ومررتُ بداريَّا ودمشق، وانتظرتُ شخصاً أحمق يلتصق بي خوفاً مِن عازف المزمار، ولكن، لم يأتِ أحد!

اهتزَّت شفتاها وفاضت عيناها بالدموع حتى أصبحت رؤيتها ضبابية، لم تكن تعرفُ بأنَّ وقع هذه الكلمات عليها سيكون مؤلماً إلى هذا الحد، ومع ذلك أكملت باندفاعٍ أكثر: عدتُ لسرّ مَن رأى وظللتُ أمشي بالسوق ذهاباً وإياباً، علَّ شخصاً أحمق يرتطم بكتفي صدفة، ولكن، لم يأتِ أحد! لقد ظللت أنتظر طويلاً كفَّ شخصٍ يمدها لي وهو يقول: إن كنتِ تؤمنين بأنِّي خاطفك فابقِ معي، لكـــــن، لم يأتِ أحد!

أدارت رأسها ببطء نحوه والتقت عيناها الدامعتان بعينيه الشاخصتين بذهول وأتمت: لقد انتظرتك طويلاً (راد).

انتفضت أعماقه؛ فخفض عينيه وأخذ ينظر بتيهٍ إلى الأسفل.

عضت شفتيها وأتبعت: وبعد كلّ هذا، أكان عليك أنْ تختبئ؟ ثم تناديني بـ(مارغريت)؟!

لقد هوى قلبه، لم يعد يشعر به، لا شيء في أعماقه سوى الفراغ، أغمض عينيه بوجعٍ للحظات وأخذ نفساً عميقاً ثم فتحهما، تمنى حينها لو يختفي أو

يتلاشى فجأةً مع ساعة الزمن، دارت عيناه بتيهٍ حوله، ضمَّ كفيه إلى بعضهما، ثم فرجهما بضيقٍ وحرجٍ واضحين، خيَّم الصمت بينهما عدا صوت بكاء (مارغريت) المكتوم، كان يشعرُ مع كلِّ دمعة تذرفها بأنَّ جزءاً مِن روحه يغادره، غمرته رغبةٌ عنيفة في معانقتها، رغبةً في أنْ يهبها كتفه؛ لتبكي عليه، وأنْ يعتذر منها، وأنْ يخبرها بأنَّه قد عاد مِن أجلها، ولكنه لم يستطع فعل ذلك، وهو يدرك أكثر مِن غيره بأنَّه كسحابة صيفية لا يمكن له أنْ يستمر. لقد بدت له مشاعره القديمة التي كان يخشى منها غاية في السُّخف، كان يعتقد بأنَّ الحب لا بُدَّ له مِن حاضرٍ للاستمرار، والآن صار كلُّ ما يخشاه هو الاستمرار! قد يبدو الاستمرار ببعض المشاعر كالاستمرار بالمشي إلى الوراء أو التقدُّم نحو جرفٍ صخري.

أخذ نفساً عميقاً وزفره بوجع، بردت عيناه وهو ينطق بتردد: لقد قابلت الطبيب (طاهر).

صمت للحظة، شعر خلالها بآخر جزءٍ مِن روحه يصعد تاركاً قلبه خواء وأتم: أظنُّ أنَّه شخصٌ جيد.

أما هي فشعرت بكلِّ شيء جمدَ حولها للحظات، وبأنَّ قلبها توقف هو الآخر عن النبض، فرجت شفتيها قليلاً وسالت سريعاً دمعةٌ على خدها الأيمن، أشاحت بوجهها، فغرت فمها وأطبقته عن لا شيء، كلماته الأخيرة قتلت داخلها كلَّ بذرة أمل في أعماقها، بعضُ الكلمات وقعُها يشبه الموت، يشلّ حركاتنا، يوقِفُ اللحظات، يدفعنا إلى الاحتجاج ولكنه احتجاج يأخذ هيئة الخرس، كانت كلماته تلك بمنزلة الوادع، وكأنها تقول: "لقد انتهى كل شيء بيننا"، لم تستطع أنْ تنطق بشيء وسط كل تلك الفوضى ومشاعر الصدمة التي أحاطت بها كإعصارٍ مزَّقها ثم قذفها بعيداً، لم تستطع لحظتها إلا أنْ تكون كـ(الليدي غراي) حينما انحنت لمصيرها ببأس، لولا أنَّ (لاورش)* حكم عليها أنْ تبقى معلقةً في لوحته؛ أما هي فمِن أين لها الآن بأملٍ يبقيها معلقة أكثر؟ فهل آن الأوان لترضى وتنحني لمصيرها ببأس؟

---

*إشارة إلى لوحة ملكة الأيام التسعة التي رسمها (بول لاورش)، والتي سجل فيها لحظة إعدام (الليدي غراي)، وهي ملكة بريطانية، عرفت باسم: ملكة الأيام التسعة.

بالكاد وقفت على أطرافها مديرة له ظهرها ونطقت بصوت يبتعد: فهمت، سأذهب الآن.

أمسك بمعصمها؛ ليوقفها، فالتفتت إليه بدهشة، ولكنه لم يكن ينظر إليها، ولم ينطق بشيء، ولا يدري لمَ أمسك بها ولمَ أوقفها، ولكنه لم يرد أنْ تذهب هكذا وحسب، لم يكن يريد أنْ ينتهي كلُّ شيء بينهما على هذا النحو القاسي، ولكنه لم يستطع قول ذلك.

استدارت وحاولت أنْ تمشي، لكنّه لم يرسلها، وظل متشبثاً بمعصمها بقوة أكبر، التفتت إليه مجدداً متسائلة، رفع عينيه نحوها ونطق: آسف؛ لأنني لم...

لم تكن قادرة على أنْ تسمع منه شيئاً آخر، ثمة شعور يدفعها بقوة للمغادرة الآن، كانت كلُّ ما تفكر فيه هذه اللحظة هي أنْ تهرب وحسب؛ فلفظت كفه بعنف وأسرعت مغادرة.

ظلّ يراقبها بأسى وهو يشعر بتلك الدمعة المارقة تعبر شفتيه حتى اختفت عن أنظاره.

زم شفتيه بوجعٍ، وحسرَ عن عينيه بكفه.

ما الذي تفعله (رائد)؟ ما الذي تفوَّهت به؟ لماذا أقول عكس ما في قلبي وما أفكر به؟ لماذا؟

لماذا لا أقول لها: إنَّني أريدها وحسب، لماذا لا أستطيع قول ذلك؟ هل الخوف مما سيأتي بعدها يعيقني إلى هذا الحد؟

تنهَّدَ بألمٍ، ثم وقف بصعوبة يجرُّ خطواته جراً محاولاً العودة، وأثناء ذلك استوقفه

ثلاثةُ واقفين خلف أحد الأحواض، وبجانبهم شجرة صفصاف كبيرة، مدَّ أحدهم للآخر قماشاً، وتهامس معه للحظة، شعر (رائد) بالريبة؛ إذ كان مِن استلم القماش ليس غريباً عنه. اقترب ببطءٍ محاولاً أنْ يراه عن قرب؛ وإذ به يلمح جزءاً من وجهه، لقد تذكره سريعاً، إنَّه الرجل ذاته الذي كان يتبعه

(حارثًا) في السوق ذلك اليوم ثم أصابه بكتفه، اختبأ خلف الحوض محاولاً أنْ يلتقط شيئاً، سمع جزءاً مِن حديثهم تضمَّن شيئاً عن (سهام العلالي وباتر).

رفع رأسه قليلاً؛ ليشاهدهم، وإذ به يفاجئ بالوزير (حاتم)، لقد عرفه هو الآخر، لقد شاهده في أوَّل يومٍ حضر فيه إلى السوق، كان الذي تسلَّم السهام قد شدَّ عليها بيده ثم استدار مغادراً، شعر بالخوف يتملَّكه فعاد ليختبئ، سمع الوزير يقول: فليسقط البغداديون، فليسقط أبناء العلالي، ثم غادرا المكان، بينما ظلَّ (رائد) متجمداً في مكانه يفكر بخطورة ما سمعه للتو.

الفصل السادس: الوَشْم

تأمَّل ترَ، فالنظر وحده ليس كافياً.

أيمن العتوم

كانت أصوات الاحتفال منذ الصباح قد غمرت كلَّ أرجاء دمشق، حتى داخل أروقة المستشفى كانت الممرضات يوزعنّ الحلوى الدمشقية على المرضى.

لم ينم (رائد) مِن القلق، ولم يستطع أنْ يخبر أحداً بما سمعه البارحة، فربما يكون مخطئاً؛ إذ إنَّه لم يتمكن مِن معرفتهم جيداً، للحظة راودته فكرة أنْ يهرب ويخبر (ليو)، ولكن أين سيجده الآن؟ لا شك أنَّه قد غادر بيته.

نهض مِن على سريره، ثم اتجه نحو الباب، ألقى بنظرةٍ سريعة على الممرِّ، لقد كان مزدحماً، فكر للحظة بأنْ يتسلَّلَ مِن بينهم ويهرب، ولكن ما إنْ همَّ بالحراك حتى سمع صوتاً خلفه يقول: إلى أين؟

التفت فزعاً؛ وإذ به يشاهد (مارغريت) واقفة تنظر نحوه باستغراب، انتفض مرتبكاً وأشاح بوجهه في خجل، وتساقطت في ذهنه كلُّ أحاديث الليلة الماضية التي جرت بينهما، ولكن لا وقت لديه الآن لكي يشعر بالذنب حيالها.

تراجع إلى الخلف قليلاً سامحًا لها أنْ تقترب من الباب، ولج إلى الداخل وهو يسأل: أين (ليو)؟

دخلت وهي تجيبه: لماذا؟ لا شك أنَّه مشغولٌ بالمراسم الآن.

عضَّ على شفتيه للحظة مفكراً ثم قال: ألا تعرفين أين مِن الممكن أن يكون بالضبط؟

ابتسمت بارتباك وهي تجيبه: ما الذي يشغلك؟ مِن المؤكد أنَّه في القصر الآن مع الأمير.

خفض عينيه إلى الأرض ثم ابتلع ريقه، لاحظت إيماءاته المضطربة؛ فاقتربت منه أكثر وهي تسأل: أخبرني، أهناك ما يقلقك؟

رفع رأسه ونظر إليها بتمعن وقال: (مارغريت)، أرجوك ساعديني! لديَّ شعورٌ سيء حيال الزفاف هذا، يجب أنْ أجد (ليو) و(باترًا) بأسرع ما يمكن.

-أهذا مِن أجل السهام التي سُرقت مِن باتر؟

كان مَن نطق بذلك (إياد)؛ إذ كان مستنداً إلى الباب وهو يشير إلى سهمٍ في يده، ويبدو أنَّه قد استمع إلى حوارهما منذ البداية، التفت ناحيته (رائد) بدهشة وهو يسأل: كيف عرفت؟! بل لحظة، كيف حصلت على هذا؟!

اقترب منه وقال: حسناً، أتذكر ذلك الرجل الذي أراد أنْ يقتلك في الزقاق؟ لقد رأيته البارحة يخرج مِن ثكنات الجنود؛ فتبعته، واشتبكت معه؛ فسقطت السهام منه وفوجئت بها، صحيحٌ أنَّه قام بجمعها، ولكنه لم ينتبه لأحدهم، ففرَّ هارباً.

اندفع نحوه (رائد) وراح يشده إليه مِن كتفيه ويقول: أتعرف ماهي خطته؟ هل عرفت فيمَ يفكر؟

أبعده وهو يجيب: لا طبعاً، ولكن مِن الواضح تماماً أنَّه يريد توريط أحد أبناء العلالي، أنت تعلم بأنَّ هذه السهام خاصة بهم.

انظر، ثم رفعها نحوه وهو يشير إلى رمز عائلة العلالي.

نظر إليها (رائد) وقال: نعم، أذكر ذلك الرمز جيداً.

لقد جئتُ؛ لأطلعك على ذلك علك تستطيع التصرف، فأنا لن أستطيع أنْ أدخل إلى القصر وأصل إلى معلمي أو القائد (باتر).

أومأ له موافقاً، ثم التفت إلى (مارغريت) فجأة وسأل: أين لباسي العسكري؟ كنتُ ألبسه حينما أُصبت.

ارتبكت للحظة ثم استدارت خلفها وهي تجيب: نعم، أظن أنَّه قد وُضِع في أحد الدواليب، ولكنّه ممزق! ثم راحت تبحث عنه بينما كان (رائد) يتحدث مع (إياد) ويسأله عن بعض التفاصيل المهمة.

وجدته (مارغريت) وسرحت للحظة فيه، حينما أحس بتأخرها، التفت إليها وهو يسأل: أوجدته؟

وقفت سريعاً ثم ناولته إياه وهي تنظر للأسفل، التقطه وسريعاً، لبسه فوق قميصه وما إنْ بدأ يغلق أزراره حتى قالت دون أنْ تنظر إليه: أنت لن تتوقف حتى لو طلبت ذلك منك صحيح؟

توقف للحظة ونظر إلى عينيها، كانتا غائرتين في مشاعر متناقضة شعر بها؛ لذا خفض رأسه وتابع غلق الأزرار بتوتر وهو يقول: أنا خائف أنْ يحدث مالا يُحمد عقباه.

ناولته البنطال ثم استدارت وهي تقول: حسناً، لا ترهق نفسك فالجرح كبير، وعد سالماً، ثم أغلقت الباب خلفها، وظل قلب (رائد) معلقاً للحظات ولم ينتبه لنفسه إلا حينما أطلق (إياد) صوتاً ينم عن الإعجاب ثم قال: لو أنَّها قالت لي ذلك؛ لتوقفت وبقيت معها، ثم التفت إلى (رائد) وأتم: أليست جميلة بربك؟

لوى (رائد) فمه ورمقه بحنقٍ وهو يرد: أهذا وقته الآن؟!

ثم أشار له نحو الباب وهو يقول: لنذهب.

خرجا مِن الغرفة سريعاً واتجها نحو الباب، بينما وقفت (مارغريت) تنظر إليهما وهما يغادران، ونفسها تحدثها باللحاق بهما.

سلكا طريق الحدائق، وعبرا مِن ثكنات الجند حتى تمكنوا أخيراً مِن الوصول إلى قاعة الاحتفال، وما إنْ همَّ (رائد) بالدخول حتى أوقفه أحدُ الحراس وسأل: توقف، مَن أنت؟ هذه أول مرة أراك فيها؟ ومَن هذا الذي بجانبك؟

أبعد (رائد) سلاحه عنه وهو يجيبه: مهلاً، أنا أريد القائد (حارث) بأمرٍ مهم، وهو مَن طلب مني إحضار هذا الفتى.

نظر إليه بريبةٍ ثم قال: لا يمكنني السماح لك بالدخول، الأوامر مشددة.

اعترض (رائد) بقوله: مهلاً، أنا مجند في الحرس الخاص، ألا ترى ملابسي؟

رمقه بازدراءٍ وهو يجيبه: وهذا ما يجعلني لا أثق بك، مابالها ممزقة؟! ثم إنْ كنتَ مِن الحرس الخاص فمِن المفترض أنْ تكون برفقة القائد (باتر) منذ الصباح، فماذا كنت تفعل؟

-حسناً؛ هذا لأنِّي كنتُ أتعالج في المستشفى.

في تلك الأثناء كان أحد الجنود واقفاً يراقب المشهد، ومِن حسن حظ (رائد) أنَّه تعرَّف إليه؛ فتقدَّم وأخبر الجنديين وأزال هذا اللُّبس وسمح لهما بالدخول، ركضا سريعاً في الممرات، كانت الفرق الموسيقية في كلِّ مكانٍ تعزف، والطاولات الممتلئة بالأطعمة في كلِّ مكانٍ حولهما، في تلك الأثناء توقف (رائد) وهو يطيش بعينيه بحثاً عن (حارث) و(باتر)، ثم وقعت عيناه على (إياد) الذي كان هو الآخر يبحث عنهما، تذكَّر فجأة ما قاله له ذلك اليوم بشأن بحثه عن شيء ما؛ لذا تطلع إليه وسأل: ما الشيء الذي تريد أنْ تبحث عنه وتستعيده؟ إنني أتساءل مِن يومها.

استغرب للحظة مِن سؤاله وابتسم وهو يجيبه: أتعرفُ ما معنى أنْ تكون الوحيد الناجي مِن مجزرة؟

انكمشت ملامحُ (رائد) حائرة؛ فازداد اتساع بسمة (إياد) وهو يتبع: إنَّه حقاً عبء ثقيل.

خفض عينيه إلى الأرض للحظة؛ ليخفي لمحة الحزن عن وجهه، ثم عاد لينظر إليه ويتم: ما أريد استعادته هو شيء يشبه المجد يا صديقي، ثم تنهد وهو يدور بعينيه في يأسٍ وعلق ليقطع الحديث: يبدو لي بأنَّ إيجادهما الآن وسط هذه الحشود مستحيل.

اقترب منه (رائد) وهو يسأل: إذن، ما الذي تتوقعه بشأن خطة الوزير؟ ما الذي سيفعله بشأن السهام؟

قطب حاجبيه مفكراً ثم ردَّ: حسناً، إن كنتُ أريد أنْ أورِّط (باترًا)، فإنِّي بالتأكيد سأفعل أمراً يجعله موضع شك أمام الأمير (شهاب).

وما الذي ستفعله في وسط هذه الحشود؟ مِن الصعب أنْ يفكر بقتل أحدهم وسط هذه الحشود؛ لأن هذا سيكون عملاً أحمق، ولن يتورط (باتر) في ذلك.

صحيح، ولكن وبما أنَّني أخبرتك بأنني عرَّاف المدينة، فلقد سمعت أحاديث مِن هنا وهناك مفادها أنَّ (حاتمًا) و(آصفًا) لم يكونا سعيدين بحلف المملكتين؛ لذا لو كنتُ مكانه فإنَّ الشخص الوحيد الذي سأفكر بقتله، والذي مِن السهل عليَّ قتله هو ...

ارتسمتْ على وجه (رائد) ملامح مرعوبة؛ فقاطعه وهو يقول: أميرة (بيين)؟!

أومأ (إياد) موافقاً وأتم: نعم، وسأفعل ذلك قبل الاحتفالات، وأثناء التجهيزات؛ أي: الآن.

تلفت حوله برعب وتمتم: تباً! لماذا لا يمكنني أنْ أجدهما الآن؟!

عضَّ على شفته السفلى ثم قال: اتبعني.

تحرك سريعاً رغم شعوره بالوجع وتبعه إياد وهو يسأل: إلى أين؟

إلى الأميرة طبعاً، انظر حولك إنْ رأيت أحداً يلبس ملابس (بيين)؛ فأخبرني، بسرعة لنذهب.

ركضا بسرعة يصطدمان بالحراس والخدم، وأثناء ذلك لمح (رائد) إحدى الخادمات التي تلبس ملابس على طراز (بيين) تنحني في أحد الممرات، وكان يقف إلى جوارها جنديٌّ يلبس هو الآخر ملابس (بيين)، أشار إلى (إياد) بقوله: هناك، انظر.

تحركا سريعاً وما إنْ أرادا الدخول حتى أوقفهما الحارس وأمسك بسيفه متأهباً وهو يسأل: إلى أين؟

توقفا وتبادلا النظرات لحظة وسأله (رائد): لماذا توقفنا؟ نحن نبحث عن قائد الحرس الخاص.

-وما الذي سيفعله القائد في مخدع الأميرة؟

ابتسم (رائد) ثم قال دون أنْ ينظر لـ(إياد): ألستَ حارسي الشخصي؟ ألم تكن تتباهى بأنَّك قد انقذتني.

نظر إليه باستغراب؛ وإذ به يشير إلى سيفه ويقول: لماذا لا تفتح لي الطريق.

صرخ بدهشة معلقاً: مجنون! أهذه خطتك.

لكن (رائدًا) لم يمنحه فرصة للتفكير أو الرجوع؛ فأشهر سيفه واشتبك مع الحارس مما حدا بـ(إياد) أنْ يرفع سيفه هو الآخر ويشبتك به وهو يصرخ بتذمر: كان يراودني شعور بأنَّني لن أحصل معك على وظيفة؛ بل سأدخل السجن على الفور.

استغل (رائد) انشغاله به، وأسرع راكضاً إلى الداخل، وما إنْ تجاوز الممر حتى فوجئ بجثة تلك الخادمة التي عبرت قبل دقائق وهي ملطخة بالدماء، انحنى؛ ليعانيها كانت قد فارقت الحياة! استغرب لخلوِّ الممر مِن الحرس الخاص وحرس (بيين)! انتفض واقفاً وتابع طريقه ركضاً، وهو يحدث نفسه: أين اختفى الحراس؟ أليس هذا غريباً؟!

وقف أمام باب الغرفة؛ فوجد حارسان قُتلا بالسهام وبضربةِ سيف أيضاً،

شعر بالرهبة للحظة، ولكنه دفع عواطفه سريعاً وفتح الباب، ووقعت عيناه على الرجل أمامه وهو مسلِّطٌ سيفه فوق الأميرة وهي منكمشة على نفسها.

صرخ (رائد) دون تفكير: توقف!

التفت الرجل بذعر نحوه، كان يلبس ملابس الحرس الخاص، ويحمل السهام المسروقة، ولكن لوهلة راود (رائدًا) شعور غريب بأنَّ الرجل تباطأ كثيراً، وكأنَّه يمنحه الفرصة؛ لإيقافه عامدًا؛ فأثار ذلك حيرته، ومع ذلك شعر بالشلل تماماً فحتى لو قفز أو تحرك فإنَّه لن يصل إليه قبل أنْ يمرِّر السيف فوق عنقها، وفي لجة التيه تلك شعر بسهمٍ مرق مِن جوار رقبته؛ فشخصت عيناه بذعرٍ، واندفع السهم بسرعة ليصيبَ ذلك الرجل على جانبه؛ فارتدَّ

ساقطاً على الأرض وصدره للأمام، ولم تمرّ ثانية أخرى حتى استقر سهماً آخر على صدره. التفت (رائد) بذعر خلفه؛ وإذ به يرى (بارعًا) وقد أعاد يده إلى الخلف؛ ليلتقط سهماً آخر صوبه مرة أخرى نحو الرجل، ثم عبر مِن جوار (رائد) وهو يقول: أخبرني، مَن الذي أرسلك بسرعة؟

تلفَّت (رائد) حوله مستطلعاً، كان على الزاوية أربعة جنود واقفين مِن (بيين)!

توقف (بارع) بجانب الرجل وأحدَّ النظر في عينيه، ويده موضوعة على مقبض سيفه، وهو يقول: سألتُك فأجب، مَن الذي سلطك؟

ومع أنَّ دماءه كان تملأ الأرض، إلا أنَّه نظر إليه وهو يبتسم بسخرية ويجيبه: شقيقك (باتر)، ثم أخرج شيئاً بسرعة مِن جيب بنطاله ووضعه في فمه، ولم تمضِ ثوانٍ حتى انتفض وازرقَّت عيناه وسقط ميتاً.

كزَّ (بارع) على أسنانه بغيظٍ وانحنى؛ ليعاينه، كان ميتاً، بينما أسرع (إياد) الذي كان قد وصل للتو وانحنى؛ ليساعد الأميرة على النهوض وهو يسألها: هل أنتِ بخير سيدتي؟

هزَّت رأسها بارتباك، وفي تلك اللحظة اندفع الباب وظهرت مِن خلفه الخادمة التي تدعى (زهرة)؛ فدارت أعناق الجميع نحوها، أسرعت إلى سيدتها وعانقتها وهي تقول: أنت بخير سيدتي؟ أنت بخير؟

أومأت موافقة وعيناها ما تزالان تنظران ناحية الجثة بهلعٍ. كان (رائد) ما يزال واقفاً في مكانه ينظر إلى إيماءات وجوههم الغريبة، ثم رفع يده ببطءٍ ناحية رقبته، وفي تلك اللحظة استدار ناحيته (بارع) والتقت عيناهما. لم تكن عينا (بارع) تبدي أيَّ تعبير، بينما كان (رائد) ينظر ناحيته بوجلٍ، ثم عبست شفتيه للحظة، ثم تقدَّم بخطواته وانحنى؛ ليفتش في جيوب الجثة؛ وإذ به يجد السُّمَ الذي ابتلعه في أسطوانةٍ غاية في الصغر بجانبه، وفي جيبه الآخر رسالةً بأمر القتل موقَّعة باسم (باتر).

ناولها لـ(بارع) وهو يقول: انظر.

أمسكها (بارع) وأخذ ينظر إليها، وعلته نظراتٌ ساخرة، ثم مزقها؛ فشخصت عينا (رائد) ذاهلة ونطق: كيف تفعل ذلك؟! إنَّه دليلٌ قد يقودنا إلى مَن زوَّره.

رمى البقايا على الأرض ووقف معيدًا سيفه إلى غمده وهو يقول: بماذا سيفيد إنْ كان قد قتل نفسه.

رفع (رائد) عينيه ببطءٍ ناحية الأميرة؛ وإذ بها ترمق (بارعًا) بغيظٍ استنكره.

خرج الجميع مِن الغرفة؛ لرفقة الأميرة، بينما ظلَّ (رائد) ينظر إلى الجثة لثوانٍ عدة قبل أنْ يرفع ذراعها اليمنى ويكشف عنها؛ ليفاجَئ بوشم العنقاء الأحمر!

*****

علم الأمير (شهاب) بما حدث، ومع ذلك تمَّ التكتم على الموضوع، ومتابعة مراسم الزفاف، إلا أنَّ الأميرة لم تكن في مزاج جيد أبداً، ولم تكن خائفة بقدر ما كانت منزعجة.

استمرَّ (إياد) برفقة (رائد) وحضرا مراسم الحفل، وما إنْ انتهت حتى أمر الأمير (شهاب) بالتحقيق فيما حدث؛ فتمَّ استدعاء الجميع.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها (رائد)، و(إياد) قاعة المرجان، وما إنْ ولجا حتى وجدا (بتّارًا) قد سبقهما وصعد إلى كرسيِّ الأمير ووقف أمامه يحدثه، وما إنْ شاهدهما حتى نزل وهو يقول: (رائد)، أخبرني ما الذي حدث بالضبط؟ مَن وراءه؟

هزَّ (رائد) رأسه نافياً وهو يجيبه: للأسف! لقد قتل نفسه قبل أنْ يعترف.

في تلك الأثناء بالضبط كانت الأميرة قد دخلت ووجهها محتقن بالغضب وهي تقول: بل قال، لقد سمعته يقول: إنَّ مَن أمره بذلك قائد الحرس (باتر).

نظرا إليها بدهشةٍ بينما تنقلت عينا الأمير بينهم بحيرة، دخل في تلك اللحظة (بارع) دون أنْ يدرك شيئاً عما دار قبل قليل، وما إنْ شاهدته حتى قالت: لقد مزَّق الدليل الذي كان يحمل أمراً باسم (باتر) بمنتهى البرود.

أحدَّ (بارع) النظر إليها؛ فرمقه (باتر) بلومٍ؛ فأشاح بعينيه عنها، وأخذ يحملق في بقية القاعة ببرود.

وجَّه (رائد) حديثه للأمير: صحيح، هذا ما حدث ولكن لقد رأيت البارحة أحدهم وهو يسلِّم للقاتل السهام، ولم يكن (باتر) حتماً، وإلا لكنتُ قد عرفته.

كان مِن الواضح بأنَّ الأميرة قد فوجئت بذلك، ولكنّها سرعان ما تظاهرت بعدم الاكتراث.

لاحظ (رائد) ذلك وازدادت ريبته بها، ولكنه مع ذلك أشار لـ(إياد)؛ فتقدَّم وعرَّف بنفسه وقال: اسمي: (إياد السايس)، لقد شاهدت الرجل الذي رفع سيفه في وجه الأميرة وهو يخرج البارحة مِن ثكنات الجند، واشتبكتُ معه وأوقع السهام، وترك أحدهم وأخذته، ثم قمت بإبلاغ (رائد) بذلك؛ لذا اتجهنا بحثاً عن القائدَين: (حارث) و(باتر).

نظر إليهما ثم أتبع: ولكن لم نجدهما، ثم خمَّنا بأنَّ القاتل ربما يفكر بقتل الأميرة؛ لذلك اتجهنا إلى هنالك.

تحدث (رائد): ثم لحقنا (بارع) وساعدنا، ولولا تدخله لكانت الأميرة...

قاطعته بحدَّة وهي تقول: كيف عرفتما بأنَّني المقصودة؟!

ثم أشارت ناحية (بارع) وقالت: وهو كيف عرف بأمركما وتبعكما؟!

إلا إذا...

دارت أعين الجميع حولهما، (بارع) كان ينظر ناحيتها ببرود، بينما كانت عيناها ممتلئتين بالغضب، تابعت: إلا إنْ كان قد تلقى هو الآخر أمراً مِن شقيقه.

كانت بظنونها تلك قد زرعت شكاً في قلب (شهاب)، ولكن لم يتملكه إلا للحظة، نظر إلى (باتر) ثم هز رأسه نافياً وهو يجيبها: إنَّ (باترًا) لا يفعل ذلك، ولا يمكن له أنْ يفكر بذلك.

رمقها (باتر) بغيظ للحظة، ثم وجه حديثه لـ(شهاب): أنت تعلم سيدي الأمير مدى إخلاصي لك، ومدى حرصي على هذا السلام، وأشكُّ بأنَّها مؤامرةٌ أحيكت ضدنا؛ لتدمير السلام بيننا وبين (بيين).

أومأ موافقاً وأتبع: وهذا ما فكرتُ به كذلك، ومع هذا أجدني مضطراً لسؤالك يا (بارع).

التفت إليه ناظراً باهتمام فسأله: كيف تمكَّنت مِن معرفة ما يحدث؟

خفض عينيه للأرض وهو يجيبه: لقد وصلتني رسالة تخبرني بترك موقعي والتوجه فوراً إلى مخدع الأميرة ولم يكن فيها اسم المرسل.

ارتبكت ملامح الأميرة، ثم سرحت بعينيها للأسفل، كان (رائد) يراقب إيماءاتها تلك وهو غير مطمئن حيالها.

التفت إليها الأمير وهو يبتسم ثم وجه حديثه للجميع وقال: عموماً، أنا شاكر لكم جميعاً! لقد أنقذتم الأميرة، وأحبطتم بتدخلكم السريع مخططاً كان سيفسد زفافي؛ لذا سأكافئكم.

التفت إلى (إياد) وقال: وأنت بالذات لقد قمت بدور مهم؛ لذا أخبرني بما تريده فوراً.

ابتسم (إياد) بخجل وهو ينظر ناحية (رائد) الذي أشار عليه بالإفصاح؛ لذا خفض رأسه وقال: كل ما أريده هو أنْ أبقى في خدمتك سيدي.

أومأ موافقاً، وهو يقول: مِن اليوم أنت مِن الحرس الخاص إذن.

ابتهجت أساريره وكاد أنْ يعانق (رائدًا) لولا أنَّ (حارثًا) رمقه بنظرة تنمُّ عن عدم الارتياح، فابتسم بخجل وهو يشيح بعينيه.

حينها تقدم (باتر) وهو يقول: سيدي الأمير، أنا سعيد لسلامتك وسلامة سيدتي الأميرة! ولكن يجب علينا أنْ نبحث في أمر المدبر الحقيقي، والرسالة التي وصلت لـ(بارع) تبدو محيرة، ثم كيف للحرس الخاص أنْ يختفي فجأة مِن مخدع الأميرة وتُترك دون حراسة؟!

أومأ له مؤكداً وهو يقول: عليك أنْ تبحث في هذا، أعتمد عليك أنت و(حارث) في ذلك، ثم أمرهم بالانصراف.

اقترب (حارث) مِن (إياد) الذي التصق بـ(رائد) وهو يهمس له معبِّراً عن فرحته، وضربه على كتفه وهو يقول: ها قد حققت ما تصبو إليه.

نفخ فمه باستياءٍ وهو يرد عليه: هذه أول خطوة فقط، ولكن لماذا لا تبدو سعيداً معلمي؟

حملق في عينيه للحظة ثم قال: أنت أحمق بالفعل؛ لأنني أحبك لم أكن أريد لك أن تأتي إلى هنا.

فوجئ بذلك، فتجمَّدت ملامحه بينما عبرهما (حارث)، نظر إليه (رائد) وهو يقول: لا عليك، أعتقد بعد الذي شاهدته اليوم أنَّه محق.

رمق الأميرة للحظة وهو يتم: أشعر بأنَّني في وكرٍ للدبابير. ألم تلحظ غياب مجموعة كبيرة من الجنود؟!

أومأ موافقاً، ثم سارا معًا، وما إنْ خرجا حتى توقف (رائد) ينظر أمامه؛ إذ كان (حارث) يقف إلى جوار (بيلسان) وإلى جانبها وقفت (عروب)، و(مارغريت).

كانت (بيلسان) تبتسم وهي تتحدث معهم، وفجأة التفتت ناحيته وما إنْ رأته حتى ابتسمت؛ أثار ذلك استغرابه، ولكنها لم تمنحه فرصةً للتفكير؛ إذ أشارت إليه مِن بعيد وقالت: هل أنت بخير الآن؟

طرفت عيناه غير مصدقتين، أيمكن أنَّها تراه الآن، تقدم خطوتين بطيئين، ثم أسرع حتى وقف أمامها، حدَّق في عينيها للحظات؛ فأشاحت بوجهها بخجل وهي تقول: أخبروه!

انتقل بعينيه صوب (عروب) و(مارغريت) متسائلاً، أومأت (مارغريت) برأسها بينما نظرت إليه (عروب) وقالت: إنَّ ما تفكر به صحيح.

نظر إلى (بيلسان) وقال: ولكن كيف؟

حركت كتفيها وهي تجيب: لا أعلم كيف حدث ذلك، ولكني حينما صرخت..

توقفتُ للحظة، شعرت بثقل الكلمات عليها فلم تستطع أنْ تكمل ما بذهنها؛ لذا ابتسمت بمرارة ورفعت عينيها إليه وقالت بارتباك: المهم إنَّني أستطيع أنْ أبصرَ الآن.

في تلك اللحظة كان (باتر) يقف خلف (رائد) وقد سمع ما قالته، أزاح (رائد) من طريقه وهو يقول: أحقاً أماه؟

تنبَّهت إليه؛ فابتسمت وهي تؤكد له بعينين دامعتين.

ابتسم براحةٍ وملأت الدموع عينيه هو الآخر، ولم يستطع أنْ يخفي تأثُّره، ولم يملك مشاعره؛ فاندفع نحوها معانقاً، بينما ظلَّ (رائد) ينظر إليهما وإلى (عروب) ويبتسم.

جعل هذا المشهد الجميع يلوذون بالصمت ويكتفون بالمشاهدة والابتسام فقط، ولم ينتبه أحدهم إلى ذاك الواقف خلفهم، كان (بارع) قد سمع كلَّ شيء ولكنه ظلَّ متجمداً في مكانه ينظر إليها بصمت، وما إنْ تنبَّهت لوجوده حتى ابتسمت ونطقت باسمه، لكنه هرب بعينيه بعيداً عنها، ثم عبر مِن جوارهم ببرودٍ، التفت (باتر) ونادى عليه؛ ليوقفه بغضب: (بارع)، توقف لحظة!

إلا أنَّ (بيلسان) أمسكت بكفه؛ لتوقفه وهي تشير إليه بتركه، تابع (بارع) طريقه دون أنْ يلتفت مع أنَّه كان يشعر بشيء يشده إلى الخلف بقوة، وما إنْ ابتعد عن أنظارهم حتى شعر بثقلِ خطواته وببطئها شيئاً فشيئاً حتى توقفتا،

خفض رأسه ونظر إلى حذائه وهو يبتسم، وفوجئ بتلك الدمعة التي تمرَّدت وخرجت مِن عينه.

التفتت مارغريت لرائد مستطلعة وشخصتْ عيناها بفزع وهي تشاهد الدماء تنزف وتلطخ قميصه، سحبته من ذراعه وهي تعلق: أنت تنزف؟! لقد أخبرتك أن لا ترهق نفسك؟!

نظر إلى جرحه ووضع كفه عليه ثم نظر إليها بوجه بارد وهو يرد: في الواقع.. أنا أتألم.

ثم شعر بضبابية رؤيته، حاول جاهداً أن يفتح عينيه جيداً ولكنّه لم يشعر بنفسه وهو يسقط مغشياً عليه بين ذراعي مارغريت.

*****

تسلَّلت خادمة الأميرة (زهرة) واتجهت إلى غرفة (حاتم)؛ لتنقل له مجريات ما حدث في القاعة، وكيف أنَّ الأميرة كانت غاضبة وهي تتهم (باترًا) وكيف كانت تؤكد على تورطه.

تلقت منه بعض الأوامر، ثم غادرت الغرفة.

الفصل السابع: بدايةُ السقوط

صديق الجميع ليس صديقاً لأحد.

أرسطو.

في اليوم التالي وفي وقت العصر، كان (رائد) في غرفته يتأهَّب؛ ليذهب مساءً مع (حارث) إلى منزل العلالي؛ إذ دعاهم (باتر) لحفل عشاء بمناسبة شفاء (بيلسان) وترحيباً بـ(رائد). كان قد خلع قميصه ووقف أمام المرآة ينظر إلى الشاش على صدره، حلَّ العُقدة، وبدأ يفكُّ الشاش شيئاً فشيئاً؛ ليكشف عن الجرح، في تلك اللحظة كان باب غرفته يُطرق، ارتبك والتقط قميصه سريعاً مِن على الأرض ولبسه دون أنْ يُزَرِّرَه وهو يقول: ادخل.

ولجت (مياسين)، وما إنْ شاهدها حتى قال: هذه أنت؟ أخبرتك مِن قبل: إنَّني أستطيع الاعتناء بغرفتي.

وقعت عيناها على قميصه المفتوح، وقالت: نعم، ولكن.. لم آت لأهتمَّ بغرفتك، في الواقع..

أشارت خلفها وهي تتم: يبدو أنَّ سيدي كان محقاً؛ لذا طلب لك المستشفى هنا، ثم رفعت صوتها وهي تقول: يمكنك أنْ تدخلي.

شخصت عيناه بذهول ونطق: من؟ مهلاً...

ولكن سرعان ما دخلت (مارغريت) وهي تحمل بيدها صندوقاً، ما إنْ شاهدها حتى أشاح بوجهه، وأغلق قميصه بيديه في ارتباكٍ واضح.

تقدَّمت ووضعت الصندوق على الطاولة وهي تقول: لماذا عدت مع (حارث)؟ لقد رأيت الدماء البارحة وقد لطَّخت جزءاً مِن قميصك، كان عليك أنْ تبقى أكثر؛ فأنت لم تتعافَ بعد.

أخرجت الدواء مِن الصندوق ووضعته إلى جواره، حاول أنْ يتظاهر بالانشغال؛ فأخذ يعبث بشعره بأصابعه، توقفت (مياسين) عند الباب، وراحت تراقبهما للحظات بصمت، عيناه الهاربتان وعيناها المحملتان بالوجع.

أدركت أنَّ ثمة توتر بينهما، ولكنّها أغلقت الباب خلفها بصمت.

كانت (مارغريت) تحضِّر اللفائف وهي صامتة، وما إنْ انتهت حتى مدَّت له الدواء وهي تقول: خذ هذا أولاً، ألا يوجعك الجرح؟

ابتلع الدواء ثم مسح ما علق منه على شفتيه وهو يجيب: قليلاً، ثم صمت وهرب بعينيه إلا أنَّ قلبه لم يكن قادراً على ذلك، كان قلبه يخفق بشدة خشي معها أنْ يفضحه!

أمسكت (مارغريت) الكرسيَّ وقربته مِن الكرسيِّ الآخر وسط الغرفة، ثم جلست عليه وقالت: اجلس؛ لأبدِّل لك الضِّمادات.

جلس وخلع قميصه وأسقطه على الأرض إلى جواره، اقتربت منه ومدَّت يدها؛ لتنزع الضمادات، حرَّك عينيه ببطء نحوها، كان أثر الإرهاق واضحاً على ملامحها، ظلَّ يراقبها بصمت، وهو يفكر بكلامه لها آخر مرة، لقد ظنَّ أنَّها لن تقترب منه بعد الذي قاله لها، ولكن ها هي تجلس إلى جواره الآن، وكأنها تصرُّ على الاستمرار، أيمكن أنَّها تفكر بذلك حقاً؟!

نزعت الضمادات، ثم وقفت وأحضرت المرهم، وعادت لتجلس أمامه، ثم أخذت تضع منه على الجرح بينما كان ما يزال ينظر إليها سارحاً.

توقفت فجأة ورفعت عينيها تنظر إليه، ارتبك وأبعد رأسه قليلاً؛ وإذ بها تقول: إذا لم تتوقف عن النظر إليَّ بهذه الطريقة؛ فإنَّني لن أستطيع أنْ أكمل.

زاد ارتباكه وتوتره وابتسم ببلاهة وقال مبرراً: لم أكن أنظر إليك، كنتُ أنظر إلى...

لم يسفعه ذهنه المتوتر بشيء؛ لذا فضل أنْ يصمت.

رمقته دون أنْ تبدي أيَّ تعبير، ثم مالت عليه قليلاً وشرعت تلفُّ الشاش، وأثناء ذلك عاد ليرفع رأسه وينظر إلى عينيها، كان يشعر بحجم الوجع ويقرأ اللوم فيهما وإنْ لم تنطق، ولكن حتى قلبه هو الآخر يتوجع، ومع ذلك أراد أنْ يخفف قليلاً مِن هذا الوجع؛ لذا حرك شفتيه قليلاً ثم أغلقهما وعاد ليهرب بعينيه، ظلَّ للحظات هكذا حتى انتهت، وما إن همَّت بربط اللفافة حتى نطق: أنا لن أمكث هنا طويلاً، سأغادر قريباً.

توقفت للحظة وبدت على وجهها إيماءات الدهشة، ولكنّها حاولت أنْ تخفيها سريعاً وتتظاهر بالبرود، وتابعت الربط، ثم أخرجت صوتاً ينمُّ عن الفهم، ثم

اعتدلت وهي تقول: انتبه لنفسك، يجب على الأقل أنْ ترتاح أسبوعاً، ثم اتجهت نحو صندوقها، وأخرجت علبة دواء وضعتها إلى جواره وأغلقت الصندوق وحملته وهي تقول: عليك ألا تستخدم السيف كثيراً، أعتقد أنَّ إصابة فخذك ستسوء أيضاً، ثم ندت مِن شفتيها بسمة هاربة وهي تستدير وتخرج مِن الغرفة مسرعة، بينما ظلَّ هو ينظر ناحيتها وهو يبتسم بمرارة ويقول: لماذا تصعبين الموضوع علي أكثر؟! ألا يمكنك أنْ تتجاهلي وجودي وحسب؟

*****

سحبت الطبق مِن بين يديها وهي تقول مستنكرة: ما الذي تفعلينه (بيلسان)؟ اتركي هذا لي.

-ولكن، أريد على الأقل أنْ أفعل شيئاً.

حاولت مجدداً لمس الطبق لكنَّ (عروب) أبعدته مرة أخرى؛ فقالت متذمرة: أنت تحاولين إبعادي، وأنا أشعر بالملل!

استدارت نحوها بكامل جسدها وأمعنت النظر في عينيها للحظات بشغف قبل أنْ تقول: افعلي ما تجيدينه وحسب، نسِّقي زهور المائدة، أسرعي قبل أنْ يأتي الضيوف.

استدارت مغادرة وعلقت بتذمر: أشعر بأنَّها جلسةٌ سياسية أكثر مِن أنَّها جلسة للاحتفال، ما حاجة الأزهار؟!

ثم اتجهت نحو الباب ولحقها تعليق (عروب): أنت فقط تتدللين، إنَّ الحفل حقاً من أجلك.

وما إنْ خرجت مِن المطبخ حتى توقفت في الحديقة وأخذت تتلفت حولها محتارة أيِّ نوعٍ من الزهور تأخذ. نظرت إلى شجرة البيلسان، ثم اقتربت منها، أمسكت بإحدى الأزهار بأناملها وطرأ في ذهنها صوته وهو يقول لها: ألسنا نطلق على جميعها أزهارًا في النهاية ؟ تلك الزهرة التي سقطت مِن على الشجرة، هل يمكن ألا نسميها زهرة؟

أبعدت يدها عن الوردة ورفعت عينيها إلى السماء، كانت الشمس آيلة للغروب، أمعنت النظر في امتزاج ألوان الغروب الحارقة والدافئة ثم ذوبانها في عناق طويل يختبئ خلف ستارة سوداء؛ فنطقت ببهجة: إنَّني حقاً أرى!

أخذت نفساً عميقاً وشرعت ذراعيها في الهواء وقالت: أنا يمكنني أنْ أرى أعينهم مجدداً، أرى كلَّ تلك المشاعر التي كانت مخبئة لسنوات! يمكنني أخيراً أنْ أتحدث إليهم بكل أريحية حتى لو...

توقفت فجأة وهي تشعر بتلك الدمعة التي فرَّت هاربة سريعة مبللة وجنتها، فتابعت بصوت يختنق: حتى لو لم يفعلوا هم ذلك.

غطت وجهها ومسحت دموعها، ثم دارت حول نفسها وبدأت تراقص الخيال، فوجئت بـ(باتر) يلتقط يدها المعلَّقة في الهواء وهو يضحك ويسأل: ما الذي تفعلينه أماه؟

سرعان ما استكنت ملامحها وبزغت مِن شفتيها بسمة وهي تجيبه: كنتُ فقط أريد أنْ أقطف بعض الأزهار للمائدة.

-وترقصين!

ضحكت برقة، ثم اتجهت لإحدى الأزهار وقالت: إنني أشعر بالسعادة فقط!

أمسكت بإحدى زهور شقائق النعمان ثم قطفتها وهي تقول:

-(بارع).

-ما به؟ هل فعل لك شيئاً؟ أخبريني وسأؤدبه.

أمعنت النظر في شقائق النعمان ثم أجابت: يحبها كثيراً، ثم التفتت إليه ورفعتها أمام عينيه وقالت: أعني هذه.

*****

كان (بارع) يقف في حديقة المنزل؛ لاستقبالهم، ولج (حارث) و(رائد)، حياهما (بارع) ولكنّه لم ينظر في عيني (رائد) مباشرة وكأنه تعمَّد ذلك، ثم أشار إليهما بالتقدم للأمام؛ حيث كان (باتر) يقف عند بوابة المنزل.

تراجع (بارع) خلفهما، كانت عيناه تتبعان (رائدًا)، فغر شفتيه وأطبقهما عن لا شيء، أراد أنْ يوقفه، ولكن لماذا؟ وما الذي يريد قوله؟ لا شيء في خاطره، ومع هذا يريد أنْ يوقفه بشدة، تحركت شفتاه مناديتان بصوت خفيض: (رائد).

ورغم صخب (باتر) الذي شرع يحييهما، إلا أنَّه تمكن مِن سماع ندائه؛ فالتفت إليه مبتسماً وسأل: ماذا؟

توتَّر (بارع) ولم يستطع أنْ ينظر في عينيه؛ فأشاح برأسه وأجابه: جُرحك.

ابتسم (رائد) باستغراب وسأل: ما به؟!

رفع إليه عينين باردتين وسأل: كيف هو؟ هل أنت بخير؟

ابتسم (رائد) ببهجة وخفض رأسه للأرض وقال: حسناً، بشأن هذا...

رفع عينيه إليه وأتم: إنه يؤلمني كثيراً!

أشاح (بارع) بعينيه، فاقترب منه (رائد) وراح ينظر إلى ملامح وجهه وهو يبتسم ويقول: ظننتك ستعتذر عن السهم الذي أفزعتني به.

طرفه بعينيه ثم عاد لينظر إلى الجهة الأخرى ويجيب: لم يكن ليصيبك أبداً، ولكني اعتذر؛ لأنني استغللت وقوفك أمامي؛ لإخفاء نفسي وإلا لما نجح الأمر.

أومأ موافقاً وقال: لا بأس، أندخل الآن؟

أومأ موافقاً، وما إنْ وقفا أمام الباب وهمَّ (بارع) بدفعه حتى فُتح فجأةً وظهرت مِن خلفه (عروب) أولاً وخلفها (بيلسان)، وما إنْ وقعت عيناها

على (رائد) حتى ابتهجت وراحت تقول: أنت بخير الآن؟! كيف حال جرحك؟ لم أستطع أن أسألك حينما شاهدتك البارحة.

أومأ موافقاً ثم قال: شكراً لك! أنا بخير الآن.

بتذمُّر قالت: لقد كنتُ مصعوقة حقاً، لم أرك منذ زمن، وحينما رأيتك وجدتك غارقاً بالدماء! أنت حقاً لا تجيد إلا إقلاق مَن حولك، أتعلم بأنَّني حملتك؟

تدلى فكَّه بدهشة، ثم ابتسم بحرج وهو يعلق: أوه حقاً؟! أنا آسف بشأن هذا!

-لولا أنَّ ذلك الفتى ساعدني أيضاً لكنتُ ميتة من حملك.

-تعنين (إياد)؟

-نعم.

مال بعينيه ناحية (بيلسان) وعلى شفتيه ابتسامة محرجة، حيَّته بابتسامة وهي تشير إليه بالدخول، ثم ظهرت مِن خلفها فجأة طفلة صغيرة تلبس فستاناً أزرق اللون، وشعرها بني، وعيناها حادتان كعيني (بتّال)، شدت على ثوب (عروب) وهي تقول: أماه، مَن هؤلاء؟

حملتها (عروب) وهي تشير ناحية (رائد) وهي تقول: هذه ابنتي.

ابتسم بودٍّ محاولاً إخفاء دهشته، تنقَّل ببصره بين الصغيرة و(بيلسان)، ثم اقترب منها وهو يبتسم ويسأل: ما اسمك؟

أجابته: (بيلسان) الصغيرة.

أعاد بضحكة: الصغيرة!

أنزلتها (عروب) وهي تردّ: إنَّني أناديها هكذا.

اقترب منها (رائد) وراح يلاعبها، ابتسمت (بيلسان) ثم وقعت عيناها على (بارع) الذي كان يراقبها منذ أنْ فتحت الباب، ولكنه أشاح بوجهه بعيداً ولم

ينطق بأيِّ كلمة، غادرت (بيلسان) و(عروب) والصغيرة، بينما ولج (رائد) و(بارع) وأخذا مكانهما في المجلس.

تحدَّث (باتر) موجهًا حديثه لـ(رائد): أخبرني بتفصيل ما حدث، أعتقد أنَّ لديك تفاصيل مهمة.

أجاب (حارث): ولكننا لا نملك أيَّ دليل، هي مجرد شكوك.

قاطعه (باتر) بقوله: ولكن لحظة، ألم يأتِ (طاهر) و(سحـ....

توقف؛ إذ استوعب للتو وجود (رائد)، ولكنه نظر إليه متظاهراً بعدم الإكتراث وهو يردّ: لقد أخبرني (إياد) بأنَّ الوزير الأول لم يكن مقتنعاً بالصلح، أو أنَّه أبدا اعتراضه.

التفت إلى (حارث) وأتم: أهو الوزير الذي قابلته أول يوم؟

أجابه (حارث): نعم، وانشغلا بالحديث.

لم يكن (بارع) يسمع شيئًا مِن حوارهم منذ أنْ جلس، كانت عيناه مثبتتان على زهرة شقائق النعمان، وكانت ذاكرته ترتحل إلى الوراء في قصر العلالي في بغداد؛ حيث كان يجلس على حِجرها ويعبث بأصابع يديه، قطفت زهرة شقائق النعمان وقالت: أتعرف قصتها؟ لماذا سُمَّيت بشقيقة النعمان؟

اعتدل جالساً وسأل بشغف: أخبريني أماه؟!

-في قديم الزمان كان قائد عربي عظيم يسمى:(النعمان بن منذر)، يقال: إنَّه رفض تسليم النساء العربيات لملك الفرس؛ فقُتل تحت أقدام الفيلة، وقد نبتت هذه الزهرة على قبره لأول مرة؛ لذا أسماها الناس بـ: شقيقة النعمان.

-حقـــــــاً؟!

مسحت على رأسه وأتبعت: وأنا أظن أنَّها ترمز إلى كلِّ البدايات الجديدة؛ إذ يقال: إنَّ العرب انتصروا على الفرس بعد هذه الحادثة.

-أماه، مَن هم الفرس؟

وضعت الزهرة على يده وأتبعت: لا أعلم، ولكن لنتفق أنا وأنت في حال غضب أحدنا مِن الآخر، وكنوعٍ من الاعتذار وإشارة إلى البدايات الجديدة سنتبادل زهرة شقائق النعمان، ما رأيك؟

أومأ موافقاً بشغف.

مدَّ (بارع) أصابعه نحو المزهرية على الطاولة ولامس إحداهن وعبرت ذاكرته كثير وكثير مِن زهور شقائق النعمان التي تبادلاها معًا.

حينئذٍ كان (باتر) يسأل: أين هي (بيلسان)؟ و(عروب) ألم تأتِ؟

قاطعه (بارع) بسؤاله: مَن الذي وضع هذه الزهور على الطاولة؟

دارت أعناقهم نحوه فجأةً باستنكار.

ابتسم (باتر) وهو يجيبه: (بيلسان) وضعتها.

شردت عيناه للحظة، ثم نزع واحدة منها وخرج دون أنْ يقول شيئاً، مما أثار استغراب الجميع ما عدا (باترًا) الذي كان يبتسم بانشراح.

اندفع عابراً ممرات الدار باحثاً عنها، وجد (عروب) في طريقها متجهة نحو غرفة الضيوف؛ فسألها: هل رأيت (بيلسان)؟

-لقد عادت إلى غرفتها، وقالت: إنَّها ستلحقني.

- شكراً!

قالها وهو يستدير نحو طريق غرفتها، بينما ظلَّت (عروب) تنظر ناحيته بدهشة وهي تقول: هل شكرني للتو؟! أم أنَّني واهمة؟!

عبر ممرات الفناء المفتوح ولكنه توقف فجأة؛ إذ لمح فستانها الأبيض المطرز بخيوط الكتان الحمراء يزهو بجوار شقائق النعمان الحمراء، اقترب منها ثم توقف دون أنْ يقول شيئاً، تنبَّهت لوجوده؛ فاعتدلت بجسدها ونظرت

إليه متطلعة، ولكنه لم ينطق بشيء، وقعت عيناها على الوردة التي في يده؛ فنطقت متعجبة: هذه؟!

خفض عينيه للأرض، كان يشعر باضطرابٍ في أعماقه، مشاعر مختلطة ورغبات كثيرة، لا يعلم بأيٍّ منهما يبدأ؛ أما هي فتردَّدت للحظات قبل أنْ تقول: مِن الجيد رؤيتك الآن، لم أحظَ بفرصةٍ لسؤالك منذ خروجي، كنتُ أريد أنْ اسألك: هل أنت بخير؟

لقد أصاب السؤال قلبه بالاضطراب، شعر بأنَّ رؤيته أصبحت ضبابية، عضَّ شفته السفلى، وأغلق عينيه؛ ليمنع تلك الدموع مِن الانبثاق، أخذ نفساً عميقاً ثم رفع رأسه ورفع الزهرة وقرَّبها منها وهو يقول بصوت يهتز: أماه...

نظرت إلى الزهرة للحظة، ثم عرجت عيناها نحوه، وما إنْ التقت بعينيه حتى فاضت دموعهما معًا، اندفع إليها وسحبها؛ ليضمها تحت ذراعيه ويبكي على كتفها وهو يقول: أنا آسف أماه! آسف على كل ما فعلته بكِ! لم أكن أستحقُّ كل تلك المشاعر منك!

سالت دموعها نحو شفتيها، ورفعت يديها تربت عليه دون أنْ تنطق بشيء، بينما ظلَّ هو غارقاً في دموعه مُكرِّرًا: آسف أماه! أنا آسف.

كانت شقائق النعمان شاهدة على بدايتهما الجديدة.

*****

كان (طاهر) قد وصل برفقة (مارغريت) وانضما إلى الجميع، ومع أنَّ الكلَّ انشغلوا بتناول الطعام والحديث، إلا أنَّهم جميعاً كانوا يشعرون بمدى الثقل الذي يحطُّ فوق رأس (رائد) و(مارغريت)، حتى (طاهر) قد لاحظ هذا الجو المتوتِّر بينهما.

كان (رائد) يتحاشى النظر ناحيتها، بينما كانت هي تسترق النظر إليه مِن حينٍ لآخر. بعد أنْ أكل الجميع خرجت (مارغريت) برفقة (بيلسان) و(عروب).

كان حديثهم يدور عن الوزير (حاتم) و (آصف) بيدَ أنَّ (رائدًا) لم يكن يستمع جيداً لهم مع أنَّه كان يجيب بنعم ولا، ويحرِّك رأسه موافقاً. كان (حارث) يدرك في أعماقه أنَّه يشعر بالاختناق. وقف رائد فجأةً؛ فالتفت الجميع نحوه متسائلين، شعر بالحرج؛ فخفض رأسه وهو يعلل: سأذهب؛ لأتمشى في الحديقة قليلاً، أشعر بأنَّ رئتي متعبة وتحتاج إلى قليلٍ مِن الهواء الطلق، ثم غادر المكان سريعاً.

وقف حارث؛ ليتبعه، إلا أنَّ كفَّ (باتر) أوقفته وهو يشير له بالجلوس ويقول: دعه يجلس قليلاً وحده.

مشى (رائد) ببطءٍ في الحديقة، توقَّف عند حوض الماء وجلس، نظر حوله، كانت سِلال النباتات والزهور معلقة في كلِّ مكان، سرح في السماء قليلاً ولم يشعر بـ(عروب) التي تقدمت نحوه حتى فوجئ بها تقف أمامه، فنطق: (عروب)؟!

جلست إلى جواره وسألت: ما الذي تفعله هنا وحدك؟ لماذا تركتهم؟

ابتسم بارتباكٍ وهو يجيبها: لا شيء، فقط أردت أنْ أتنفس قليلاً.

كتَّفت ذراعيها ورجعت إلى الوراء قليلاً وهي تسأل: أتفكِّر بشأنها؟

بهت وجهه للحظة، ثم ابتسم بيأسٍ، ثم نظر إليها مباشرة وعبس وهو يجيب: لا يمكنني أنْ أكذب بشأن هذا.

تنهَّدت وهي تنتقل ببصرها حول السِّلال وتقول: لا يمكنك أساساً، إنَّ هذا واضح على وجهك.

ضم كفيه إلى بعضهما وسأل بتردُّد: ما الذي عليَّ أنْ أفعله إذن؟

باندفاعٍ ردَّت: اقتل طاهراً.

نظر إليها بدهشة؛ فارتبكت وضحكت ببلاهة وهي تردّ: كنتُ أمزح فقط.

رمقها باستغرابٍ؛ فأوضحت: لا تندهش هكذا، الحقيقة أنَّني لا أرتاح إليه فقط، إنَّه مِن الأشخاص اللطفاء مع الجميع والمبتسمين دوماً، ولكنَّ هؤلاء الأشخاص في الحقيقة...

هزَّت رأسها نافية وهي تتم: لا ولاءَ لهم لأحد.

أدار وجهه وهو يرفع أحد حاجبيه ويعلق: عجيب!

تنحنح صوتها وهي ترد: دعك مما قلته، أني أبالغ. ثم سألت: ما الذي تريده أنت حقاً؟ أفعل ما تريده.

وجم وجهه للحظة، ثم لان عن بسمةٍ يائسة وهو يرد: وكأنَّ الموضوع بهذه السهولة!

استندت إلى ذراعيها وظلا صامتين للحظات قبل أنْ تقول: أتساءل ما الذي حدث أثناء غيابك؟ يبدو أنَّك قد تغيرت كثيراً.

نظر إليها بدهشة فتابعت: (رائد) الذي أعرفه كان مجنوناً ولا يعرف المستحيل، لقد وعدني بالحرية وهو نفسه كان مقيداً، ومع ذلك فعل، ما الذي يحدث معك الآن؟ لماذا تعتقد أنَّ الموضوع صعب؟ ما الذي تريده بالضبط؟

ردَّ سريعاً وبانفعال: أنا أريدها!

خفض عينيه وأتبع: أنت تعرفين أنَّني أريدها، الجميع يعرف أنَّني أريدها، حتى هي تعرف أنَّني أريدها، ولكن....

تأثر صوته وهو يتم: لقد كانت محقة، أنا مجرَّدُ وهم في النهاية، سرعان ما سأعود وأختفي، أعتقد أنَّها فعلت الشيء الصحيح، مع أنِّي لا أريد أنْ ينتهي الأمر بيننا على هذا النحو المؤلم!

-أنت تكذب.

قاطعته بقولها هذا؛ فالتفت إليها مذهولاً، فتابعت: إذا كنتَ مجرد وهم، فلماذا عُدت إلى هنا؟ لقد دفعتك (سحاب) بساعة الزمن، وكان عليك أنْ ترضى بذلك، فلماذا عدت ؟

لُجم لسانه عن الرد، فتابعت: هل عدت؛ لتلعب دور الفارس النبيل الذي يتنازل عن رغباته مِن أجل أشياء وقيم لا معنى لها؟ أنا لا أرى معنى لتضحيتك هذه سوى أنَّها حمق وهزيمة. لماذا لا تقل بوضوح أنَّك خائفٌ مِن موقفها تجاهك، وخائفٌ مِن رفضها؟ كفاك تبريراً لنفسك، لقد أصبحت جباناً فحسب.

شخصت عيناه بدهشة ونطق: ما الذي...؟!

وقفت وهي تقول: عليك أنْ تكون صادقاً مع نفسك أولاً، وتعرف بالضبط ما الذي تريده حقاً، ثم استدارت مغادرة، أوقفها بقوله: توقفي.

توقفت دون أنْ تنظر إليه وباستجداءٍ نطق: إذن، ما الذي عليَّ فعله؟!

التفتت إليه وعلى شفتيها بسمةٌ جميلة وهي تجيبه: هل تسألني حقاً عن ذلك؟!

صمتت للحظات كانت خلالها تمعن النظر في عينيه الحائرتين والمتطلعتين ثم قالت: اخطفها كما خطفتها مِن قبل، أنت متمرِّسٌ في هذا.

شعر بريحٍ عصفت بقلبه؛ فأخرسته، تابعت وهي تستدير: صدقني، يبدو لي أنَّ هذا هو مصيرك، ثم غادرت المكان وظلَّ هو ينظر إليها يحاول أنْ يبتلع ما سمعه، بينما كانت (مارغريت) تقف خلف شجرة البيلسان واضعةً يدها على فمها محاولة إيقاف دموعها.

*****

بعد أنْ غادر الجميع وأوصل (طاهرٌ مارغريت) إلى منزلها، سلك طريقاً آخر عن بيته، وأثناء سيره عبرَ مِن جوار (إياد)؛ فتوقف (إياد) واشتعل

فضوله، ما الذي يفعله الطبيب في هذا الوقت المتأخر مِن الليل؟! إلى أين يتجه؟!

قرَّر أنْ يلحقه بحذر، وفوجئ به يسلك طريق منزل الوزير؛ فازدادت شكوكه واشتعل فضوله؛ فتابع اللحاق به ولم يتوقف حتى شاهده يدخل البيت.

ظلَّ ينتظره لنصف ساعة حتى خرج، شاهده يقف عند الباب إلى جانب الوزير يتحدثان، تمنى لو يستطيع أنْ يقترب أكثر؛ ليسمع حديثهما، ضغط على كفه وهو يحدث نفسه: اللعنة! لو أسمع فقط، ولكن مع ذلك حضوره إلى هنا بعد خروجه من منزل العلالي يثير الريبة! لا بُدَّ أنْ أخبر معلمي بذلك، وإلا لن أكون عرَّاف المدينة.

في تلك اللحظة كان الطبيب (طاهر) قد افترق عن الوزير، تبعه (إياد) بحذرٍ ولم يكن يعرف أنَّ الطبيب قد لاحظ أنَّ ثمة أحد يتبعه؛ لذا سلك طريقاً آخر غير طريق بيته؛ ليوقع به، ثار فضول (إياد) أكثر وظل يتبعه، ولكنَّ الطبيب توقف فجأة والتفت خلفه وبحركة سريعة لم تُمكِّن (إياد) مِن التحرك خطوة سحب سيفه واندفع نحوه، ولم يستوعب (إياد) إلا بعد أنْ شعر بالسيف يخترق بطنه، اعتدل (طاهر) ووقعت عيناه على وجه (إياد)، كانت إيماءاته مزيجاً مِن الصدمة والوجع، خفض عينيه ليرى الدماء وهي تتدفق مِن بطنه مُشكِّلةً بركة على الأرض، تحرَّكت شفتاه بصعوبة ناطقة: منذ متى تجيد...؟

ثم سقط على الأرض دون أيّ حراك.

الفصل الثامن: مزيدٌ مِن العبء

كلُّ أنواع المشاعر هي ثقلٌ على أصحابها.

استيقظ (رائد) مثقلاً برأس يكاد ينفجر مِن الصداع، وبصدر يؤلمه إثر الجرح، نزل مِن على سريره والتقط الدواء وابتلع منه، أخذ ينظر إلى نفسه في المرآة قليلاً، ثم انتبه إلى الضوء النافذ مِن خلف الستائر؛ فأسرع ناحيتها وأزاحها قليلاً؛ ليفاجئ بأنَّه قد نام حتى انتصف النهار!

لماذا لم يوقظني أحد حتى (مياسين)؟

اتجه ناحية الدولاب، أخرج له قميصاً ولبسه، ثم أسرع خارجاً. كان المنزل يبدو هادئاً، اتجه ناحية الفناء أولاً، وعلى عكس ما توقع لم يجد (حارثًا)، كانت (كادي) تجلس وحدها تشرب الشاي، وما إنْ رأته حتى قالت: هل استيقظت أخيراً؟

اقترب منها وهو يتلفت حوله ويسأل: أين (حارث)؟

-لقد خرج قبل قليل.

حرك الكرسي؛ ليجلس وهو يسأل: ولماذا لم ينتظرني؟

صبَّت الشاي في كأسٍ وقربته له وهي تقول: لا أعلم، لقد كان مستعجلاً، لقد جاءه أحدُ الجنود مِن القصر وأخبره بأنَّهم قد وجدوا آثار دماءٍ كثيرة على طريق المستشفى، ولكنهم لم يجدوا أيَّ جثةٍ ولم يصل أيُّ مصاب.

امتقع وجهه ورفع الكأس نحو فمه وهو يسأل: ولكن، أليس هذا مِن مهام الشرطة عادة؟

قربت منه قطعة حلوى وهي تقول: نعم، ولكن ما جعل الحرس الخاص يتحرك أنَّها قريبة مِن المستشفى الملكي، تعرف أنَّ طريق المستشفى والقصر واحد.

أفرغ ما بقي مِن الكأس في جوفه ثم وقف وهو يلتقط قطعة الحلوى ويقول: سألحقه الآن، ثم انطلق سريعاً بينما رفعت صوتها قائلة: انتبه لنفسك، ولا تنسَ أنْ تبدِّل اللفائف في المستشفى.

اتجه نحو غرفته؛ ليلبس زيه العسكري ولكنه لم يجده؛ لذا خرج بحثاً عن (مياسين)، شاهدته (كادي) وهو يعبر الفناء مرة أخرى؛ إذ اتجه إلى غرفة الغسيل بحثاً عن (مياسين)، كانت كما توقع منهمكة في غسل الملابس، لدرجة لم تشعر معها بوقوفه أمام الباب، حتى تقدم ووقف خلفها وسأل: (مياسين).

انتفضت بوجلٍ والتفتت إليه، وبدا له مِن خلفها جزءٌ مِن القميص الذي كانت تغسله، ولاحظ سريعاً بقع الدماء عليه، ما إنْ أدركت أنَّ عينيه تنظران إلى القميص حتى أخفته خلفها بتوتُّرٍ وهي تجيب: نعم، ماذا تريد؟!

ومع أنَّ الدماء قد أثارت ريبته إلا أنَّه حاول أنْ يتظاهر بأنَّه لم ينتبه إلى شيء وسأل: لقد كنتُ أبحث عن لباسي العسكري أين هو؟

قذفت القميص بالوعاء الممتلئ بالماء والصابون خلفها، وهي تجيبه بتوتر: كان عليك أنْ تناديني وحسب، ما كان عليك أنْ تتعب نفسك بالمجيء إلى هنا.

وقفت وسبقته إلى الخارج وهي تتبع: لقد وضعته لك في غرفتك، ألم تشاهده؟

هزَّ رأسه نافياً وهو يتبعها وثمة إحساس بالفضول يشده؛ لأن ينظر إلى الوعاء، ولكن وقوفها بانتظاره حال دون ذلك.

ناولته الزيَّ بعد أنْ أخرجته مِن أحد الدواليب، أخذه وهو يرد: شكراً! مع أنَّني أخبرتك أنني سأخدم نفسي، إلا أنَّني عجزت عن العثور عليه.

لبسه وشرع في غلق أزراره، ثم انتبه إليها وهي تنظر ناحيته باستغراب، وبدا واضحاً بأنَّها تخفي حديثاً في صدرها، توقف عن غلق الزر وسأل: ماذا؟ أتودين قول شيء ما؟

هزَّت رأسها بارتباك وهي ترد: أبداً!

ثم أشاحت بوجهها وسألت: لماذا تُصرُّ على ذلك؟

نظر إليها بتطلع فأوضحت: أعني، لماذا تُصرُّ على خدمة نفسك وترفض خدمتي؟

تابع غلق الزر وهو يجيب: كل ما في الأمر أنّني اعتدت على فعل هذا، كنتُ أعيش وحيداً لفترة طويلة، ثم لدي يدان وساقان؛ لذا لا أحب أنْ يقوم أحد بخدمتي.

-الناس هنا يفعلون ذلك مِن قبيل الترف.

نظر إليها بتطلع فهذه أول مرة تفصح عما بداخلها فتابعت: الأغنياء يتباهون بذلك، ولكن في النهاية حتى لو كنتُ أكره هذا الشيء، أعتقد بأنَّ ترفهم هذا مِن الجيد لأمثالي.

أدركت بأنها قد استرسلت بالحديث أكثر مما يجب؛ فارتبكت وهي تستدير مغادرة وتقول: آسفة! لقد تحدث كثيراً، ثم غادرت سريعاً؛ أما هو فقد ظلَّ ينظر إليها ولأول مرة يحس بشعور النقمة الذي يُغرق أعماقها، بدا مِن الواضح الآن بأنَّ أعماقها ثائرة عكس ما تبديه نظراتها الباردة، بعد ذلك تابع لبس زيه ولحق بـ(حارث).

كان الطريق في حالة فوضى والجنود وأفراد الشرطة يطوِّقون المكان الذي وجدت فيه الدماء، والبحث والتحقيق يأخذان مجراهما. تقدم (رائد) وطلب أنْ يُفسح له؛ ليعاين المكان، أخذ يحدِّق في بقعة الدماء التي كانت تشكِّل بركةً ثم تمتدُّ بخطٍّ متقطِّع طوال الطريق حتى تتوقف فجأة.

أثار ذلك فضوله وحيرته، ثم تابع طريقة ليقابل (حارثًا) و(باترًا)، وما إنْ شاهده (باتر) حتى سأل: كيف حال جرحك اليوم؟

-أفضل بكثير.

تلفت حوله وكأنه يبحث عن أحدٍ ما، ثم نظر إلى (حارث) وقال: صحيح (ليو)، لقد عاينتُ موضع الجريمة، نظر (باتر) نحوه باهتمام فتابع: يبدو لي أنَّ القاتل قد حمله على ظهره ثم مشى به لمسافة، ثم توقف وربما أوقف نزفه وحمله بين ذراعيه.

علق (باتر): ولكن لم يصل الشرطة حتى هذا الوقت أيُّ بلاغ عن فقدان أحدهم، ربما يكون قد دُفن أو أُخفيت جثته.

تلفت (رائد) حوله وهو يسأل: أين (إياد)؟ ألم يصل بعد؟

أجابه (حارث): كلا، لم أشاهده.

-غريب! لقد كان ينتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر.

غمرت الريبةُ والقلق ملامح (حارث) للحظة، وبدا أنَّ القلق ذاته قد ساور (رائدًا) أيضاً؛ لذا علق (حارث): سأبعث أحداً إلى بيته.

-جيد.

ضرب على كتفه وقال: اذهب الآن؛ لمتابعة علاجك.

أبعد كفه وهو يقول: ولكن ماذا عن التدريبات اليوم؟

-سنقوم بها، ولكن اذهب لعلاجك أولاً.

ابتسم ببلاهة وهو يجيبه: أفضِّل أنْ نقوم بالتدريبات أولاً.

دفعه (حارث) مِن كتفيه وهو يقول: لا تدريبات حتى تتعافى تماماً.

توقف (رائد) عن مقاومته وهو يجيب بتذمر: حسناً، فهمت! فهمت!

ثم أدى التحية العسكرية لـ(حارث) فكتم الأخير ضحكته بينما اتجه (رائد) نحو الطريق المعاكس.

أوقفه (حارث) بقوله: أنت.

أشار إلى الجهة الأخرى وهو يتبع: الطريق في الجهة الأخرى.

ببلاهةٍ هزَّ رأسه وسلك الطريق الآخر بينما ظلَّ (حارث) و(باتر) ينظران ناحيته وهما يبتسمان شفقة عليه، وأثناء تقدمه شاهد الوزير(حاتم) وبرفقته

(آصف) وهما يسيران في طريقه، تابع سيره وما إنْ أصبح أمامهما حتى توقف؛ فتوقفا هما أيضًا، ألقى عليه الوزير نظرة سريعة ثم علق: ألست أنت الشاب الذي رأيته ذلك اليوم في السوق؟

ابتسم (رائد) ابتسامة فاترة وهو ينحني له قليلاً ويقول: نعم سيدي الوزير، أنا هو.

هزَّ رأسه وهو يكاد يلتقمه بنظراته وهو يعلق: مَن كان يظن لحظتها بأنَّك تملك من الحظ ما يجعلك تتمكَّن مِن إسقاط خطة المغرضين وإنقاذ العروس؟

-وسنمسك بالمغرضين أيضاً.

جاء هذا الصوت مِن خلف (رائد)؛ فالتفت ناحيته بدهشة، كان (بارع) يسدِّدُ نظراتٍ حادة إلى الوزير و(آصف) وأتبع: تماماً مثلما أحبطنا مخططهم بداية.

ندت مِن شفتي (حاتم) بسمة هازئة وهو يسدِّد إليه النظرات ذاتها ويرد: بالطبع، أتطلَّع لذلك، ويسرني أنْ أمدَّ يدَ العون لكما، فهؤلاء الذين لا يريدون السلام أعداؤنا.

تبادلا ابتسامة يدرك كل منهما المشاعر المخبئة تحتها، ثم تابع الوزير طريقه ولحقه (آصف) بعد أنْ رمق (رائدًا) بنظرات متفحِّصة، كان (رائد) ينظر نحوهما وهما يغادران، ثم التفت إلى (بارع)؛ ليشكره، ولكنه فوجئ به وقد استدار مغادراً متجهاً إلى الساحة الكبيرة، ابتسم وهو يحدث قلبه: تباً! لم يمنحني فرصةً؛ لأشكره.

*****

دخل (رائد) المستشفى بخطواتٍ خفيفة أشبه ما تكون بخطوات متسلِّل، كان يسلك جانب الممرات، ويختبئ خلف كلِّ جدار يقابله، ويراقب بعينيه انشغال الجميع مِن حوله، شاهد إحدى الممرضات وهي تقترب منه وما إنْ عبرت مِن جواره حتى رمقته باستنكار؛ فاعتدل وهو يعلق بأعماقه: إنَّني أثير الريبة فعلاً، لماذا أتصرف وكأنَّني متسلل؟

وضع يده على قلبه وهو يتم: اجمع مشاعرك يا (رائد) واهدأ بإمكانك أنْ تفعلها، تصرَّف تصرُّفًا طبيعيًا وحسب.

-ما الذي تفعله باختبائك خلف الزاوية هنا؟

التفت بفزعٍ خلفه وإذ بـ(مارغريت) تقف وترمقه باستغراب، أمسك بالجدار وكأنه يتشبث به؛ فازداد استنكارها، شعر بذلك، فخفض يديه بحرج واعتدل وهو يبرر: في الواقع، كنتُ.. كنتُ أبحث عن..

قاطعته وهي تسبقه: جئتَ؛ لتغير ضمادك وتتلقى علاجك، اتبعني.

تبعها وهو يعترض: ولكن ألستِ مشغولة؟ أعتقد أنَّ بإمكان أحد غيرك أن ..

قاطعته مجدداً وهي تشير نحو أحد الأبواب: يجب أنْ أعاين الجرح، الأمر ليس مجرد تغير ضماد، لم تصل إلى هذه المرحلة بعد.

خفض رأسه بحرجٍ ثم دخل، تبعته وأغلقت الباب خلفها، كان (طاهر) قد شاهدها وهي تدخل الغرفة برفقته.

جلس على الكرسي بينما شرعت ترتب الأدوات التي تحتاجها بصمت، كان يراقبها وهو يفكُّ أزرار قميصه، وما إنْ انتهى حتى اقتربت منه وهي تسأل: أخبرني، هل يؤلمك كثيراً؟

أشاح بعينيه وهو يجيبها: قليلاً، ولكن أعتقد أنَّ الدواء الذي أعطيتني إياه جيد حقاً.

قربت الكرسيَّ وجلست عليه وهي تعلق: جيد، ثم شرعت بفك اللفائف، ثم وقفت ومالت عليه تعاين الجرح، أشاح بوجهه ولكنّه مع ذلك كان يراقب إيماءاتها المضطربة بطرف عينه، التقطت بعض المراهم ثم وضعتها على موضع الجرح، ثم توقفت فجأة وقالت: ألم أخبرك أنْ تتوقف عن النظر إلي هكذا؟

نظر إليها بدهشة وهو يجيب: ولكني لم أكن..

اعتدلت وهي تلتقط اللفافة وقد ندت مِن شفتيها بسمة ودودة وهي تقاطعه قائلة: أم أنَّك تبحث عن النمش في وجهي كعادتك؟

فوجِئ مِن بسمتها تلك وحديثها معه بهذه الطريقة، ومع ذلك كان وقع الكلمة ثقيلاً على قلبه، لدرجة شعرَ معها بالفقد الذي دفع بعينيه أنْ تدمعا فجأة، هرب بوجهه وهو يردُّ بارتباك: لم يعد موجوداً على أية حال، لقد صفا وجهك عن قبل.

غمرها الاضطراب؛ فابتسمت بمرارة، ثم انحنت نحوه وشرعت بلف الشاش، وما إنْ انتهت حتى قالت: صحيح، فكلانا قد تغيَّر شيء فيه.

حرَّك رأسه ناحيتها ببطء والتقت عيناهما في لحظات صامتة، إلا أنَّ أعماقهما كانتا ثائرتين بمشاعر شتى، ولم يتوقفا إلا حينما أخرج صوتاً ينم عن الفهم؛ فأدارت رأسها وربطت الشاش وهي تقول: لقد انتهيت، ومع ذلك...

رفعت يدها ببطء واعتدلت وهي تقول: أنا...

مالت بعينيها للأسفل نحوه ورفع هو رأسه ينظر إليها باهتمام، فغرت فمها ثم أطبقته وأشاحت برأسها وهي تقول بارتباك: لا عليك، ولكن أخبرني كيف حدثت إصابة فخذك هذه؟

عبس وهو يشيح بوجهه ويجيب: بحادث سيارة، ثم أتبع بكلمات كان مِن الواضح أنَّه يوجه اللوم لها مِن خلالها: أتعلمين، لقد دأبت على رفع عيني إلى السماء بحثاً عن شيء ما، ولم انتبه على طريقي!

ظلت واجمة للحظات؛ إذ فهمت ما يرمي إليه ولكنها لم تستطع أنْ تعلق بشيء؛ فالتقطت سماعتها عن الطاولة واتجهت سريعاً نحو الباب وما إنْ همت بفتحه حتى فوجئت به يُفتح ويظهر مِن خلفه (طاهر)، تجمَّدت في مكانها للحظة وهي تنظر نحوه بدهشة؛ أما (رائد) فلم يشعر بوجوده؛ إذ كان ما يزال جالساً على الكرسي مديراً ظهره للباب، إلا حينما تحدث وهو يدفع بـ(مارغريت)؛ لتوسع له ويقول: لماذا لم تخبريني بأنَّ (رائدًا) هنا، يجب أنْ أعاين مريضي، كيف هو حال الخياطة؟

أجابته (مارغريت) بتوتر: جيدة.

مدَّ يده يصافح (رائدًا) وهو يقول: بما أنَّك مازلت مريضي فيجب علي أنْ أعاينك أيضاً.

صافحه (رائد) ثم وضع يده مكان الجرح وهو يقول: ولكن سحـ.... أعني الطبيبة (سحاب) قامت بذلك للتو.

انحنى نحوه وهو يهم بفتح الضمادات ويقول: أعلم، ولكن أريد أنْ أعاينك أيضاً.

شرع بفتحها ثم نظر إلى (مارغريت) وقال: معذرة! حضري لي غيرها.

أومأت موافقة وشرعت بتحضير غيرها، بينما انحنى وهو يعاين الجرح، لمسه بأطراف أصابعه وأحدث له وجعاً جعل ملامحه تنكمش، لم يرتح (رائد) لتلك الابتسامة الغريبة التي برزت على شفتيه الضيقتين، استنكر أيضاً ضربات قلبه المتسارعة وهو يحدِّق في عينيه؛ إذ خلقت في أعماقه شعوراً بعدم الاطمئنان، أعطته (مارغريت) اللفائف؛ فشرع بلفها وما إنْ همَّ بربطها، حتى رفع (رائد) عينيه نحو يديه، وأخذ يحدِّق فيهما بعمق وريبة، أهذه يد جراح؟ لماذا أشعر بأنَّها أيضاً يدُ سياف بارع؟!

ولوهلةٍ بسيطة بدا جزء مِن ذراعه كاشفاً عن أطراف وشم رأس العنقاء!

تجمدت عينا (رائد) وبردت أطرافه، بينما اعتدل (طاهر) وهو يبتسم ويقول: أنت بخيرٍ الآن، أعتقد أنَّه منذ الآن يمكنك أنْ تبدِّل اللفائف بنفسك، ثم نظر إلى (مارغريت) بنظرة أربكتها وهو يقول: أليس كذلك؟

هزت رأسها موافقة، ثم غادرت الغرفة سريعاً؛ أما هو فقد عاد لينظر إلى (رائد) ويقول: عليك ألا ترهق نفسك، ثم غادر الغرفة وقد ازدادت ريبة (رائد) تجاهه، ابتلع ريقه وهو ينظر ناحية الباب بوجلٍ ويقول: لماذا يحمل ذلك الشعار على يده؟! ولماذا أشعر بأنَّه تعمَّد أنْ يريني إياه؟! هل أنا واهم؟

ما الذي يعنيه هذا الشعار أصلاً؟ ولماذا شعرت بالخوف منه؟

في تلك اللحظة كان (حارث) قد اقتحم عليه الغرفة بوجهٍ مرعوب وهو يقول: أنت هنا (رائد)؟!

وقف يسأله: ماذا؟ لماذا وجهك مرعوب هكذا؟!

قطب حاجبيه ونطق: (إياد... إياد) لم يعد إلى بيته منذ البارحة.

*****

كانت أميرة (بيين) الأميرة (جوان) تجلس أمام المرآة وفوق رأسها كانت تقف (زهرة) تسرح لها شعرها وهي تصبُّ على رأسها سيلًا مِن المدائح، ولكن الأميرة كان بالها مشغولاً؛ إذ كانت تفكر بما حدث وبموقف زوجها (شهاب)، لقد بدا لها موقفه متساهلاً، الأمر الذي أثار حنقها تجاهه.

لم يخفَ ذلك على زهرة، كانت تقرأ هذه الكلمات في عينيها وتلمح ذلك القلق؛ لذا سألت بذكاء: ما بال سيدتي الجميلة شاردة الذهن هكذا؟

تنهدت ثم طرفتها بعينها للحظة ثم عادت لتنظر إلى نفسها في المرآة وسألت: منذ متى يا (زهرة) وأنت تعملين هنا؟

-منذ سنوات يا سيدتي، لقد أخبرتك بأنَّه يمكنك أنْ تسأليني عن أيِّ شيء، إنَّني أحفظ بلاط هذا القصر.

بتذمُّرٍ قاطعتها: لا يعنيني البلاط، ولكن...

انحنت ناحيتها وقد التمعت في عينيها نظرات خبث وهي تقول: إذاً، يمكنني أنْ أخمن بأنَّ سيدتي الجميلة تريد أنْ تعرف المزيد عن سيدي الأمير (شهاب).

نظرت في عينيها؛ فاعتدلت وتابعت تسريح شعرها وهي تقول: ما الذي يمكنني أنْ أخبرك به، إنَّه أطيب أمير قابلته في حياتي؛ بل إنَّه صاحب قلب أبيض أكثر مِن أي مخلوق، إنَّه يحب الجميع والجميع يحبه ولكن ...

صمتت متظاهرة بالارتباك، فسألتها: ولكن ماذا؟

أظهرت إيماءات متوترة وهي تجيبها: اغفري لي ما كنت أنوي قوله سيدتي! فأنا لا شأنَ لي بذلك.

لم يرق للأميرة موقفها وكادت أنْ تفقد هدوءها؛ لذا رمقتها بحدة وهي تقول: قلتُ لك تحدثي! قولي ما الذي كنتِ تودِّين قوله؟!

توقفت عن تسريح شعرها، وجثت على ركبتيها أمامها وضمَّت يديها وهي تلوم نفسها في مشهدٍ درامي تتقنه: أوه يا سيدتي! قاتل الله هذا اللسان الذي لا يصمت، كيف زلَّت مِن فمي؟ اعذريني يا سيدتي! فليس مِن شأن خادمةٍ متواضعة مثلي أنْ تتدخَّل في ذلك لولا ثقتي بك وحبي لهذه البلاد العظيمة، إنَّ سيدي طيِّب، ولكن هذه هي نقطة ضعفه، إنَّني أرى الجميع يقوم باستغلال طيبته. لقد رأيتِ كيف لم يشك ولا لحظة في قائد الحرس، مع أنَّه لو سأل نفسه فما المانع مِن ذلك؟ أليس مِن الطبيعة البشرية أنْ تطمع في المناصب؟ فما الذي لا يجعله يفكر ويقوم باستغلال ذلك؛ لتلميع اسمه ونيل منصب؟

كانت الأميرة تدركُ في أعماقها أنَّ هذا مشهد درامي لا أكثر، ومع ذلك تظاهرت بالتأثُّر والتصديق، لتستحثَّها على إخراج مكنونها، فتابعت (زهرة) تقول: أعلم يا سيدتي، ربما تقولين لو كان ذلك صحيحاً فلمَ يوقفه شقيقه الصغير؟ الحقيقة لقد فكرتُ في ذلك كثيراً ولكن بدا لي الأمر بديهياً فهو ليس على وفاقٍ معه.

نظرت إلى عينيها، لم تكن تبدي أيَّ تعبيرٍ؛ لذا تابعت: وتعلمين يا سيدتي، إنَّ القائد (باترًا) هذا يدخلُ ويخرجُ على الأمير متى أراد ومتى شاء، لقد وصلت معه الوقاحة إلى درجةٍ جعلته يقتحم مجلسه لأكثر مِن مرة، تصوري!

وقفت الأميرة متظاهرةً بالغضب وهي تسأل: هل أنتِ واثقة مما تقولينه؟!

أجابتها: كل الثقة يا سيدتي، ثم أتبعت تقول: يا سيدتي إنَّ جميع مَن في القصر يدرك ويعلم مدى سيطرة البغداديين المتمثلة بأبناء العلالي على القصر؛ بل إنَّ سيدي الطيب لا يصدر أمراً إلا بعد استشارة أبناء العلالي، أتصدقين يا سيدتي أنَّه قد طلب مِن الأمير إيقاف مشروع خط القدس الذي

كان سيمنح (بيين) امتيازاتٍ خاصة وحريةً أكبر بالتدخُّل في القدس؟ ولكن (باترًا) أراد أنْ يخفض هذه القوى، إنَّه ماكرٌ بحق.

ضربت على فمها بتتابع ثم قالت: أوه، يا إلهي! ما الذي أقوله؟! اغفري لي يا سيدتي! لولا أنَّني أرى في ذلك مصلحتك لما تحدثت.

أخذتْ (جوان) نفساً عميقاً ثم عادت لتجلس على كرسيها وهي تقول: انهضي الآن، وحدثيني بجميع ما تعرفينه عن (باتر) وعائلة العلالي.

رفعت رأسها وهي تبتسم بامتنانٍ وتقول: سأفعل يا سيدتي، ما ألطف روحك وسعة كرمك!

*****

انتشر أعضاءُ الشرطة في كلِّ مكانٍ بحثاً عن أثرٍ للشاب (إياد)، وكذا فعل (باتر)؛ إذ حرَّك الحرس الخاص بحثاً عن أيِّ خيط؛ أما (حارث) و(رائد) فقضيا النهار بطولهِ وهما يبحثان عنه، بحثوا في أكثر الأماكن التي كان يتوجه إليها ولكن دون جدوى.

إنْ كان قد قُتل فمِن السهل إخفاء الجثة، ولكن إنْ كان حياً فمِن الضروري أنْ يكون له أثر، ولا بُدَّ بأنَّه يعالج جرحه، ولكن أين؟

كانت ملامحُ القلق والخوف والرعب والندم تجتمعُ في عيني (حارثٍ)، أدرك (رائد) ذلك، كانت الشمس حينها قد آيلت للغروب، وكانا يقفان في منتصف السوق، اقترب منه (رائد) وهو يقول: (ليو)، توقف عن لوم نفسك هكذا، صدقني أنا أشعر بأنَّه حيٌّ، وسنجده بإذن الله.

باندفاعٍ ردَّ عليه وكأنَّه كان ينتظر أيَّ فرصةٍ؛ لينفِّس فيها عن غضبه: إنْ كان كما تقول، فلمَ لمْ نعثر له على أية أثر؟!

إنْ كان مصاباً حقاً، فأثر الدماء يدلُّ على أنَّ الإصابة قاتلة، إنْ كان حياً فلماذا اختفى؟

شعر باهتزاز صوته؛ فأشاح بوجهه وهو يعضُّ على شفتيه ويتم: الأحمق! لقد أبعدته لأكثر مِن مرة خوفاً عليه، أعلمُ أنَّه موهوب وشجاع ولكنَّ فضوله قاتل، أنا أشعر بالذنب حياله.

خفض (رائد) نظره للأرض فلم يعد يدري ما يقول، وكيف يواسيه ويطمئنه وهو لا يملك أيضًا شيئاً سوى القلق والندم.

أخذَ نفساً عميقاً ثم قال: لنعد الآن، لا شكَّ أنَّ (كادي) قلقةٌ عليك.

استدار (حارث) وسلك طريقاً آخر، حاول (رائد) أنْ يوقفه لكنه لم يستمع له، فلم يجد بُدًّا مِن اللحاق به، لقد كان يتجه إلى منزل العلالي، كان (باتر) قد وصل للتو إلى المنزل، ووجد (حارثًا) و(رائدًا) بانتظاره أمام الباب، نزل مِن على خيله وهو يسأل: إلى أين وصلتما؟

حرَّك (حارث) رأسه بأسىً؛ ففهم، فتح الباب وهو يقول: تفضلا.

اعتذر (حارث) بلطف وهو يرد: لم نأتِ لذلك، لقد جئت لأعرضَ عليك أنْ توسِّعَ أماكن البحث إلى خارج الأسوار، أطلب مِن الأمير أنْ يأذن لي بذلك.

وجم وجه (باتر) للحظة، ثم أطبق شفتيه بتوتُّرٍ وهرب بعينيه وهو يقول: أخشى أنْ يكون يا حارث قد ...

-لم يمت.

جاء الصوتُ مِن خلف الأبواب، دارت أعناقهم جميعاً نحوه؛ وإذ بـ(بارع) يظهر مِن خلفها وهو يتبع: ذلك العرَّاف لم يمت أنا واثق.

اقترب (حارث) منه وهو يسأل باهتمام: كيف لك أنْ تكون واثقاً هكذا؟!

أومأ مؤكِّداً، ثم دارت عيناه بين (حارثٍ) و(رائد) وأجاب: لقد تتبعت أثرَ الدماء، وحينما انقطعت لاحظتُ شيئاً على الأرض.

بلهفةٍ سأل (حارث): وما الذي لاحظته؟!

أدخل يده في جيبه وأخرج منه شيئاً، رفعه أمامهم وهو يقول: قشور اللب، (إياد)، ألم يكن مدمناً على تناول اللب؟

شخصت عينا (حارث) بينما علَّق (رائد): هذا صحيح (ليو)، في اليوم الذي جاء فيه إلى المستشفى لاحظتُ قشورَ اللبِّ التي سقطت مِن جيبه.

لانت ملامح (حارث) بعد أنْ ملأها الأمل وهو يهز رأسه موافقاً ويقول: نعم، إنَّه لا يكفُّ عن عادة جمع القشور في جيبه، لقد شاهدت ذلك مراراً.

اقترب (باتر) وسأل: وأين وصلت في تتبعها؟

-للأسف، يبدو أنَّها قد نفدت منه، ولكني تبعتها لمسافةٍ طويلة كانت تتجه شرقاً، ألا يعني هذا أنَّه كان يشعر بما حوله رغم إصابته؟ وأنت تعرف أنَّ الغابة الشرقية تقع هناك وهي مليئة بالكهوف وأماكن الاختباء، ولكن....

قاطعه (رائد): لكن ما الغاية مِن إخفائه؟ هذا هو السؤال؟ ما الذي يملكه (إياد)؟

نظر إلى (حارثٍ) منتظراً الجواب، لكن (حارثًا) حار هو الآخر، وانحدر الجميع في صمتٍ للحظات يفكرون، تحدث بعدها (باتر) قائلًا: اسمعوا، لا بأس، غداً سأطلب مِن (شهاب) الأذن لي بتفتيش تلك المنطقة.

وفي الصباح اتجه (باتر) سريعاً نحو القاعة الملكية؛ للقاء (شهاب)، ولكنه فوجئ بإيقافه من قبل الحرس، رمقهم بحدة وهو يقول: ألن تكفوا عن ذلك؟! أريد أنْ أقابلَ (شهابًا) حالاً.

ارتبكت أعينهم وبدا الخوف عليهم وأخذوا يتبادلون النظرات ثم قال أحدهم: ولكن سيدي في اجتماع الآن مع الوزير (حاتم) وغير مسموح لأحد.

دفع بيده وهو يرد: ابتعد عني، وإنْ يكن.

ولكنه توقف فجأة؛ إذ سمع صوتاً مِن خلفه يقول: أنا أمرتهم بذلك.

التفت وإذ به يشاهد الأميرة (جوان) مع حاشيتها وعينيها لا تخفيا علامات التحدي.

استنكر مِن ذلك وحار، وثارت أعماقه، ولكنه حاول كتم ذلك، حياها باحترام وقال: سيدتي الأميرة (جوان)، اغفري لي تسرعي! ولكني أردتُ الأمير بأمرٍ عاجل.

رمقته بحدة وهي ترد: إنَّ الأمير مشغول الآن في مشروع هام، ولا أريد لأحدٍ أنْ يشوِّش عليه تركيزه، ثم تقدمت وما إنْ أصبحت بجواره حتى وقفت وقالت دون أنْ تنظر إليه: إنَّه يدرس مشروع خط القدس الجديد مرة أخرى.

التفت إليها باستغرابٍ، ولكنها تابعت طريقها دون أنْ تلتفت إليه.

ظل ينظر نحوها بدهشة وفي أعماقه ألف سؤال، كزَّ على أسنانه وهو ينطق: أنا حقاً لستُ متفرغاً لتتخذني هذه عدواً لها!

*****

كان (باتر) يقف في الساحة المطلة على المستشفى؛ لينقل لـ(حارث) و(رائد) الأمرَ بالسماح لهما بتوسيع نطاق البحث، لم يكن (رائد) يعلم حينئذٍ أنَّ (مارغريت) كانت تقف بجوار أحد الأعمدة تراقبهم مِن بعيد، تجمَّدت في مكانها بعدما رأت عنقاً قد مال نحوها؛ لينظر إلى ما تنظر إليه وهو يسأل: ما الذي تنظرين إليه (سحاب)؟

التفتت إليه بفزعٍ وهي تقول: أنت؟!

أبعدها مِن كتفها وراح ينظر إليهم للحظة ثم علق: أليس هذا (رائدًا)؟ ألا تعتقدين أنَّ أمرَ هذا الشاب يثير الريبة؟

هربت بعينيها وأجابت باستخفاف: أيُّ ريبة؟!

رفع حاجبيه بتحامقٍ وأجاب: ألم تشاهدي كيف أصبح الدرع الأيمن لـ(حارث)؟! ثم إنَّه يتحدث مع قائد الحرس وكأنَّه صديقه مع أنه ظهر فجأة!

عبست وهي ترد: وما الغريب في ذلك؟ إنَّه صديقهما منذ مدة.

مال بوجهه نحوها وكأنه يحاصرها، ظلَّ ينظر إلى عينيها الواجمتين للحظة ثم قال: وصديقك أيضاً ألستُ محقاً؟ لقد كان واضحاً هذا على ملامحك حينما جاء مصاباً. أتساءل مَن يكون حقاً؟

أشاحت رأسها وابتعدت خطوةً عنه ثم حركت شفتيها بتردُّدٍ ونطقت: نعم، هذا صحيح، إنَّني أعرفه مِن قبل.

اقترب منها وهو يرد: وليست مجرد معرفة.

شعرتْ بأعماقها ترتجف، لقد بدا لها موقفه هذا أشبه بالتحقيق، أمسكت بكفِّها ولامست الخاتم في إصبعها ثم نظرت إلى عينيه بثباتٍ وأجابت: نعم، أنت محقٌّ تماماً، لم تكن مجرد معرفة أو ...

تردَّدت للحظة ثم أتبعت: حتى صداقة...

اهتزَّت شفتاها بخفة وهي تتم: لقد كان خطيبي السابق.

الحقيقة أنَّه كان مدركاً أنَّ بينهما مشاعر قوية يجهلها، لكنّه لم يكن يتصوَّر أنْ تكون إلى هذا الحد؛ لذا رفع حاجبيه مندهشاً، اقترب منها خطوة فقالت بحدَّة: لماذا أنت مندهشٌ هكذا؟! لقد أخبرتك مِن قبل أنَّني كنتُ على وشك الزواج بالفعل.

فغر فمه عن صوتٍ ينمُّ عن الفهم وأتبع: صحيح، لقد قلتِ ذلك.

أومأت موافقة وهي تقول: هل هناك سؤال آخر؟ سأعود الآن، ثم عبرت مِن جواره بثقل، وما إنْ ابتعدت عنه حتى توقفت خلف أحد الأعمدة وهي تشعر بأنَّ قلبها يرتجف بشدة.

*****

كان (رائد) قد انفصل عن (حارث) إذ طلبه (باتر)؛ لذا أخبره بأنَّه سيلحقُ به مع الفرقة بعد أنْ ينتهي مِن لقائه. اتجه (رائد) نحو الإسطبلات؛ ليأخذ له خيلاً، وحينما أراد أنْ يصعد

فوجئ بـ(بارع) يقف خلفه ويقول: إلى أين ستذهب وحدك؟

-إلى المنطقة الشرقية، سأسبق (ليو).

- وهل تعرف أين هي؟

فوجئ (رائد) للحظة؛ إذ أدرك للتو أنَّه بالفعل لا يعرف المكان؛ فابتسم بسخرية وأجاب: أنت محقٌّ، ولكن سأسأل عنها على أية حال.

اقترب (بارع) مِن أحد الخيول ووضع ساقه على السرج وهو يقول: لن تحتاج لذلك، سأرشدك أنا، ثم صعد على الخيل ودفعه؛ للتقدم ببطء وتجاوز (رائدًا)، وهو يقول: ماذا؟ ألن تتحرك؟ لماذا تقف هكذا؟

كان (رائد) ينظر إليه وعلامات الدهشة ترتسم على وجهه، ولأول مرة يشاهد (بارعًا) وقد ندت مِن شفتيه بسمةٌ ودودة دافئة وهو يشير له بعينيه بالتحرك فوراً، ثم ضرب على السرج وانطلق.

ظل (رائد) ينظر إليه للحظات غير مصدق لما شاهده.

هل ابتسم لي (بارع) حقاً ،أم أنني كنتُ أتوهم؟

لاحظ أنَّه بدأ يبتعد؛ فانتفض وصعد على خيله يتبعه.

*****

كانت (مارغريت) منشغلة في عملها حينما ولج عليها (طاهر) الغرفة، وما إنْ رأته حتى علقت: أتيت؟ لدينا عمل هنا، ثم أدارت له ظهرها وتابعت أعمالها التحضيرية، شعرت به يدنو منها ولكنها فوجئت به يعانقها؛ فتجمدت في مكانها، نظرت إلى ذراعيه التي أحاطت خصرها بالفعل وحاولت أنْ

تقاومه لكنه لم يهبها فرصة، أراح رأسه على كتفها وهو يقول: (سحاب)، لا تظهري هذه التعبيرات أمامي مجدداً.

حركت رأسها ببطء إلى الجهة الأخرى وهي تعلق: ما الذي تقصده؟

لا تنظري إلى عينيّ بهذه الحدة مرة أخرى، ألا يكفي بأنَّك مشغولة عني هذه الأيام كثيراً، حتى أنَّك بالكاد تنظرين إلي، وحينما تنظرين إلي ترمقينني بحدة كما فعلت قبل قليل!

أمسكت بذراعيه وحاولت أنْ تتخلص منه ولكنه أحكم عليها أكثر وقال: أتساءل، ما الذي يشغلك؟

لم تشعر أنَّ هذا عناق بقدر ما كانت تشعر أنَّه حصار، أخيراً أزاحت ذراعيه واستدارت نحوه ونظرت في عينيه مباشرة، ولأول مرة تشعر بأنَّ عينيه غامضتان وفوقهما ألف طوبة تحجب عنها ما في أعماقه، هل كانت قادرة أصلاً مِن قبل على قراءة مشاعره الحقيقة؟ لماذا تشعر الآن بأنَّ عينيه كانتا مجوفتان دوماً هكذا ولا تلمح خلالهما سوى الظلام؟

أربكتها تلك الأفكار؛ فرجعت خطوةً إلى الوراء، واستندت إلى كفها على الطاولة وهي ترد: إنَّ الأميرة مريضة ينبغي علي رؤيتها، أنا ذاهبة الآن، ثم عبرت مِن جواره وما إنْ وصلت إلى الباب حتى توقفت مكانها؛ إذ كان أحد الجنود واقفاً أمام الباب، رمقها للحظة ثم اتجه ناحية (طاهر) وأعطاه ورقة.

لاحظت إيماءات (طاهر) المنزعجة وهو يقرأ ما في الورقة، لقد كانت مِن الوزير (حاتم) وقد كُتِبَ فيها: "أصلح ما أفسدته"، ثم انحنى الجندي عليه وهمس في أذنه بأنهَّم يتجهون إلى الغابة الشرقية.

امتقع وجه (طاهر) للحظة، ولكنه حينما لاحظ أنَّ (مارغريت) ما تزال واقفة عند الباب أبدا إيماءاتٍ مرتاحة وهو يردُّ على الجندي بهدوء: فهمت، سأتجه إليه فوراً بعد أنْ أُحضِّرَ بعض أدواتي.

وما إنْ همَّ بالحراك حتى تحركت (مارغريت) سريعاً وأغلقت الباب خلفها.

كان (رائد) و(بارع) قد توغَّلا في الغابة، ولم يصل (حارث) بعد بالجنود، علَّق (رائد) وهو يتلفت حوله: لم أكن أعلم بأنَّها كبيرةٌ إلى هذا الحد، يبدو كأنَّنا نبحث عن إبرةٍ داخل قش!

-حينما يصل (حارث) سيسهل الأمر علينا، سنتوزَّع إلى فرقٍ ونذهب في كلِّ اتجاهٍ منها.

كانت عينا (رائد) تضيقان وهو ينظر إلى الأرض باحثاً بتركيز، لاحظ ذلك (بارع)؛ فابتسم بسخرية وهو يقول: أتظنُّ مثلاً أنَّنا لن نشاهد (إيادًا) إذا كان على الأرض؟! أم أنَّك تبحث عن اللب؟!

ضحك (رائد) وهو يرد: ربما، مَن يدري، ربما نجد خيطاً يدلنا عليه.

عبر (بارع) مِن جواره بخيله وهو يبتسم ويقول: لنسرع مِن هنا، لا أرى شيئا، ثم ركل خيله، في حين كان (رائد) ينظر إليه وقد ابتهج قلبه، ثم ركل خيله؛ ليلحق به، وما إنْ ابتعدا مسافةً قصيرة حتى لمح (رائد) شيئاً سريعاً مرق مِن جواره، واندفع هذا الشيء أمامه وأصاب خيل (بارع)؛ فانتفض الخيل وسقط وسقط (بارع) مِن فوقه وتدحرج على الأرض. أوقف (رائد) خيله، ونظر خلفه فلم يشاهد أحداً، فنزل من على الخيل سريعاً وركض ناحية (بارع)، كان يهمُّ بالنهوض؛ فأسنده (رائد) وهو يسأل: هل أصبت؟ أنت بخير؟

رفع رأسه واتجهت أنظارهما ناحية الخيل وأدركا أنَّه قد أصيب بسهم، في اللحظة ذاتها صهل خيل (رائد) بمرارة وسقط، كان هو الآخر قد أصيب بسهم، أدركا بأنَّهما محاصرين؛ فنهضا معًا وأخرجا سيفهما، وراحا يتلفتان حولهما بوجلٍ لكن دون أنْ يشاهدا أحداً.

نطق (رائد): إنَّ مكاننا غاية في السوء.

لم يُنهِ كلمته حتى أُمطرا بالسهام، ولكن كان مِن الواضح أنَّ المراد هو تخويفهما فقط وإرباكاهما؛ إذ لم تكن موجهة نحوهما مباشرة، صرخ (بارع) بنفاد صبر: جبناء! اخرجوا لملاقاتنا وجهاً لوجه!

شعرا بحركة الحشائش أمامهما ثم سرعان ما ظهر رجالٌ يلبسون ملابس العيارين الحمراء، ويلثمون وجوههم، ولا تظهر سوى أعينهم.

التصق ظهراهما ببعضهما وهمس له (رائد): هل هم العيارون؟

لم يجبه (بارع)؛ إذ كان منشغلاً بعدِّ رؤوسهم، وحينما وصل إلى الرقم سبعة نفد صبره وأحكم القبضة على سيفه وهو يقول لرائد: مِن الواضح أنَّهم لا ينوون خيراً، أتستطيع أنْ تقضي على سبعةٍ منهم؟

وجلت ملامح (رائد) وهو يُحكم على مقبض سيفه ويرد: أقضي؟! أخشى أنْ أكون عبئًا عليك!

أخرسته صرخة (بارع) التي وجهها نحوهم: أنتم، مَن أرسلكم؟ هل تعرفون مَن أنا؟

دارت عيناه نحوهم واحداً واحداً؛ ليشاهد ردة فعلهم وأتبع: أنا ابن العلالي (بارع).

شاهد الابتسامة الساخرة في أعينهم، فبات واضحاً له أنَّهم يعرفونه حقاً؛ فعدَّل مِن وضعية ساقه متأهباً ثم قال موجهاً حديثه إلى (رائد) قبل أنْ يندفع نحوهم: تذكَّر بأنَّك هزمت (باترًا) ذات يوم.

عدَّل (رائد) مِن وضعية ساقه وهو يشعر بوجعٍ طفيف بفخذه اليمنى، أحكم قبضته على سيفه، ثم نطق: أنت محقٌّ، هذا ليس وقتها، ثم اندفع معه والتحمت السيوف، كان (بارع) يصدُّ ضرباتهم ويثخن فيهم ضرباً مِن واحد لآخر دون أنْ يُصاب بخدش، لاحظ منذ أول ضربة سيف تلقاها مِن أولهم أنَّهم غاية في التمكُّن وليسوا مجرد عيارين.

سقط أحدهم يتلوَّى بعد أنْ سدد إليه (بارع) ضربة قاتلة؛ فاندفع نحوه اثنان، ضرب أحدهم بالسيف والآخر دفعه بساقه؛ فانحنى متوجعاً على بطنه وسقطت اللثمة وبان وجهه وانكشف لـ(بارع)، شخصت عيناه؛ إذ شعر بأنه قد شاهده مِن قبل، ولكنه سرعان ما لثم نفسه واندفع يقاتله بالسيف ويدفعه، كان (رائد) في اللحظة ذاتها قد أحيط بمجموعة منهم، وناله التعب وكان مِن

الواضح بأنَّ حركته أبطا بكثير مِن حركة (بارع)، اندفع نحوه اثنان في وقت واحد، ضرب الأول بالسيف، فهوى الثاني بسيفه عليه، وكاد أنْ يسدد إليه ضربة قاتلة لولا أنَّ (بارعًا) تحرك في الوقت المناسب وضربه بسيفه مِن الخلف؛ فسقط، أمسك بكفِّ (رائد) وضغط عليها وهو مشهرٌ سيفه عليهم وهو يسأله بتوتر: ما بال ساقك اليمنى؟

فوجئ (رائد) بدقة ملاحظته، ضغط على كفه ثم ركض هارباً معه، ولكنَّ الرجال لم يمنحوهما فرصة وركضوا خلفهما يطلقون السهام و(بارع) يصدها بسيفه محاولاً أنْ يحمي (رائدًا)، ظلا يركضان حتى توقَّفا فجأة بعد أنْ انهمرت عليهما السهام مِن أعلى الجرف؛ فادركا بأنَّهما محاصران مِن الأعلى أيضاً.

كزَّ (بارع) على أسنانه وهو يصرخ: اللعنة!

وصل بقيةُ الرجال وحاصروهم مجدداً؛ فوقفا متأهبين لمبارزتهما، ثم اندفع (بارع) أولاً ولحقه (رائد)، ولكنَّ سهماً غادراً اندفع مِن الأعلى باتجاه (رائد)، لمحه (بارع) فما كان منه إلا أنْ اندفع بجسده نحوه وقد ندت مِن فيه صرخةٌ محذرة: معلمـــــــــــــي!

فوجدَ السهمُ مكانه وسط ظهر (بارع)، تنحنح إلى الخلف بخطوات، ثم شعر بالسهم الثاني يخترق ظهره أيضاً.

شخصت عينا (رائد) وسقط (بارع) على ركبتيه، أحاطه (رائد) بذراعيه وهو يحاول أنْ يسنده، ثم رمقهم بحدة واشتعل غيظه، لوَّح بسيفه نحوهم، وشعر بدماء (بارع) وهي تغرق ذراعه الأخرى، صرَّ على أسنانه وهو ينطق بوجع: ما الذي فعلته يا أحمق؟!

حاول (بارع) أنْ يقف على ساقيه وهو يرد: لا تقلق! إنَّه مجرد سهم.

رفع الرجل الذي بالأعلى سهمه مجدداً؛ ليوجهه ناحية (رائد) ولكنه أصيب فجأة بسهمٍ؛ فسقط، اندفع بقيةُ الرجال الذين بالأسفل تجاههما؛ فأمطرت عليهم السهام مِنَ الأعلى وأربكتهم. كان جنود الحرس الخاص بقيادة (حارث) قد

وصلوا إلى أعلى الجرف وهاجموا مَن هم في الأعلى، وما إنْ شاهدوهم وعرفوهم حتى صرخ أحدهم: انسحبوا!

ففروا هاربين.

تهاوى (بارع)؛ فأسنده (رائد) وهو يصرخ: أنت بخير؟

حرك رأسه وهو يقول: لا تقلق، أنا بخير.

ولكن عيناه طرفتا بسرعة، ثم تهاوى رأسه على ذراع (رائد) ولم يعد يشعر بشيء.

*****

كان صوت خطواتها الراكضة يبدِّدُ هدوء المستشفى ويتوافق مع اضطرابِ وتماوج نبضات قلبها، توقفت بضع خطواتٍ عن الباب حينما شاهدت الجميع وقد كسى اليأسُ ملامحهم، كان (رائد) يستند إلى الجدار، و(باتر) يعضُّ إبهامه بلومٍ وهو يقول: كيف لذلك أنْ يحدث؟! ولماذا ؟

خفض (حارث) رأسه بأسى وهو يردّ: كان عليَّ أنْ ألحقهما سريعاً، ثم زمَّ شفتيه مفكراً قبل أنْ يقول: ولكن لم يصلنا مِن قبل أيّ خبرٍ يفيد بوجود العيارين شرقاً، إنَّ هذا لشيءٌ عجيبٌ حقاً!

في تلك اللحظة لاحظ (رائدٌ) (بيلسان) واقفة وهي تنظر نحوهم بذهول، اعتدل وهو ينطق باسمها؛ فانتبه الجميع ونظروا نحوها، واندفع (باتر) إليها وهو يقول: أماه، لا تقلقي، إنَّه بخير، إنَّ جرحه بسيطٌ.

ألقت بنظرة على وجوههم جميعاً؛ لتتأكد، ثم نظرت إليه بوجهٍ شاحب وقالت: أنت تكذب.

ثم دفعته بيدها واتجهت نحوهما؛ فأوسعا لها ودخلت الغرفة. كان (بارع) ينام على السرير مغطى وفاقداً الوعي، اقتربت منه وأخذت تنظر إليه بألم، ثم سمع الجميع صوت بكائها المكتوم، ولكن لم يستطع أحدٌ الدخول.

أحسَّ (رائد) بالاختناق واللوم؛ إذ إنَّ إصابته كانت بسببه في النهاية، لو كانت ساقه تتحرك تحرُّكًا أسرع، لو لم يكن يشعر بالألم في كتفه لربما كان أقوى ولم يكن مضطراً لفعل ذلك.

تحركت ساقاه، وابتعد عنهم دون أنْ ينطق بشيء؛ فاستنكروا ذلك، خرج مِن المستشفى واتجه إلى الفناء الذي يقع بالمنتصف بينه وبين ثكنات الجند، أخرج سيفه مِن غمده وأخذ ينظر إليه، إنَّه سيف الكيليج ذاته، سيف (ليونهارد) الذي حمل مسيرته العظيمة، ضغط على مقبضه والشعور بأنَّه لا يستحقه يمزِّق قلبه، رفعه للأعلى، ثم خفضه سريعاً ولوَّح به في الهواء، ثم أخذ يتحرك ويضرب به، وينتقل مِن هنا وهناك وهو يحركه.

كانت (مارغريت) تراقبه لفترة قبل أنْ تقترب منه، وما إنْ تنبَّه لوجودها حتى اعتدلَ وهو ينظر إليها بدهشة متسائلاً، دنت منه أكثر ثم ناولته زجاجةَ دواء وهي تقول: خذ هذا وتناوله، سيخفِّف مِن ألم ساقك.

نظر إلى الدواء ثم نظر إليها متعجِّباً، فالتقطت كفه ووضعته فيها وهي تقول: ليس هنالك داعٍ لتنكر ذلك.

ظلَّ ينظر إليه في يده بصمت، ثم فتح العلبة وتناولها، ثم أشاح بعينيه وهو يقول: شكراً لك!

تقدَّمت خطوة إليه وهي تقول: شيء آخر.

نظر إليها باهتمام فتابعت: توقف عن لوم نفسك، أعتقد أنَّ ما فعله كان تكفيراً عما فعله بك سابقاً واعتذاراً لك.

أشاح بعينيه عنها وهو يبتسم بيأسٍ ويردّ: كان عليه أنْ يعتذر فقط أو حتى لا يعتذر، في كلِّ الأحوال، كنتُ سأقبل به.

-في النهاية أنت لا تستطيع أنْ تتحكم في مشاعر الناس وطريقة تعبريهم عنها، أعتقد أنَّ لكلِّ شخص الحرية في أنْ يعبِّرَ عما يريده بطريقته، لقد كان يحبك مع تظاهره بعدم ذلك.

فوجئ بما قالته فنظر إليها؛ وإذ بها تنظر إليه بحدة؛ لذا ندت مِن شفتيه بسمةٌ مريرة وهو يردّ: ولكن هذه المشاعر ثقيلة، مِن الصعب علي احتمالها.

صمتت للحظة ثم أشاحت بوجهها وردت: كلُّ المشاعر هي ثقل سواء على صاحبها أو لمن وجهت نحوهم، تستطيع أنْ تقبلها أو ترفضها، ولكن لا تملك حقَّ إيقافها مطلقاً.

شعر بكلماتها وكأنَّها تصفعه؛ لذا ابتسم بسخرية وهرب بعينيه للأسفل وهو يعلق: لم تعودي طفلة! أرى، لقد كبرتِ دوني، وأصبحت تتحدثين بكلمات كبيرة يصعبُ عليَّ فهمها.

دنت منه حتى وقفت أمامه؛ فرفع عينيه ينظر ناحيتها باستغرابٍ، كانت تنظر إليه بعينين حانقتين وشفتيها ترتجفان، زمتهما للحظة تستجمع فيها قواها، كان مِن الواضح أنَّها ستهمُّ بقولِ شيءٍ صعب عليها، ابتلعت ريقها وقالت: اسمع، ما أردتُ قوله بوضوح: إنَّك لا تملك الحق في منعي مِن الانتظار، لقد كنتُ انتظرك وسأظلُّ أفعلُ ذلك.

شخصت عيناه للحظاتٍ، ثم لانَ وجهه وعبست شفتاه، أشاح بعينيه وبالكاد نطق: لا فائدة مِن ذلك سحاب.

هزَّ رأسه بألمٍ وأتم: لا فائدة، ثم ابتسم بمرارةٍ لها في حين كانت الدموع تغشى عينيها، ارتجفت شفتاه وهو يتبع: فأنا لن آتي...

خفض رأسه وطرف بعينيه شمالاً وأتم: أنا سأغادر قريباً؛ لذا لا جدوى مِن انتظاري.

جرت دموعها لتصطدم بشفتيها الباسمتين، واللتين سرعان ما عبستا بوجعٍ.

حرك عينيه ببطءٍ نحوها واهتزَّت أعماقه لدموعها؛ فنطق: أرجوك، توقفي عن ذلك! أنا لا يمكنني أنْ أحتمل رؤيتك وأنت تبكين مرةً أخرى مِن أجلي، أستطيع أنْ أقول لكِ الآن...

صمت للحظة؛ إذ شعر بصوته يرتجف؛ فأخذ نفساً عميقاً قبل أنْ يتمَّ: كان يجبُ عليَّ أنْ أقول ذلك منذ البداية: انتبهي لحياتك جيداً، صدقيني، أنا أدركُ الآن أنَّ عودتي كانت مجرد حماقة؛ وأنك أكثر من تأذيتي بها؛ لذا...

هزَّ رأسه بوجع وهو يتبع: لا تلتفتي لوجودي وانظري أمامك فقط، وحافظي على...

خفت صوته وهو يتم: (طاهر).

دوت صرخةُ رفضٍ في أعماقها خشيت أنْ يسمعها؛ فأشاحت وجهها، ثم استدارت وأعطته ظهرها، وظلت واقفة للحظات تحاول إيقاف دموعها وجمع شتات نفسها، تقدَّمت بخطواتٍ ثقيلة، ولكنها شعرت أنَّها قد أضاعت الطريق، ولم تعد قادرة على الهروب الآن؛ لذا توقفت ونطقت بصعوبة: لا يمكنك.

رفع عينيه نحوها بألم فأتبعت: لا يمكنك أنْ تفعل هذا بي.

شرعت تمسح دموعها وهي تقول: لا يمكنك أنْ تلوح لي بـ(طاهر) كسببٍ يدعوني للتوقف ونسيانك، لا يمكنكُ أنْ تفعل هذا بي وأنتَ في أعماقك ترفض هذا أيضاً.

قاطعها بحدة: بل يمكنني، ولكن مالا يمكنني فعله هو تركك تعيشين على أملٍ ضبابي سرعان ما سيتبدد.

هي التي كانت واثقة بأنَّه سيضعف أمام إصرارها شعرت بالضعف والإنهاك، كان وقعُ كلماته عليها كالنار التي التهمت روحها ولم تذر سوى الرماد، لعنت في أعماقها كلَّ تلك المشاعر التي قتلتها بالكتمان، لماذا نحن البشر نعتقد أنَّ الكتمان خيارٌ مِن الممكن أنْ يتعايش مع مشاعرنا؟ كم مِن الوقت يجب أنْ يمضي لندرك أنَّ الكتمان إما أنْ يقتل المشاعر بالمرة أو يذكيها، إنَّه لا يعرف المنتصف ولا ينبغي له الاعتدال.

انتفضت يداها فرفعتهما ووقعت عيناها على الخاتم في إصبعها، قبضت عليه، وانتفض جسدها هو الآخر، ظلت للحظات قصيرة تصرُّ على أسنانها

في محاولةٍ يائسة لدفع دموعها المنهكة، فالأرواح عندما تنهك يستوي عندها كل شيء، أدركت ذلك للتو فابتسمت معلنة عن ثورتها ضد الكتمان.

استدارت نحوه، لاحظَ نظراتها الحانقة ودموعها التي طرفتها وهي تندفع نحوه، ولكنّها لم تهبه فرصة للتفكير؛ إذ لم تتوقف إلا عندما أمسكت بياقة قميصه؛ فراح ينظر إلى يديها الممسكتين به وعينيها باستغرابٍ، ثم شعر برأسه وهو يميل بقوة؛ أثر الصفعة التي تلقاها منها للتو، وما إن حرك رأسه ناحيتها حتى ذُهلت عيناه غير مصدقتين؛ إذ شعر بشفتيها وهي تقبله! ثم أرسلت ياقته، ثم خفضت رأسها ويديها ببطء، كان وجهها يصرخ بمرارة؛ وعينيها غارقتان بالدموع، قالت بصوت متألم: منذ الآن، أنت لي، أتفهم؟ ولا يمكنك أنْ تلوح لي بأيِّ شيء مرة أخرى، ثم استدارت وأتمت بصوت يرتجف: لا يهمني أنْ تعود وتختفي، تختفي وتعود.

ندت منها شهقةٌ مؤلمة حاولت كتمها ثم تابعت: أنا مازلتُ أحبك وفقط!

صمتت للحظة قبل أنْ تتبع: إنَّني في كلِّ مرة تمدُّ فيها إليَّ كفك أكون قادرةً على أنْ أترك كلَّ شيء خلفي وآتي إليك، ثم غادرت مسرعة، بينما ظلَّ هو واقفاً فاغراً فمه يصارع صدمته، ثم ضاقت عيناه شيئاً فشيئاً حتى لم يعد يراها جيداً، ولكنَّ طيوفًا مِن الذاكرة بزغت أمامه، وجهها الباكي وهي تودعه في المختبر وتقبل راحة يده، ووجهها وهي تنظر إليه بحدَّة وهي تتبعه إلى مركز الأبحاث؛ لإنقاذ (غيث)، ووجهها المعفر بالتراب والدماء وهي تمدُّ له ساعة الزمن، ووجها الطافح بالوجع وهي تضع ساعة الزمن في يده؛ لتدفعه للرحيل.

رفع كفه ووضعه على خده وأعماقه تنطق: في كل مرة! في كل مرة !

خفض يده وأتم: كنتِ تفعلين ما تقررينه وحسب، وكنتُ عاجزاً عن إيقافك.

ندت مِن شفتيه بسمة مريرة ثم شعر بدموعه وهي تصطدم بشفتيه ونطق: المجنونة!

*****

فتح عينيه بإجهادٍ، تلفَّت مستطلعاً الغرفة، وجد (بيلسان) جالسة على الكرسي نائمة إلى جواره، ندت مِن شفتيه بسمةٌ ممتنة، ثم حاول بثقلٍ أنْ ينهض، تدلت ساقاه مِن على السرير ثم حاول الوقوف، شعرت (بيلسان) بحركته؛ ففتحت عينيها وانتفضت سريعاً واقفة وهي تقول: أنت بخير الآن؟ هل استيقظت؟

ابتسم في وجهها برقَّة وهو يرد: أنا بخير أماه، لا تقلقي.

بادلته الابتسامة، ثم عانقته وهي تربت على كتفه وتقول: الحمد لله! لقد كنتُ قلقة عليك.

أبعد رأسه قليلاً وقد بدا لها وجهه القلق وهو يقول: أماه، أريد أنْ أقابل (باترًا) سريعاً، أين هو؟!

سمعا صوتاً آتيا من عند الباب يقول: ما الذي تريده؟ أخبرني، ثم ولج إلى الداخل وهو يبتسم برقة ويتبع: أخي الصغير.

لكنَّ (بارعًا) لم يكن قادرًا على الابتسام؛ بل نظر إليه بوجل وقال: الذين هاجمونا لم يكونوا عيارين، لقد رأيت وجه أحدهم، لقد كانوا مِن الحرس الخاص، أنا واثق.

الفصل التاسع: الخيط

حتى الأذكياء يرتكبون الحماقات بدافع الشفقة.

وصلت الأخبارُ إلى القصر بوجود تمرُّدٍ في طريق خط القدس القديم، واشتباكات وقعت بين العمال والزوار، وما إنْ علم (باتر) بالخبر حتى قام بإرسال (حارث) فوراً مع كتيبةٍ؛ لاستطلاع الأمر وتهدئته، ثم أسرع ليقابل (شهابًا).

في تلك الأثناء كان (شهاب) يجلس على كرسيه وقد دخلت عليه (جوان) برفقة خادمتها (زهرة)، كانت طريحة الفراش عدة أيام إثر ارتفاع درجة حرارتها.

ما إنْ شاهدها حتى قام مِن على كرسيه ورحَّب بها وهو يبتسم، ولكنها كانت عابسة واندفعت تقول: سيدي الأمير، لقد وصلني الخبر، وقد قمت مِن على فراشي رغم مرضي؛ لأحدثك بشأنه، لقد صدق ما أخبرتك به، إنَّ المسوِّغات التي قدمها ابن العلالي ليست إلا مسوِّغات واهية، موت العمال سابقاً كان مجرد حادثة وهي ليست ذريعة لإغلاق المشروع، ولقد رأيت الآن كيف وقع هذا النزاع بالخط القديم، لقد سمعت بأنَّه مسلح أيضاً ووقعت ضحايا، إنني أتساءل كيف وافقت على إيقاف المشروع الجديد؟ هل فكرت كم كانت ستجني منه دمشق؟

هل كنتَ تدرك بأنَّ بناءك للخط الجديد سيكون...

قاطعها بقوله: توقفي (جوان) أرجوك!

زمَّت شفتيها تكتم غيظها ولكنه أتبع: أنا أعرف مدى حرصك، ولكن ما معنى أنْ أضحي بكل هذه الأرواح مِن أجل بناء خط جديد؟ فقط لأنَّه يحوي موقعاً إستراتيجيا بإمكانه أنْ يمنحني مزيداً مِن السلطة والاستقلال عن

بغداد ؟ أعلم أنَّ كلَّ مَن اقترحه فكَّر هكذا؟ ولكني لا أفكِّر بالاستقلال ولا بزيادة سلطتي.

قاطعته باندفاع: ليس ذا وحسب ما كنت أفكر فيه ياسيدي، لكن هذا المشروع سيدرُّ على الشام أموالاً طائلة ستخدم شعبك في النهاية.

في تلك اللحظة كان الحارس قد دخل؛ ليبلغ بوصول (باتر)؛ فسمح له (شهاب) بالدخول.

تقدَّم منه وقال: سيدي الأمير، لقد وصلتك الأخبار بشأن التمرُّد على الخط القديم.

حرك رأسه يستحثه على الإكمال؛ فأتبع: ولقد بعثت (حارثًا) بكتيبة؛ ليستطلع الأمر ويهدئه.

-أحسنت صنيعاً! هذا ما كنتُ سأفعله.

أشاحت (جوان) وجهها في غيظٍ واضح، بينما حيَّاها (باتر) باحترام وهمَّ بالانصراف، إلا أنَّ (شهابًا) أوقفه بقوله: كيف هو حال (بارع) الآن؟

أجابه مبتسماً: إنَّه بخيرٍ ويتماثل للشفاء.

-هل عرفتم المجرمين؟

-لا ، إننا نبحث في ذلك، ولقد أرسلت بضعاً مِن رجالي؛ للبحث والاستطلاع في المنطقة الشرقية.

ابتسم وهو يعلق: جيد!

ثم سمح له بالانصراف، وما إنْ خرج حتى دنت (جوان) مِن (شهاب) لا تخفي غيظها وهي تقول: أرأيت؟! لقد أعطى الأوامر مِن عنده وحرَّك الجيش سيدي الأمير!

تنهَّد (شهاب) بضجرٍ وهو يرد: (جوان)، أميرتي، إنَّ هذا مِن صلاحياته.

قاطعته باندفاعٍ: سيدي، إنَّ سلطة الجيش لا ينبغي لها أنْ تكون إلا تحت إمرتك، ولكن يبدو أنَّك لن تستمع إلي، أنا واثقة بأنَّك ستفتح عينيك ذات يوم وتشاهد كيف أنَّ أبناء العلالي قد سيطروا على كلِّ شيء، ها هم يتحكَّمون بالجيش كيفما يشاؤون!

لم تنتظر جواباً واستدارت سريعاً وخرجت، بعد أنْ تركته وسط دوامة مِن الضيق والحيرة.

*****

كان (حاتم) يقهقه في غرفته ويتمايل مِن شدة الضحك، و(آصف) يراقبه بضجر.

علق بانزعاج: ألن تكفَّ عن الضحك؟!

انفجر ضاحكاً بقوة أكبر وظل على هذا النحو لعدة لحظات حتى هدأ أخيراً واعتدل وردّ: لمَ أنت غاضب هكذا؟

أجابه: هذا الطبيب قد كشف مكاننا بحماقته، إنَّ الجنود منتشرون هناك، ماذا لو وجدوا ما تعبنا في إخفائه كل تلك المدة؟!

لوَّح بيده في الهواء وهو يرد: لا تخشَ مِن هذه الناحية، لن يجدو شيئاً، ثم إنَّ جنودي لن يمنحونهم الفرصة لذلك أبداً.

اعتدل وهو يتبع: المهم الآن أنَّ تسير خطتي بسرعة، لقد أبدع العيارون في بثِّ الفوضى في الخط كما طلبت منهم، وهذا لصالحنا، فأولا: سيلهيهم عن المنطقة الشرقية وسيُنشِلون محاولات (حارث) وسيطيل أمد بقائه، وثانيًا: ستضغط الأميرة على شهاب؛ للرضوخ وإعادة فتح المشروع كما اتفاقنا، وهكذا سيفرغ لنا الجو، ويبقى لنا (باتر) لنخرجه.

اقترب منه بلهفة واتكأ على الطاولة بيديه وانحنى وهو يقول: تعني أنَّ هذا الأعجمي سيخرج ولن يعود؟

ابتسم بخبث وهو يقول: ودِّعه اليوم إنْ أردت.

انخرط في الضحك، إلا أنَّ الباب الذي فُتح فجأة جعله يصمت، كان (طاهر) واقفاً أمامه، ولج وأغلق الباب خلفه ثم اقترب منهما وقال: إذا كنت تعتقد أنَّ بمجرد إبعاد (باتر) و(حارث) سيخلو لك الجو وسيبقى (شهاب) وحيداً فأنت

مخطئ، هل تعتقد أنَّ استغلالك للجنود بالمال والوعود بالمناصب وصنع الأسلحة وتوفيرها كافياً؟

رفع (حاتم) حاجبيه وعلامات الاستنكار والازدراء واضحتان عليه.

اقترب (طاهر) منه أكثر وقال: ماذا عن الناس؟ مِن الصعب أنْ تُحدث ثورةً من أجل الاستقلال والناس لا يشعرون بيأسٍ أصلاً.

-ما الذي تعنيه؟

دع رجالك الذين أحدثوا الفوضى في القدس أنْ يحدثوا فوضى هنا، اخلق مواقفَ معادية ودعهم يشيرون بأصابع الاتهام نحو البغداديين، عليك أنْ تؤجِّج قلوب العامة ضدهم، إنْ أردت حقاً للثورة أنْ تنجح يمكنك أنْ تختلق بعض الحوادث والشائعات، يجب أن يتملكهم اليأس وسترى أنَّ الناس يثورون قبلك.

عاد ليميل نحوه ويتم: الشائعات، الشائعات يا صديقي تقتل الناس، والناس يصدقون كلَّ ما يسمعونه، قرَّب وجهه نحوه أكثر وهو يتبع: واليأس أسقط حكومات بأكملها وحرَّك ثورات أخرى يا صديقي.

انحنت زاوية فم (حاتم) مشكلة بسمة غريبة، وبرقت عيناه وهو يعلِّق: أنت محقٌّ، كن مستعداً، ستسمع وسترى ما سيدهشك.

*****

كان السقف الخشبي يبدو ضبابياً ولونه يميل إلى السواد، حرَّك عينيه يساراً وشاهد ظهرها وشعرها المربوط بإهمال، وطرفًا مِن وجهها الأبيض، شعر بالآلام تمزِّق بطنه، حاول أنْ يرفع يده لكنها خذلته وهوت مِن على السرير، دفعها صوتُ وقوعها إلى أنْ تلتفت نحوه، أدركت بأنَّه قد استيقظ؛ لذا وقفت ودنت منه، وراحت تعاينه ثم سألت: هل أفقت؟ أنت بخيرٍ الآن؟

حاول أنْ يفتح عينيه جيداً؛ ليبصرها لكنه لم يستطع، أغمض عينيه وخرج منه صوتاً مبحوحاً يسأل: مَن أنتِ؟

تركته واتجهت ناحية المنضدة والتقطت علبة دواء ثم عادت إليه وهي تجيب: ليس مِن الضروري أنْ تعرف.

فتح عينيه؛ لينظر إليها، بدأت ملامحها تظهر له شيئاً فشيئاً، انحنت وأسندته؛ ليجلس، ثم أعطته الدواء؛، فابتلعه سريعاً ثم قرَّبت منه طبقاً مِن حساء الخضار ووضعته بجانبه وهي تقول: تستطيع أنْ تتناوله الآن، ثم استدارت مغادرةً، وما إنْ وقفت عند الباب حتى قالت: سأعود في المساء ومعي الدواء والطعام.

بالكاد نطق محاولاً إيقافها وحلَّ قليلٌ مِن الغموض الذي يحيطه الآن: مهلاً، لماذا تساعديني؟ ولماذا أنا هنا؟

عبست وهي ترد: إنه ليس مِن أجلك طبعاً، إنَّني أنفذ الأوامر وحسب، ثم أغلقت الباب خلفها وأحكمت إغلاقه من الخارج لئلا يتمكن مِن الخروج، وما إنْ سمع صوت المفتاح وهو ينزلق حتى أدرك بأنَّه مسجونٌ هنا.

نظر إلى الطبق بيأسٍ، ثم أمسك بمعدته ونطق بألم: لماذا لم يقتلني (طاهر)؟! ثم لماذا يسجنني هنا؟!

*****

كان (حارث) و(كادي) يتناولان إفطارهما ويراقبان إيماءات (رائد) الصامت على غير عادته، وقفت (كادي)؛ لتغادر وتمنح (حارثًا) فرصة للحديث معه، اقترب منه (حارث) وقال: ما بالك (راد)؟ منذ البارحة وأنت تضع يدك فوق خدك، هل تفكر بـ(بارع)؟

كرَّر بحماقة : (بارع)! آه (بارع)، نعم (بارع)!

-ما الذي تفكر فيه؟!

كز على أسنانه وهو يتمتم: تباً، أنا أتذكر فعلتها حتى في صلاتي، آآه أكاد أجن.

-ما الذي تقوله؟! لم أفهم؟

هز رائد رأسه بارتباك وهو يجيبه: لا شيء، لا شيء لم يحدث شيء.

استنكر (حارث) ذلك، كان مِن الواضح أنَّ ذهنه مشغولاً بشيء آخر، وقف وهو يقول: لا بأس، سأذهب الآن، وربما لا أراك لفترة؛ لذا أرجوك كن بخير!

وقف (رائد) وكأنه قد استوعب للتو أنَّ (حارثًا) سيغادر فقال: تغادر؟ إلى أين؟

رمقه بلومٍ وهو يقول: بماذا ذهنك مشغول؟! أين كنت البارحة وأنا أخبرك؟

أشار إلى نفسه باستغراب وهو يرد: أنا!

اقترب منه (حارث) ووضع يده على كتفه وربت عليها وهو يقول: (رائد)، انتبه على (بارع)، وكن يمين (باتر) حتى أعود، وابحث عن (إياد) ما يزال لدي أمل، أنا أشعر أنَّ مَن فعل ذلك إنّما فعله؛ لإشغالنا عن أمر آخر، وشيء أخير...

نظر إليه بتطلع فأتبع: عليك أنْ تكثِّف تدريباتك، إنَّ مستواك لا يروق لي.

خفض رأسه بخجل وهو يرد: بالطبع سأفعل.

ربت على كتفه ثم قال: اعتنِ بـ(كادي) في غيابي.

ابتسم برقة وهو يرد: أكيد سأفعل، ولكن لا تطل غيابك، فأنا أشتاق إليك (ليو).

بادله الابتسام ثم أدار له ظهره؛ ليغادر، لكنَّ (رائدًا) أوقفه بقوله: مهلاً ليو.

التفت إليه ينظر باهتمام فبدا على (رائد) التردد قليلاً قبل أنْ يرفع ذراعه ويشير إليها وهو يسأل: بأيِّ طريقة هل شاهدت مِن قبل وشمًا يشبه رأس العنقاء وحوله نار ملتفة؟

قطب حاجبيه للحظة مفكراً ثم أجاب: أبداً، لماذا؟

هرب بعينيه وهو يصارع أعماقه بتردد أيخبره أم لا، لكنه عزم أخيراً ونطق: لقد رأيت هذا الوشم على يد الرجل الذي هاجم الأميرة، والوشم ذاته رأيته على...

نظر إلى عينيه وأتم بتردد: رأيته على ذراع الطبيب (طاهر).

انكمشت ملامح (حارث) دون أنْ يعلق، زمَّ (رائد) شفتيه وعبس وهو يستطرد: لا تعتقد أنَّني أقول ذلك مِن أجل شيء آخر، لقد أثار ذلك شكوكي.

قاطعه (حارث): كيف لك أنْ تعتقد أنَّني أفكر حيالك بهذه الطريقة؟

اقترب منه وسأل: أخبرني أكثر، ما الذي تعتقده بشأن ذلك الشعار؟

هزَّ رأسه بحيرة وهو يرد: لا أعلم، ولكن مِن المؤكد أنَّها ليست محض صدفة، إنني غير مرتاح (ليو).

عبس (حارث) وسرح بعينيه مفكراً للحظة، ثم ربت على كتفه وهو يقول موصياً: إذن، ابحث عن هذا الأمر إلى حين عودتي.

ولكن ما إنْ استدار وخطا خطوتين حتى توقف فجأة؛ إذ عبرته كلماتٌ مِن الذاكرة حيرته وخلقت داخله إحساسا مربكاً، كلمات نطق بها (طاهر) ذات يوم أمامه: "بعض البشر يشبهون العنقاء؛ لا ترهبهم النار وكأنهم قد خُلقوا منها".

-(ليو)!

قالها (رائد) مستنكراً وقوفه؛ فاستدار إليه وهو يبتسم بحرجٍ دون أنْ يعلق، ثم أسرع مغادراً.

بعد ذلك اتجه (رائد) إلى المستشفى؛ ليطمئن على (بارع)، وفي طريقه قابل (باترًا) الذي توقف؛ ليحدثه.

-ما الذي لاحظته يا (رائد) أثناء قتالك مع أولئك القتلة؟

حك جبهته مفكراً للحظة ثم أجاب: لقد بدوا لي غاية في القوة، وبالتفكير في الأمر كانت أمامهم فرص كثيرة لقتلنا، ولكن..

-تعني؟

قاطعه (رائد): أنا واثق، كان بإمكانهم قتلي ولكن لقد بدا الأمر وكأنَّه إشغال لنا وحصر (بارع) في زاوية ضيقة، هكذا شعرت.

أظهر إيماءات موافقة وهو يرد: هكذا يظن (بارع) أيضاً، ولكن المصيبة أنَّه يقول بأنَّه تمكَّن مِن رؤية أحدهم، وهو واثق أنَّه مِن رجالي. إنَّ هذا أكثر ما أثار غيظي.

اقترب منه وعلق: وهذا يعني أنَّ ثمة أمر خطير يحاك في الخفاء، وأنَّ هناك ما يحاول هؤلاء إخفاءه في الغابة الشرقية، يجب علينا أنْ نمسح المنطقة.

-وهذا ما فعلته، لقد أرسلت بعض الرجال الذين أثق بهم؛ للتفتيش والبحث، كما أنَّني سأذهب بنفسي.

- إذن، سألحق بك بعد أنْ أطمئن على (بارع).

أسرع (باتر) في طريقه، واتجه (رائد) إلى المستشفى لكنه ما إنْ اقترب حتى توقف؛ إذ خطر بباله أنَّه قد يشاهد (مارغريت) وهو لم يفكر بأيِّ شكلٍ يمكنه أنْ يقابلها بعد الموقف الأخير.

أعطى ظهره للباب ووضع يده على صدره وهو يحدث نفسه: كيف غاب هذا عن بالي؟

كيف يمكنني أنْ أدخل الآن؟ ما الذي يمكنني أنْ أقوله؟

هل أتظاهر وكأنَّ شيئاً لم يحدث، أم أطلب منها الحديث؟

ثم ماذا ؟

حك رأسه بضجرٍ واضح وهو يتم بأعماقه: إنَّني عاجزٌ عن معرفة ما أريده حقاً، إنَّني عاجزٌ عن التفكير، أين أنتِ يا (عروب) الآن؟

تنهَّد بعمقٍ ثم استدار، لكنه انتفض فجأةً عندما شاهد (مارغريت) واقفة أمامه.

ابتعد خطوة للوراء وهو يقول: أنتِ!

بدا وكأنَّها قد نسيت ما فعلته بالأمس وابتسمت بسخرية وهي تسأل: لمَ تتصرف هكذا وكأنَّك شاهدت وحشاً؟!

ولكن ما إنْ وقعت عيناها على شفتيه حتى تذكرت فعلتُها؛ فانتفضت بارتباكٍ هي الأخرى وأشاحت بعينيها.

أما هو فلم يلحظ ذلك وابتسم بحماقةٍ وارتباكٍ وهو يعلل ويرد: كلا، لقد كنتُ سارحاً، هذا كلُّ ما في الأمر. حسناً كيف حال (بارع) الآن؟

أومأت برأسها وهي تردُّ بارتباكٍ: إنَّه بخير ويتماثل للشفاء، إنَّ بنيته قوية.

شرع يهز رأسه وهو يقول بتوترٍ واضح: جيد، هذا جيد، جيد حقاً.. حسناً.

أشار بيده أمامه وهو يتم: أنا ذاهب إليه الآن.

مالت بعينيها للأسفل للحظة فعبر مِن جوارها، لكنَّه توقَّف على بُعد خطوة منها؛ إذ سمعها تقول: ليس مِن الضروري أنْ نتحدث معاً بهذه الطريقة الحمقاء بعد الآن.

مال برقبته ناحيتها وفوجئ بها تبتسمُ بودٍّ وهي تتبع: تصرف على طبيعتك بينما سأظلُّ أنتظرك، ثم أشاحت بوجهها وأسرعت مغادرة.

غطى عينيه بكفه وهو يتمتم بتذمر: ما الذي تفعلينه بي!

ثم أخذ نفساً عميقاً وتابع طريقه إلى غرفة (بارع)، كان يجلس متكئاً على السرير وبجواره على المنضدة وضعت (بيلسان) أزهاراً ملونة، وجلست

على الكرسي الذي إلى جوار السرير تتحدث معه، بينما كانت (عروب) تقف فوقها تسند يديها إلى ظهر الكرسي.

طرق (رائد) الباب وولج، ومع أنَّ (بارعًا) كان في اللحظة ذاتها يضحك حدَّ أذنيه إلا أنَّه ما إنْ رأى (رائدًا) حتى بان على وجهه الحرج، قفزت (عروب) سريعاً؛ لتحضر له الكرسي مِن الجهة الأخرى وهي ترحب به، بينما اكتفت (بيلسان) بالابتسام.

جلس على الكرسي ونظر إليه وهو يسأل: هل أنت بخير الآن؟

أومأ موافقاً ورد: أشكرك على سؤالك! ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟ هل تمكنتم من إيجاد (إياد)؟

هزَّ رأسه نافياً بأسى ثم أتبع: ولكن (باترًا) قد ذهب بنفسه؛ ليكمل البحث.

التفت إلى (عروب) وهو يقول: (عروب)، ألن يصل (بتّال) إلى هنا بعد؟

هزَّت كتفيها وهي ترد بتذمُّر: لم يصلني شيء منه، إنَّه مِن مكان إلى آخر، لا يهدأ ولا يرتاح!

-لقد اشتقتُ إليه فقط!

ثم مال بعينيه نحو (بارع) ببطء الذي كان هو الآخر ينظر إليه، ولكن سرعان ما أشاح بوجهه عنه إلى الجهة الأخرى، أدركت (بيلسان) أنهما يريدان أنْ ينهيا حديثاً بينهما؛ لذا وقفت وهي توجه حديثها لـ(عروب) قائلةً: لنذهب، ثم نظرت إليهما وأتبعت: لدينا ما نفعله الآن؛ لذا سنترككما، ثم وجهت حديثها لـ(رائد) وهي تقول: إنَّني أترك (بارعًا) بين يديك الآن، فانتبه عليه.

ابتسم بامتنانٍ وهو خافض رأسه، ثم نظر إلى (بارع) بينما خرجت (عروب) وأغلقت (بيلسان) الباب خلفهما.

ابتسم (رائد) وهو يقول: حسناً، أنا مدينٌ لك وأشكرك!

قاطعه سريعاً: لم أفعل ذلك تكفيرًا، لقد قفزت فقط؛ لأنني أعلم بأنَّ جسدك لن يحتمل المزيد.

انتفخ فمُ (راد) بضحكة حاول كتمها؛ فأشاح برأسه وهو يهزه ويقول: حسناً، أفهم هذا.

ثبت عينيه عليه وقال: عموماً يا (بارع) أنا ممتنٌ لك في كلِّ الاحوال! ممتنٌ لقلبك الكبير وبتفكيرك بشأني والدفاع عني! ممتن لك حقاً!

قاطعه بحرج: حسناً، لقد فهمت.

صمتا للحظات كان (رائد) يفكر خلالها، ثم التفت لـ(بارع) كمن تذكر شيئاً وقال: صحيح (بارع)، هل تذكر يوم الزفاف؟ هل تذكر جيداً شكل الرجل الذي أراد أنْ يقتل الأميرة؟ وشكل الجنود الأربعة الذين كانوا يلبسون الزي العسكري لـ(بيين) ويقفون في طرف الغرفة؟

باهتمام سأل: لماذا؟

حرك رأسه وهو يتنَّهد ويقول: لا أعلم لماذا يراودني شعورٌ سيء حيال ذلك، إنَّني أتذكر المشهد منذ ذلك اليوم، وأشعر بأنَّ ثمة خطأ فيه، حتى الأميرة...

كرر (بارع) باستغراب: الأميرة!

أومأ مؤكداً وأتبع: وذلك الرجل لقد اشتبكت معه مِن قبل و...

رفع يده وأشار لرسغه وقال: لقد رأيت في يده وشماً.

قطّب (بارع) حاجبيه وسأل: وكيف كان؟

رد سريعاً: كان ...

توقف فجأةً، وأمسك بشفته السفلى، وصمت يفكر، و(بارع) يراقبه باهتمام، ثم عاد ليوضح ويقول: في الحقيقة لقد شاهدت ذات الوشم على ...

صمت ولم يكمل فكيف سيخبره بأنَّه شاهده أيضاً على (طاهر)؟ عبس ثم نظر إليه وتابع: أشعر أنَّني رأيته في مكانٍ ما ولكن أين؟ لقد كان رسماً لرأس عنقاء والنيران تلتف حوله يشبه...

عبرته ذكرى قديمة في خاطرةٍ خلَّفت في عينيه نظرة ذعرٍ وهو يتم: تذكرت! حتى سيفه، لماذا لم أنتبه على ذلك مِن قبل؟!

بتوتر سأله: ما الذي تعنيه؟

وقف (رائد) وقد اختلجت ملامحه وردَّ: أشعر أنَّ الموضوع أكبر مما ظنناه، وقد تم التلاعب بنا، لا أعلم لماذا أشعر أنَّ الموضوع برمته أشبه بالمسرحية، ولكن...

عض إبهامه وهو يتمتم: ما الذي يريده المخرج مِن كل هذا؟ ولماذا أراد إيهامنا بمحاولة قتل الأميرة؟ولماذا اختفى غالبية الجنود ذلك اليوم؟!

انقبضت ملامحُ (بارع) وهو يسأل: إيهامنا؟ أتعني بأن الوزير لم يكن خلف ذلك؟! فمن يكون؟

أومأ مؤكداً وهو يجيب: الوزير متورط مامن شك ولكن ليس هذا هدفه! كما وأنني أشك بوجود طرف ثالث من...

هز رأسه نافياً وهو يتبع: كلا، يجب عليَّ أنْ أتأكد مِن ذلك أولاً.

خرج مِن الغرفة سريعاً وهو يتسخط في أعماقه، لماذا الآن حينما احتجت لـ(ليو) لم يعد موجوداً؟ هل علي إذن أنْ ...

كزَّ على أسنانه، ثم راح يبحث عن (مارغريت) ويسأل عنها، أشارت إليه إحدى الممرضات بمكانها؛ فأسرع إلى الغرفة وطرق الباب، فوجئت به وعجزت أنْ تخمِّن ما الذي يريده، خشيت أنْ يحدثها عن الموقف الأخير أو أنْ يأتيها بالرد الآن وهي غير متأهبة لذلك؛ فوقفت بارتباك وهي تشير إليه بالجلوس وتقول: تفضل، ماذا دهاك؟

اقترب وهو يعتذر بحرج: آسف! ولكني مستعجل، كنتُ أريد أنْ أسألك عن شيءٍ ما.

زفرت مرتاحة بعد أنْ أطمأنت أنْ لا شيء مما تفكر به، ونظرت إليه باهتمام، فدنا منها أكثر وسأل: بطريقة ما، هل تذكرين حينما كنّا في (دومدري) في تلك الليلة التي وقعت فيها الثورة، هل تذكرين شكل الشعار الذي كان على صدر القائد (نيرو) ومجموعته؟ أتذكرينها؟

سرحت بعينيها قليلاً؛ لتفكر ثم أجابت: حسناً، أذكر وكأنَّها كانت لطائر ما...

ابتسم بشغف وهو يسأل: العنقاء والنار تلتفُّ حولها؟

أومأت موافقة وهي تؤكد: نعم، لقد تذكرت.

والسيف؟ هل تذكرين شكل سيوفهم؟

هزت رأسها نافية وهي ترد: لا أظن أنَّ فيه شيئاً ما مميزاً.

اقترب منها أكثر؛ ليستحثها على التذكر وهو يشير إليها في الهواء بيده ويقول: أرجوك تذكري! ألا تذكرين بأنَّها مجوفة مِن المنتصف في إحدى جهاتها؟ إنَّها لا تشبه السيوف هنا مطلقاً!

شخصت عيناها وفغرت فمها مؤكدة، فسأل: هل تذكرتِ؟

هزت رأسها مؤكدة: نعم، نعم لقد تذكرتُ الآن؟ أنت محقٌّ في ذلك، ولكن لماذا؟

ابتسم بسخريةٍ وهو يهز رأسه وسأل: هل قابلتِ الأميرة مِن قبل؟

-أكثر مِن مرة، لماذا؟

-كيف بدت لكِ ؟

خفضت عينيها للأرض وهي تجيب: مع أنَّ سؤالك يبدو غريباً بعض الشيء ولكن سأجيبك.

رفعت عينيها إليه وأتمت: لم تبدُ لي سهلة مطلقاً.

ابتسم وهو يرد: وأنتِ نظرتك للأشخاص لا تخطئ.

رمقته بحيرة وحاولت أنْ تكتشف شيئاً مما يفكر به وسألت: ما الذي تفكر به (رائد)؟

نطقها لاسمه بعد كلٍّ هذا الوقت خلق في ملامحه إيماءات اشتياق ممزوج بالفرح لم يستطع أنْ يخفيه وهو ينظر إليها؛ لذا ظل يطالعها للحظات وشفتيه تتسعان عن بسمة ودودة، بينما كانت تنظر إليه باستغراب، ثم غمر قلبها شعورٌ بالخجل فزمت شفتيها وهربت بعينيها إلى الجهة الأخرى وهي تقول: لقد سألتك ما الذي تفكر به؟ فلماذا تنظر إليَّ هكذا؟

اقترب منها خطوة والبسمة ذاتها ما تزال على شفتيه وهو يرد: هذا؛ لأني فكرت للحظة متى كانت آخر مرة ناديتني فيها (رائد).

فغرت فمها عن: آآآه!

ثم مالت بعينيها يساراً وابتسمت بخجل وهي ترد: سأقولها مرة أخرى، ثم رفعت عينيها إليه وأتبعت: وأخرى و أخرى، شرط أنْ تناديني بـ(سحاب) كما اعتدت، ثم ابتسمت، فمر بخاطره قولها: " أنت لي"؛ فانتفض وهو يشيح بعينيه ويرد بارتباك: سأفعل، سأفعل، ثم ابتسم بارتباكٍ وأسرع مغادراً،

بينما وقفت تنظر إليه وتشعر بأنَّ مسافاتٍ مِن البعد بينهما قد تم تجاوزها الآن.

*****

كان ضوء الشمس المنبعث مع فتح الباب قوياً؛ لذا أغمض نصف عينيه، كان متأكداً مِن أنَّها ستكون خلف الباب، فهي وحدها مَن كانت تفتح الباب وتغلقه عليه في الأيام الأخيرة. فوجئت به جالساً على السرير وقد أنزل ساقيه على الأرض.

أغلقت الباب خلفها وعلقت: أرى أنَّك أصبحت أفضل الآن، هذا جيد!

وضعت السلة على الطاولة، ثم أخرجت الدواء والطعام منها، وقربتهما منه.

أخذ الدواء وابتلعه بسرعة وهو يرمقها بغيظ، لاحظت ذلك؛ فابتسمت بسخرية وهي تقول: لماذا تنظر إلي هكذا؟!

أحدَّ النظر إليها وقال: لقد عرفتك، أنت الخادمة التي تعمل عند معلمي (حارث)، لقد شاهدتك آلاف المرات؛ لذا أنا واثق.

خفضت عينيها وابتسمت وهي تقرِّب له الطعام وتقول: صحيح، إنَّها أنا كما قلت واسمي...

-(مياسين).

أومأت موافقة وعلقت: أنت تعرفه حتى!

تفحصها بنظراته ثم قال: ولكن ما لا أعرفه هو ما الذي تفعلينه مع الطبيب (طاهر)؟

ابتسمت بسخرية ثم سرعان ما انتفخ فمُها بالضحك، ظلَّت على هذا النحو عدة لحظات وهو يرمقها بغيظٍ إلى أنْ توقفت ونظرت إليه والبسمة الساخرة ما تزال تتربع على شفتيها وقالت: مثلما فعلت أنت مع (رائد) بالضبط.

قطب حاجبيه متسائلاً: ما الذي تعنيه؟

زمَّت شفتيها وراحت تحدق في السقف مفكرة ثم أجابته: يمكنك القول: إنَّني أبحث عن المال والمكانة فقط كما فعلت أنت.

كزَّ على أسنانه وهو يرد: ألا تعلمين أنَّك بهذا تخونين (حارثًا)؟

رفعت حاجبيها باستغراب وسخرية وهي ترد: وبماذا خنته؟!

ثم ندت منها ضحكة ساخرة وهي تتبع: حتى إنَّ (طاهرًا) صديقه.

استفزته بردِّها؛ فقاطعها بعصبية: إنَّ (طاهرًا) يخطط لشيء ما، لقد رأيته وهو يتجه إلى بيت الوزير، ما الذي يربطه به؟ وما الذي يخطط له؟

كتفت ذراعيها وظلَّت تحدق فيه للحظات بنظراتٍ متفحصة استفزته كثيراً ثم أجابت: ليس مِن الضروري أنْ يعرف عرَّاف المدينة كلَّ شيء، ثم استدارت مغادرة لكنه أوقفها صارخاً: مهلاً!

التفتت إليه فأتبع: أخبريني، لماذا أبقى علي ولم يقتلني؟

نظرت إليه بجدية وأجابت: لا أعلم، ولكن ما أعرفه أنَّه حتى الأذكياء يرتكبون الحماقات بدافع الشفقة وربما تكون هذه واحدة مِن حماقاته، ثم أغلقت الباب خلفها وأوصدته مِن الخارج، بينما رمى (إياد) بجسده على السرير وتنهَّد بإنهاك.

الفصل العاشر: لحن الوداع

ليس للناي إلا أنْ يكون حزيناً.

كانت أول بوادر مخطط (طاهر) في تأجيج رأي الناس قد حدثت في السوق؛ حيث وقعت مشاجرة بين تاجرٍ بغدادي وشامي بسبب أحد رجال (حاتم)، ثم صرخ في جمهرة مِن الناس معلقاً: هؤلاء البغداديون يرون أنفسهم علينا ولا يبغون لنا خيراً.

وسرعان ما تناقلت الألسن هذه الكلمة، ثم كثرت مثل هذه الحوادث في الأسابيع التالية ورُفعت قضايا مِن هذ النوع، وتم حبس بعض الأفراد إثر هذه المشادات والحوادث، كما أصبح الناس يذيعون أنَّ البغداديين يتصرفون كالأمراء، وأُلِّفت بعضُ الأشعار التي تحمل هذه المعاني وتم تداولها بين الناس.

*****

لفَّ (شهاب) إحساسٌ باليأس والإحباط وهو يسمع التقارير الواردة إليه بشأن المشاجرات والحوادث التي حصلت مؤخراً بين الدمشقيين والبغداديين، وما إنْ انفضَّ الاجتماع حتى دخلت عليه (جوان) وهي تعلق: يبدو أنَّ رأي الشعب من رأيي.

رمقها بسأمٍ وهو يرد: ما الذي تقولينه؟!

اقتربت منه أكثر وهي تجيب: لقد أخبرتك مِن قبل بالفعل.

رمق (زهرة) التي تقف عند الباب بنظرةٍ تنمُّ عن عدم الارتياح، أدركت ذلك؛ فارتبكت، ولكن (جوان) لم تلحظ هذا واقتربت أكثر منه وهي تتابع بحماسة: لقد أخبرتك مراراً، ولكنك لا ترى نفسك.

أجابها بحدِّةٍ وهو يرمق (زهرة) ويقول: توقفي الآن، أرجوك! هذا ليس وقته، ثم انتفض واقفاً، عَّدل ثوبه ثم عبر مِن جوارها مغادراً القاعة، بينما ظلت ترمقه بغيظ، اقتربت منها (زهرة) وإذ بها تعبِّر عما بداخلها وهي تقول: أرأيت كيف يعاملني الأمير؟ إنَّه يحتقرني ولا يحبني.

خفضت رأسها؛ لتخفي البسمة الساخرة التي اعتلتها، فلم تلاحظها الأميرة ثم أجابتها: لا تقولي ذلك يا سيدتي، إنَّه يحبك، ولكن ربما مزاجه معكَّرٌ الآن،

ولكن أنا واثقة من أنَّه يحب سيدتي، ثم اقتربت منها وربتت على كتفها وأتبعت: هيا يا سيدتي، لا ترهقي نفسك أكثر.

*****

كانت الآلام التي يشعرُ بها تمزِّق أحشاءه، وتعجزه عن التنفس طبيعيًا، ندت منه صرخة متوجعة علها تخفف مِن حدة شعوره، وطاشت يده بحثاً عن الدواء المسكن للألم الموضوع على المنضدة، ولكن لسوء حظه طرفه بيده؛ فسقط على الأرض، رفع رأسه قليلاً فوجده قد استقرَّ أسفل المنضدة، حاول أنْ يمدَّ يده نحوه ولكن لا فائدة فلم تكن تصل إليه، حاول أنْ ينهض ولكنه لم يقدر؛ فعاد ليمدَّ يده بيأسٍ ليلتقطها وإذ به يهوي على الأرض وارتطم جانبه بها؛ فصرخ متوجعاً، ثم أخذ أنفاساً متتابعة وتمالك قواه ومدَّ يده مرة أخرى والتقط العلبة أخيراً، ابتلع الدواء ثم أرخى برأسه على الأرض قليلاً، وراح يتنفس بإعياءٍ تام، وبعدها بلحظات حاول أنْ ينهض وبينما هو كذلك فُتح الباب وتسرَّب منه ضوء الشمس، وشعر بخطوات تقترب منه وتدنو إليه، كان يظن أنَّها (مياسين) تهمُّ لمساعدته على النهوض، ولكنه فوجئ بحجم الكف الذي أمسكت به وبقوة قبضتها؛ فرفع عينيه لينظر وإذ به يفاجئ بـ(طاهر)، وجم وجهه مذعوراً للحظات، تجاهل ذلك (طاهر) وساعده على النهوض، وما إنْ أجلسه على السرير حتى انهمر عليه (إياد) باندفاع معبراً عن استيائه: ما معنى هذا؟ أجبني، لماذا لم تقتلني وتحبسني هنا؟ أتظن أنَّني لن أهرب أو أفكر بالهرب؟ يمكنني أنْ أفعل ذلك في أية لحظة؟ فلماذا لم تقتلني؟ قبل أيام سمعت حديثَ الجنود مِن خلف الباب عن مخزنٍ للأسلحة، وسمعت اسمك واسم (حاتم) يتردد، أهذا يفسر غياب الجنود يوم الزفاف؟ أخبرني ما الذي تخططون له بالضبط؟

كانت ملامح (طاهر) الباردة لا تدل على أنَّه آبهٌ بما يقوله وبطريقته، أو حتى أصغى السمع إليه جيداً مِن الأساس، كان ينظر إليه بوجهٍ جامد وعينين تغرقان في فراغ يصعب قراءتهما.

شعر (إياد) بذلك؛ فتراجع إلى الوراء قليلاً ونظر إليه بريبة وهو يسأل: لماذا تنظر إلي هكذا؟!

ندت منه ابتسامة مريرة وساخرة وهو يرد: إنني فقط أشعر أنَّ الأقدار تسخر مني!

فغر (إياد) فمه مستنكراً مما قاله، فوقف (طاهر)، وأخرج السيف مِن غمده؛ فارتجفت عينا (إياد)؛ إذ تخيل لوهلة أنَّه سيسقطه على رأسه الآن، ولكنَّ (طاهرًا) لم يفعل وبدلاً مِن ذلك رفعه على مرأى بصر (إياد) وقرب مقبضه منه؛ فلمح (إياد) شعار عائلته عليه –شعار زهرة الزنبق الذهبي- نظر إليه بدهشة وهو يقول: هذا سيفي!

أعاد (طاهر) السيف إلى غمده وسأل: أخبرني، مِن أين حصلت عليه؟ إنَّ عائلة العرابي كانت مِن أقوى العائلات الشامية، وقد تمت إبادتها قبل خمس سنوات قبل الغزو مِن قبل عائلة الغوث الحاكمة، فمن أين حصلت عليه؟ هل سرقته؟

احتقن وجهه بالغضب وهو يرد: لم أسرقه، ولم أحصل عليه أو أرثه حتى؛ لأنَّه ملكٌ لي.

تفحَّصه بنظراته، ثم رمقه بحدَّةٍ وهو يسأل: تعني... أنَّك مِن عائلة العرابي؟ لماذا ينادونك الناس إذن بـ(إياد) السايس؟

ارتجفت أعماق (إياد)، لقد نسي بالضبط في أيِّ وقتٍ مِن حياته قذفَ بهذه الذكرى في أعتم نقطة مِن قلبه عله ينساها، ثم يأتي هذا بكلِّ بساطة ليسلط الضوء عليها ويجعله يراها بعينيه الاثنتين. صرخ وجهه بالضعف وارتجفت شفتاه وهو يجيب: أليس هذا واضحاً لك؟ رغم غزو مملكة أورشليم التي أودت بالعائلتين، ظل اسم العرابي يوصم بالخيانة ظلمًا، فكيف لي أنْ أسير وسط الناس مجدداً وأقول: إنَّني ابن العرابي والناس لا ينسون؟

تأثَّر صوته وهو يتم: ثم ما الفائدة وقد هلك الجميع بالفعل؟

ثم خفض رأسه مخفياً عينيه الناضحتين بالدموع، بيد أنَّ ذلك لم يشفع له عند (طاهر)؛ وإذ به يوغر بوجعه ويسأل: وإنْ كان الجميع قد هلك فكيف بقيت أنت؟

رفع إليه عينين حانقتين وأجابه: لقد ساعدني رجلاً وأنقذني مِن الموت، ثم أرسلني هارباً مع إحدى القوافل إلى بغداد، ثم بعد ذلك علمت بخبر المجزرة التي قضت على البقية.

عضَّ على شفتيه بغيظ وهو يتم: لقد مرَّت علي ليالٍ طويلة وأنا أقاسي الوحدة والقهر، أتدرك كيف يمكنك أنْ تعيش وأنت لا تستطيع أنْ تلفظ اسم عائلتك؟

أنْ تكون حراً ولكنك في الوقت ذاته مقيد، أتعلم حجم المعاناة التي كنتُ أعيشها؟ لقد أقسمتُ أنْ أُعيد لعائلتي شرفها، وأنْ أرفع اسمها عالياً بعد أنْ أطهِّر ساحتها مما أُلصق بها ظلماً.

ابتسم (طاهر) بسخرية وهو يرد: وتفعل ذلك بخدمتك للعائلة نفسها التي أبادت نصف عائلتك؟

اهتزت شفتاه بألمٍ وهو يجيب باندفاع: نعم، وسأجبرهم على فتح الملفات مِن جديد والنظر في محاكمة عائلتي المظلومة، وإعادة رفع اسمها مجدداً، هذا ما أفكر به، ولن أستطيع ذلك مالم أحصل على القوة والمنصب.

وجم وجه (طاهر) للحظات صامتاً، ثم ندت منه ابتسامةٌ مريرة وهو يهز رأسه موافقاً، ثم أحلَّ السيف مِن عقدة حزامه، ووضعه فوق المنضدة وهو يقول: عليك إذن أنْ تبقى على قيد الحياة، فكما أرى مهمتك تحتاج إلى وقتٍ طويل، ثم اتجه نحو الباب وأغلقه خلفه وأوصده، تاركاً (إيادًا) ينظر إليه وإلى السيف بدهشة وحيرة.

*****

عاد (طاهر) إلى المستشفى، وما إنْ دخل مكتبه حتى فوجئ بنايٍ جديدٍ تُرك فوق مكتبه ورُبِط بشريطة بيضاء، وفوقه زهرة ياسمين، وبجانبه ورقة صغيرة، دنى منه والتقط الورقة وإذ به يقرأ عليها:" آسفة؛ لأنني كسرت الناي مِن قبل! أرجو أنْ تقبل هذا بدلاً منه، سحاب".

قبض على الورقة بين أصابعه، ثم أمسك بالناي باليد الأخرى وراح يعاينه، غارت عيناه فيه وسبحتا، وتجاوزته ليرى أعماقه الحزينة، أعماقه التي أغرقتها الرغبة في الانتقام؛ فأظلمتها واستوت بذلك كلُّ المشاعر في قلبه، منذ ذلك اليوم الذي عاد فيه إلى دمشق، وعلم بمصير عائلته لم يعد قادراً على أنْ يحبَّ أو أنْ يبتسم بصدق أو حتى أنْ يبكي، وحده الناي كان قادراً على أنْ يترجم ما في أعماقه.

لقد فعل كل ما يقبله وما لا يقبله ليصل إلى المستشفى ويصبح طبيباً ويدخل القصر متى شاء وأراد فقط؛ ليشهد لحظة سقوطه.

رفع يده عموديًا؛ لينظر إلى الناي جيداً؛ فنزل كمه إلى الأسفل وانكشف جزءٌ مِن ذراعه ليظهر له رسم العنقاء.

وقعت عليه عيناه؛ فابتسم بسخرية، ثم قرب الناي مِن فمه وشرع يترجم كلماته بلحن حزين.

كانت (مارغريت) لحظتها تهمُّ بطرق الباب والدخول، لكنها توقفت حينما سمعت صوت الناي، فاستندت إلى الباب تستمع إليه.

لقد شعرت بحجم كلّ تلك الفوضى والاضطراب في قلبه، وكل تلك المشاعر اليائسة تخرج مع نغمات نايه، فوجئت بالدمعة التي انسلت عابرة شفتيها، فزمتهما ثم استدارت تنظر ناحية الباب، أمسكت بمقبضه مترددة ثم أخيراً حركته ودخلت.

كان (طاهر) قد فتح النافذة وجلس على حافتها يعزف بالناي، بينما رياح الليل تعبث بخصلات شعره وأطراف ثوبه.

لم ينتبه أنَّ الباب قد فُتح، ولا أنَّها قد دنت منه حتى أصبحت واقفة أمامه، كان منغمساً تماماً بعزفه، أو بمعنى أدق غارقاً في أعماقه المتأججة.

رفع شفتيه قليلاً عن الناي، ثم لمح طرف فستانها في الأسفل؛ فرفع عينيه إليها، كانت عيناها حزينتين كعينيه تماماً، أبعد الناي وعدَّل رأسه وابتسم برقة وهو يقول: شكراً لكِ على الهدية!

ابتسمت بخجل فسأل بارتباك: منذ متى وأنتِ هنا؟!

هربت بعينيها وهي تجيبه: لقد سمعتُ اللحن كاملاً، ثم صمتت للحظات مترددة قبل أنْ تفصح عن السؤال الذي أثقل أعماقها طويلاً: لماذا كلّ ألحانك حزينة على هذا النحو؟

أبدا إيماءاتٍ مستنكرة للحظة، ثم رفع إليها الناي وهو يجيب: ببساطة ليس للناي إلا أنْ يكون حزيناً.

أنزل ساقه وهبط على الأرض وهو يتبع: كما أنَّ بعض الأشخاص يملكون شعوراً واحداً لا يمكننا أنْ نرى غيره فيهم، كالحزن مثلاً أو الأمل، أو السعادة أو اليأس، كما أنَّ البحر يبعث فينا شعوراً بالخوف هو الآخر، والقمر يبعث فينا شعوراً بالوحدة، كذا الناي لا يبعث في أعماقنا سوى شعور الحزن.

عبر من جوارها ثم توقف وقال: ذلك الشاب، عيناه الناعستان تبعثان شعوراً بحبِّ الحياة رغم تهوره، ثم اتجه إلى الباب ووضع يده على المقبض وقال: (سحاب)..

شعرت بقلبها يرتجف وثمة شعور بالرهبة تملكها، لم يستغرق شعورها هذا طويلاً فسرعان ما أتم: ليس مِن الضروري أنْ تتبعينني بعد اليوم؛ بل من الأفضل لكِ أنْ تتصرفي وكأنكِ لا تعرفينني، ثم أغلق الباب خلفه، بينما بقيت هي تنظر ناحية الباب بذهولٍ تام.

الفصل الحادي عشر: الياسمينة البيضاء

الناس لا ترى إلا ما تريد أنْ تراه.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً حين كان أحدهم يسير بخطوات متزنة داخل ممرات المستشفى قاصداً الطبيب (طاهرًا)، كان شعار العنقاء يختبئ تحت كمه هو الآخر، دخل إلى مكتبه وهمس في أذنه شيئًا؛ فوقف (طاهر) سريعاً وخرج معه من الغرفة وسارا معًا، وحينما عبرا ساحة الياسمين رأتهما (مارغريت) التي وصلت لتوها وهما يعبران مُسرعَيْن.

استغربت ذلك ولكنها اتجهت إلى عملها، ووجدتها فرصة لتفكر كيف ستقابل (طاهرًا) بعد ما قاله لها البارحة.

وفي الغرفة المجاورة للغرفة التي ينام فيها (إياد) في الغابة الشرقية اجتمع (طاهر) بمجموعة رجال كلهم مِن جماعة العنقاء، كان قد وصلهم نبأ اقتراب المرسول مِن القدس ومعه أخبار كتيبة (حارث) التي كانت تفيد باستقرار الوضع، وبانتظار صدور الأوامر له بالعودة.

أبلغ أحدهم (طاهرًا) بذلك؛ فأمره أنْ يلحق المرسول قبل وصوله إلى هنا ويقتله، ويلبس ثيابه، وكتب خطاباً آخر يفيد أنَّ الأمور ازدادت اضطراباً وفوضى، وأنَّه يطلب (باترًا) شخصياً.

خرج الرجل بعد أنْ تلقى الأوامر، ثم سرعان ما فرغت الغرفة مِن الجميع عدا (طاهرًا) الذي كان واقفاً في منتصف الغرفة ينظر إلى الجدار المشترك بينه وبين الغرفة المجاورة وهو يشعر بأنفاس (إياد) المتلصصة؛ فابتسم بسخرية وهو يحدث نفسه: بما أنك سمعت فعليك أنْ توقفني، ثم خرج مِن الغرفة وأغلق الباب خلفه.

وخلف الجدار دارت عينا (إياد) مِن الخوف والرعب، وراح يفكر ويحاول أنْ يربط أفكاره: مخزن أسلحة، وإخراج (حارث) ثم (باتر)، ما من شك بأنَّهم يدبرون لأمر جلل.

*****

أبدا تملُّله وهو ينظر ناحية (حاتم) ويعلق: لقد سئمت يا (حاتم) خططك! أشعر كأنك تمشي كالسلحفاة!

رمقه (حاتم) بضجر ثم راح ينكب على أوراقه منشغلاً، بينما تابع(آصف) الثرثرة: (حارث) سيعود، و(باتر) لم يخرج بعد، وأنت ما زلت جالساً هنا، ما الذي يفعله رجالك هناك؟ أخبرني.

عضَّ (حاتم) شفته بانزعاجٍ وبدا أنَّه قد فقد هدوء أعصابه؛ فاندفع يردُّ بحنق: لقد خذلني العيارون هناك، لقد طالبوني بمزيدٍ مِن المال؛ ليثيروا مزيداً مِن الشغب، إنْ كان لديك وقت لتلقي اللوم على خططي، فاذهب واجمع بعض الرجال حولك واجعلهم يتحركون إذن، أو فكر معي بشيء يُخرج (باتر) أيضاً!

امتعض وجهه وهو يرد: أنت تعرف أنَّني لا أجيد التفكير مثلك، إنَّني أنفذ الأوامر وحسب.

بانفعالٍ ردَ: إذن، توقف عن لومي، ودعني أفكر جيداً!

في تلك اللحظة كان الباب قد طُرق وظهر مِن خلفه (طاهر) وعلى شفتيه بسمة واثقة، ولج الغرفة وما إنْ أصبح أمام (حاتم) حتى قال: لدي خبرٌ سيبهجك.

نظر إليه متطلعاً فأتبع: لقد وصل المرسول مِن عند (حارث)، ويفيد أنَّ الوضع غير مستقر، ويطلب مزيدًا مِن الإمدادات وحضور (باتر).

تدلى فكه بدهشة وهو يرد: كيف هذا؟! لقد وصلتني رسالة مِن العيا...

قاطعه بقوله: دعك منهم، إنَّهم لا عهد لهم ولا ولاء، لقد أخبرتك سابقاً أنْ تعتمد على العامة واللعب برأيهم.

ابتهج وجهه وهو يقف ويقول بامتنان: أنت عظيمٌ حقًا يا (طاهر)!

ابتسم وهو يرد: عليك الآن أنْ تبدأ بانقلابك، وتعلن الاستقلال بمجرد أنْ يخرج (باتر) مِن هنا.

أومأ موافقاً ثم التفت إلى (آصف) بلهفة وقال: ألم أخبرك بأنَّها إرادة الجميع؟

كانت أعماق (طاهر) تبتسم بسخرية مِن تعليله الأخير؛ إذ إنَّ الناس حقاً لا ترى إلا ما تريد أنْ تراه.

*****

كان (بارع) مستنداً إلى كتف (رائد) وهو يسير معه في ممرات وباحات القصر؛ ليستعيد شيئاً مِن صحته حينما اقترب منهما (باتر) وعلامات القلق على وجهه، أدركا ذلك فوراً؛ فسأل (رائد): ماذا دهاك؟ لماذا يبدو وجهك كئيباً هكذا؟

-إنَّني لستُ مرتاحاً لذلك، لقد بلغتني الأوامر مِن الأمير أنْ أترك كلَّ شيء الآن وأتبع (حارثًا).

فغر (بارع) فمه بدهشه وهو يسأل: ماذا؟! كيف؟ ولماذا؟

نظر إليه (رائد) يستحثه على الإيضاح؛ فقال: يبدو أنَّ الأوضاع قد ساءت هناك؛ لذا فقد طلب(حارث) مجيئي بنفسه.

عضَّ (رائد) شفته السفلى وهو يرد: ما كنتُ أتوقع أنَّ يطول الموضوع إلى هذا الحد.

رفع (بارع) ذراعه عن كتف (رائد) معتدلاً وقال: إنَّني غير مرتاح لذلك (باتر)، لا تذهب.

هز (باتر) رأسه نافياً وهو يرد: لا أستطيع ترك (حارث) بما أنَّه طلبني، ثم إنَّني أنا مَن أراد بشدة إيقاف المشروع، يجب عليَّ أنْ أذهب، و....

صمت للحظة مفكراً ثم تابع: (بتّال) على معرفة بالأخبار، وأفادني بأنَّه سيصل خلال أيام.

ابتهج (رائد) لسماعه الخبر وهو يعلق: حقاً؟! أخيراً سأقابله!

ابتسم له باتساع ثم نظر إلى (بارع) وقال: أماه في عهدتك، يجب عليك أنْ تتحسن سريعاً؛ لترعاها.

أشاح عينيه في خجل بينما ابتسم (رائد) وهو يرد: لا تخشَ مِن ذلك، لن أجعله مرتاحاً حتى يعود ليتبارز معي.

ابتسم لهما ثم استدار مغادراً ولم يدرِ بالأحداث العصيبة التي تنتظرهم جميعاً.

حرَّك (باتر) كتيبةً مِن الجنود، وخرج مِن دمشق بعد أنْ أغلقت أسوارها في وجهه لأمدٍ غير معلوم.

*****

تحت القبة الملونة في قاعة المرجان كانت أشعة الشمس تسقط بأعمدة عاكسة الألوان على من يجلس تحتها، كانت (جوان) تقف أمام (شهاب) وتقول: ألم أخبرك بهذا؟ حتى الناس يريدون المشروع ولكنك مازلت لا تستمع إلا لـ(باتر) هذا!

لماذا تثق به إلى هذا الحد؟ أجبني، أنا لا أفهمك، لقد رأيت كيف ازداد سخط الناس في الآونة الأخيرة، ولكنك لا تصدق شيئاً.

-يا أميـــــــــرة...

نطق بها الأمير بصوتٍ مرتفع لأول مرة، ولأول مرة أيضاً يرمقها بحدة واضحة ويتم: لقد سئمت بالفعل مِن كلامك! ما الذي تريدينه بالضبط؟!

نفثت الهواء مِن فمها كتنينٍ غاضب وهي ترد: اُنْفِهِ.

رمقها باستخفافٍ، ومع ذلك أتبعت: اثبت لي أنَّك أميرٌ للشام حقًا، وأنَّك تملك زمام الأمور هنا لا مجرد تابع مطيع لوالي بغداد.

ازداد انفعالها وهي تتبع: أنت لا تدرك مدى قدراتك!

قاطعها بصوتٍ عالٍ: توقفي!

أحدَّ النظر إليها وهو يتم: أنتِ بكلامك هذا ستفسدين حتى السلام المبرم بيننا وبين (بيين)، ثم استدار مغادراً، ولكنها أوقفته بقولها: (بيين) ستقف معك.

استدار ينظر نحوها باستخفافٍ مما قالته فأتبعت: (بيين) لن تتخلى عنك.

ابتسم بسخريةٍ وهو يرد: صحيح أنَّني أخطئ كثيراً وأتردد كثيراً ولكني لستُ ساذجاً إلى هذا الحد، (بيين) ستقف معي؟ ولماذا؟ تعنين ستجعلني دمية في قبضتها!!

ازدادت حدة صوته وهو يتم: أفضل الموت على ذلك، ثم غادر القاعة مسرعاً، بينما ظلت هي واقفة بوقار تنظر نحو الباب وعلامات الانتصار بادية على وجهها.

تحدثت بصوت مرتفع: أسمعت؟ لاأعتقد بأن الوزير الأخرق سيقنعه بعد الآن بجدوى الاستقلال بعد أنْ ألمحتُ له بأنَّ (بيين) ترغب بذلك أيضاً، وحينما لم تسمع رداً، التفتت خلفها؛ لتنظر إلى مَن قصدته في حديثها، كان طرفُ ثوبه يظهر من خلف أحد الأعمدة؛ فقالت: أسمعت ما قلته؟

رفع نايه وقرَّبه مِن فمه؛ وإذ بها تقول: هذا السلام لن يتم كما وعدتني، وسيضطر الوزير الأخرق إلى قتله كما وعدتني، صحيح؟ وستتدخل (بيين) بعدها لتفرض سيطرتها على خط القدس؟!

غرقت عيناه في الناي وتجلت له صورة (مارغريت) للحظة وهي تبتسم له؛ فابتسم ثم قال: أتعلمين لماذا زهرة الياسمين بيضاء دوماً؟

باستنكارٍ ردت: ماذا؟!

ازداد اتساع بسمته وراح ينظر إلى الناي ويتبع: مع أنهَّ لم يكن قادرًا على حُبِّ أيَّ شيء، لكنه لم يكن يدرك أنَّ حبها كان يتسلل شيئاً فشيئاً لأعماقه، لقد أحبها فعلاً... ومع ذلك غادرته. لا يهم لماذا وعلى أيِّ شكلٍ غادرته، ولكنه كان يعلم أنَّ قلبه الأسود يخشى البياض ولا يمكن له أنْ ينسجمَ معه على أية حال.

قاطعته: ما الذي تتحدث عنه؟

تابع غير آبهٍ بسؤالها: ومع ذلك لحقها مِن مكانٍ إلى مكان، كانت كلما بكت نبتت أزهار بيضاء إثر دموعها، وحينما وصل إلى المكان وشاهد الزهور البيضاء علم أنَّها كانت هنا، فكان كلما أمسك بوردة انحنت له، وتغير لونها؛ فأصبحت الأرض ملونة بالأزهار، إلا أنَّ ثمة زهرة رفضت أنْ تنحني له.

رفع عينيه لأعلى القبة وعبرته خطوطُ الضوء فابتسم بألمٍ وهو يتبع: لقد كانت هذه الزهرة هي الياسمين؛ لذا ظلت بيضاء كما هي، إنَّها تشبهها بالفعل.

رفعت حاجبيها مستنكرةً وهي تسأل باستخفافٍ واضح: وما معنى ذلك الآن؟!

اعتدل والتفت إليها أخيراً وقال: لا شيء، لقد كانت محض أسطورة يونانية تذكرتها فقط، ثم حياها باحترام وهو يتم: سيدتي الأميرة، سيحدث كلُّ ما تتمنينه بإذن الله، سأفعل ما بوسعي، إنَّ كلَّ رجالي تحت إمرتك؛ أمَّا الآن فعلى سيادتك أنْ توهمي (زهرة) الجاسوسة أنَّكِ تحدثت مع الأمير وأنَّه يميل إلى قرار الاستقلال.

أشاحت بعينيها وهي ترد: حسناً، بإمكانك الانصراف الآن.

انحنى، ثم غادر المكان، بينما ظلت هي ترمقه باستخفافٍ وتحدث نفسها: زهرة بيضاء وياسمين! ما هذا الهراء الذي كان يتحدث به؟!

أما هو فتوقف بعد أنْ قطع مسافةً طويلة ونظر إلى الناي وحدث نفسه: أما هو فقد أدرك أنَّ الزهرة التي لم تنحنِ له، كانت تشبه روحها حقاً، روحها التي تقترب وتبتعد، تبتعد وتقترب، ولكنّه في كل مرة لم يكن قادراً على لمسها، ولأول مرة يشعر برؤيته وقد أصبحت ضبابية، ثم سرعان ما انسلَّت دمعة هاربة على خده، شعر معها بوجعٍ لم يعرفه مِن قبل.

الفصل الثاني عشر: الثأر

هل يوجد شيءٌ أجدر بالاحترام مِن ظلم بَعُدَ به العهد؟!

فولتيير.

كانت (كادي) تتلوى مِن الألم الذي انتباها فجأة وجعلها تستند إلى الكرسي وتشدُّ ظهرها إليه. في تلك الأثناء كان (رائد) قد غادر غرفته، وفي نيته أنْ يخرج لمقابلة (بارع) والاطمئنان عليه. توقف أمام الفناء بعد أنْ لاحظ علامات الألم والتوجُّع على وجهها؛ فأسرع نحوها، وما إنْ شاهدته واقفاً أمامها وينظر إليها بقلق حتى حاولت أنْ تعتدل وتتظاهر أنَّها بخير، وعاجلته بقولها: ألم تذهب بعد؟ لقد انتصف النهار!

-سيدة (كادي)، أنت بخير؟

لوَّحت بكفها بتوترٍ وهي ترد: أنا بخير، لا تقلق، إنَّها الآلام المعتادة!

ولكن تبريرها لم يقنعه؛ لذا اقترح: هل أخذك إذاً إلى المستشفى أو أجلب لك طبيبة؟

هزَّت رأسها نافية وهي ترد: كلا، إنَّه ألم بسيط، أستطيع احتماله، ولكن أخبرني، هل مِن أخبار عن (حارث)؟

هزَّ رأسه نافياً بيأس؛ فابتسمت ملاطفة وهي ترد: لا عليك ولا تقلق علي، واذهب إلى عملك.

اعتدل وهو يتلفت حولها ويسأل: أين (مياسين)؟ لماذا ليست هنا؟

-لقد خرجت إلى السوق.

كرر باستنكار: إلى السوق؟! كم مرة في اليوم عليها أنْ تفعل ذلك.

ردت (كادي) ببراءة: إنَّها مسكينة تعمل ليلًا نهارًا، وتحضِّر؛ لاستقبال طفلي؛ لذا هي في غاية الانشغال.

أبدى إيماءات موافقة، إلا أنَّ أعماقه كانت ترفض ذلك؛ إذ عانقه شعورٌ بالشك منذ ذلك اليوم الذي اختفى فيه (إياد) وشاهد معها القميص الملطخ بالدماء.

لاحظت شروده؛ فحركت رأسها قليلاً تنظر إليه؛ فانتبه وابتسم بحرج وهو يرد: حسناً، سأذهب الآن، ثم انطلق قاصداً الباب ولكنه توقف بمسافة بسيطة عنه؛ إذ شاهده يُفتح وتدخل منه (مياسين) وبيدها سلة. نظر إلى السلة بريبة، ثم عرج على عينيها، دُهشت مِن وقوفه؛ فأحنت رأسها محيِّيةً له بارتباكٍ واضح، ثم تابعت تقدمها وعبرت مِن جواره، ولكنها توقفت عندما سمعته يقول: أين كنتِ طوال النهار؟

أزعجها السؤال ولكنّها قاومت انزعاجها والتفتت إليه وهي تبتسم وتجيب: كنتُ في السوق؛ لشراء بعض الأشياء لسيدتي.

بحدة رد: إنَّ سيدتك تتلوى مِن الآلام هذه الأيام، ومن الأفضل ألَّا تغيبي عن البيت كل هذا الوقت، ثم هل السوق يحتاج أنْ تقضي منتصف النهار فيه؟ أم أنَّك تذهبين إلى مكانٍ أبعد؟ أتساءل حقاً.

شدَّت على مقبض السلة ورمقته بحدة وهي ترد: غريب حقاً! لماذا يبدو لي سؤالك وكأنك ترتاب في، وبأنك تحقق معي؟ آسفة لما سأقوله، ولكنَّ بقاءك هنا لا يخوِّل لك أنْ تتصرف وكأنك سيدي!

-أنا لا أحقق معك ولكنَّ... إنَّ الوقت الذي تقضينه بالخارج بينما السيدة في حاجة إليك طويلٌ حقا، ويثير الريبة بالفعل.

أشاحت بعينيها عنه وهي تبتسم باستخفافٍ مما قاله، وسرحت عيناها على الأرض للحظات قبل أنْ تقول: لقد سمعتُ أنَّك غامرت بحياتك مِن أجل تحرير العبيد، ولكن ها أنا أرى أنَّك تحاول التقليص مِن حريتي وتراقبني وتشك بي، حقاً إنَّ أصحاب المبادئ هم أول مَن يخونها!

ألقت عليه الكلمة الأخيرة وهي ترمقه بحنقٍ، ثم استدارت مغادرة، ولكنه أوقفها بقوله: توقفي.

توقفت دون أنْ تلتفت إليه فقال: الثوب في ذلك اليوم، لقد رأيته، كان ملطخاً بالدماء! أتساءل حقاً لمن تعود تلك الدماء؟

ارتجف قلبها للحظة؛ إذ لم تتوقع بأنَّه قد لاحظها بالفعل، ومع ذلك ابتسمت بسخرية وهي تجيبه: مِن الطبيعي أنْ تجد بعض الدماء على أثواب النساء، فكفاك وقاحة.

أخرسها رده: لم يكن ثوبًا نسائيًا.

شخصت عيناها فأتبع: لم يكن ثوباً أصلاً، كان قميصاً، وقميصًا لرجل.

التفتت إليه أخيراً وقالت وهي تحاول كتم غيظها: إلى ماذا تريد أنْ تصل؟

فوجئت به يقترب منها إلى أنْ وقف أمامها مباشرة، ومع أنَّ أطرافها تجمدت إلا أنَّها لم تستطع أنْ تخمن ما الذي يفكر به، وما الذي ينوي فعله، ولم تطل حيرتها؛ إذ قبض على معصمها بقوة أذهلتها وجعلتها تصاب بالشلل دون أية مقاومة، ثم كشف عن نصف ذراعها، ليفاجئ بأن ما توقعه كان صحيحاً، لقد شاهد الوشم ذاته الذي شاهده على الرجل مِن قبل، وشم العنقاء!

عرج إلى عينيها المصدومتين، ثم عاد لينظر إلى الوشم، ولكنّها صرخت وسحبت يدها لتفلت منه وغطت ذراعها وهي تقول: أنتَ وقح!

جاءت (كادي) مسرعة بعد أن سمعت الصرخة، وتوقفت وهي تنظر إليهما وهما على هذا النحو المريب، وما إن انتهبتْ لوجودها (مياسين) حتى اندفعت نحوها تعانقها وهي تبكي بشدة وتكرر: سيدتي، سيدتي، إنَّه... سيدتي.

نظرت (كادي) إلى (رائد) بريبة واستفسار، ولكنه عبس ولم يردّ عليها بشيء، واستدار خارجاً مِن البيت وأغلق الباب خلفه.

توقف بعد أنْ ابتعد قليلاً ونطق: (إياد) حيٌّ، و(مياسين) تعرف جيداً مكانه، أنا واثق مِن ذلك، ولكن ما الغاية وما الهدف وما الذي يفعله أصحاب هذا الوشم؟هذا ما يجب عليَّ كشفه.

أخذ نفساً عميقاً، ثم اتجه ناحية القصر.

كان القصر هادئاً على نحو يثير الريبة، فلم يقابل أيَّ شخصٍ في طريقة، ومع ذلك تابع تقدمه، ولكن خلوَّ الممرات والساحات مِن الجنود والموظفين زاد مِن ريبته، ركض سريعاً نحو الثكنات ولكنه فوجئ بخلوها.

هل حدثت عاصفة أثناء الليل أطارت بالجميع، ما الذي يحصل؟!

لوهلة طرأت في ذهنه (مارغريت)، فحرك ساقيه مُتجهًا نحو المستشفى، ولكنه توقف فجأة؛ إذ وقعت عيناه على الرايات الملونة التي رُفعت فوق القصر الملكي؛ فشخصت عيناه وانبرت في أعماقه أسئلةٌ كثيرة، وعجز عقله أنْ يعطيه تفسيراً مقنعاً لما يراه، ففي البارحة كانت رايات الاتحاد ترفرف عالياً، فما الذي يعنيه تنكيسها اليوم؟

لم يطل تفكيره فقد شاهد عدة جنود وهم يندفعون خارجين مِن أحد الممرات يقصدونه، أخرج سيفه مِن غمده ووجد نفسه وقد حوصر بعشرة جنود.

كانت الأوضاع في المستشفى مضطربة، وكان الصراخ والفزع إثر اقتحام الجنود المسلح قد ملأ المكان وأثار الفوضى، كان (بارع) يرقد في سريره دون أنْ يعلم ما الذي يحدث خارجاً، ولكن الأصوات المضطربة جعلته يفيقُ ويجلس على السرير مستنكراً، وفجأة فُتح باب غرفته وظهر مِن خلفه عدة جنود، اقتربوا منه مشهرين سيوفهم في وجهه؛ أما (مارغريت) فقد تم حصارها مع مجموعة مِن الأطباء في أحد ممرات المستشفى. كان الجندي يأمرهم بعدم الصراخ والهدوء، ويخبرهم بأنَّ الأوضاع في الخارج في حالة ثورة.

لم تستطع (مارغريت) أنْ تحتمل كل ذلك، واستطاعت أنْ تغافِل الجندي الذي كان يراقبهم وتفر هاربة، اصطدمت بآخر ولكنها باغتته بلكمة على وجهه جعلته يلتف حول نفسه؛ وأسرعت هاربة متجهة نحو مكتب (طاهر)، ولكنها فوجئت بأنَّ الباب مفتوح، وشاهدت جنديين يقفان أمامه، لولهة ظنتهما يحاصرانه؛ لذلك اندفعت دون تفكير، ولكنها توقفت حينما سمعت صوته يخرج مِن الغرفة ويقول: هل حاصر جنود (حاتم) قصر العلالي ومنزل (حارث)؟

رد عليه: نعم سيدي.

بحدة: وماذا كنتما تفعلان؟! اسمعا.. بأيِّ طريقة عليكما أنْ تتسللا وتخطفا زوجة (حارث) وأمَّ (بارع)، ولا تنسَيا ابنة (بتال)، لا بدَّ أنْ يبقين تحت أيدينا.

أومؤوا موافقين، ثم انطلقا سريعاً فاختبأت (مارغريت) خلف الجدار للحظاتٍ حتى اختفيا، ابتلعت ريقها غير مصدقة ما سمعته، وبدل مِن أنْ تفرَّ هاربة، وجدت ساقيها تضربان في الممر المؤدي إلى غرفته، ووقفت أمام الباب مباشرة تنظر إليه بوجه غارق في لب الصدمة، لم ينبته لوجودها؛ إذ كان مديراً ظهره للباب ويبحث في الدواليب عن شيءٍ ما، ولم يتوقف إلا حينما تحركت شفتاها ناطقتان بوجع: لماذا؟!

التفت ناحيتها بفزعٍ، وسرعان ما لانَ وجهه عن إيماءاتٍ مريرة وهو ينطق: هل سمعتِ؟!

تقدمت بثقلٍ نحوه وهي تقول: لماذا(طاهر)؟ هل أنت شريكٌ في هذا الانقلاب؟ ألهذا طلبت مني أنْ أتظاهر بعدم معرفتك؟

تقدمت بِثقلٍ أكثر وهي تتبع: لماذا تغدر بـ(حارث)الذي ساعدك؟ بل كيف تغدر بالأمير الذي..

قاطعها بحدة: توقفي!

ثبتت في مكانها بيدَ أنَّ عينيها لم تتوقفا عن الدوران بصدمة؛ أما هو فقد تابع: أنا لا يهمني ثورة أو انقلاب، أطماع (بيين) أو استقلال الشام، أنا سأخذ بثأري فقط.

اهتزت شفتاها وهي تنطق: ثأر؟

ابتسم بمرارة وهو يمد يده ناحية الدرج الأول مِن مكتبه وهو يتبع: لا يمكن لمن تشبه الياسمين على أية حال أنْ تفهم ما أعنيه.

أخرج حبلًا والتفت نحوها؛ فوقعت عيناها عليه، ولكنها لم تعِ شيئًا حتى اقترب منها فأدركت ما الذي ينوي فعله؛ فانتفضت وهمَّت بإخراج الخنجر مِن حزامها ولكنها توقفت بعد أنْ شعرت بتيبس أطرافها؛ إذ كان قد أصبح ماثلاً أمامها وهو يقول: لا داعي لأنْ تفعلي ما لا ترغبين به، لن تستطيعي أنْ ترفعي سلاحك في وجهي.

أمسك بمعصميها بقوة؛ فقاومته بوهنٍ واضح، لقد أعجزتها الصدمة فأبقتها مستسلمة.

ربط معصميها وهو يقول: سامحيني على ذلك! يجب أنْ تبقي بعض الوقت هنا، إنَّ هذا لمصلحتك.

نظرت إلى عينيه اللتين تشبهان عيني (غيث) إلى حدٍّ كبير وفي أعماقها نبتَ سؤالٌ أعياها، لماذا لم تدرك قبل اليوم أنَّهما لا تشبهانهما فقط من حيث رسمتهما، وإنَّما في أغوارهما اللتين تفيضان بألمٍ مكتوم وجريح؟

شعرت أنَّ ثمة لجام ألجم فمها فجعلها صامتة لا تستطيع أنْ تنطق بحرف واحد، عدا أنَّ عينيها كانتا تنظران إليه بمزيجٍ مِن الصدمة والشفقة والمرارة والألم.

وأخيراً انتهى بها الحال مقيدة اليدين والقدمين على عامود المنضدة. عاد ليبحث بالدواليب، ثم أخرج سيفاً مِن أحدها؛ فأثار ذلك دهشتها، ثم أخرج جزءاً منه مِن غمده؛ فلمحت شعار وردة الزنبق على مقبضه، أعاده إلى غمده واتجه ناحية الباب ولكنه توقف فجأة؛ إذ شعر برغبةٍ في التوقف والنظر إليها وكأنَّ ثمة خيط غير مرئي قد امتد منها ليعلق فيه و يعيقه عن التقدم، همست أعماقه مستنكرة: ما الذي أفعله؟ لماذا أرغب بالتوقف الآن؟!

رفع كفيه لتغور عيناه في حمرة الدماء التي أغرقهما بها؛ فندت مِن شفتيه بسمة مريرة، وإذ به ينطق: أعلم بأنَّك لم تكوني قادرة على أنْ تحبينني يوماً ومع ذلك...

رفعت إليه عينين مصدومتين؛ أما هو فقد ابتسم بعد أنْ عبرت شفتيه دمعة حادة كما وكأنها قد قطعت بعبورها خيط (كانداتا) الذي مدته إليه مارغريت

قبل قليل؛ فهوى إلى خطيئته... ومع ذلك أتبع: أريدك أنْ تعرفي أنَّني أحببتك بصدق!

مضت ساعتان لا تعرف كيف انقضتا، كان كلُّ ما يملأ ذهنها هي تلك الأيام التي عرفت فيها (طاهرًا) وقضتها برفقته.

رفعت عينيها إلى الأعلى غارقة في بحر تتلاطم فيه أمواج اللوم والندم.

لماذا لم تلحظ مِن قبل تلك الرغبة في التدمير في عينيه؟ عيناه الواسعتان تحمل ألماً يجعل المتأمل فيهما يشعر برغبة في البكاء، فلماذا لم تلحظ كل ذلك مِن قبل؟

صفا ذهنها للحظة وأدركت أنَّها تنظر إلى المكتبة الزجاجية، وتذكرت أنَّها قد شاهدت على المكتب التي رُبطت به علبة دواء زجاجية، لم تتردد طويلاً ونفذَّت الفكرة، ظلت تدفع المكتب بظهرها بكلِّ قوتها؛ فاهتز الدواء في الأعلى، ومع كثرة الضرب سقط ثم انكسر بجوارها، حركت جسمها بصعوبة وانحنت علَّ أصابعها تستطيع أنْ تمسك بقطعةٍ مِن الزجاج، بعد جهد ومحاولات فاشلة استطاعت أنْ تلتقط إحدى القطع وشرعت تحكها بالحبل، كانت فكرة أنْ تخلِّص (كادي) و(بيلسان) و(عروب) جعلتها أقوى على احتمال الألم وتمزيق أصابعها بالزجاج، كانت أفكارها حائرة ومتلاطمة، لا تدري ما الذي يجب عليها فعله؟ هل تلجأ إلى (رائد) أو (بارع) أولاً، ولكن أين ستجدهما في هذه الفوضى؟ ومع ذلك يجب عليها أنْ تتحرك وألَّا تبقى ساكنة.

استمرت بحكِّ الحبل حتى شعرت بتحرر يديها قليلاً؛ فازدادت قوتها وراحت تحكه بقوة أكبر حتى تخلصت منه ، ثم حررت ساقيها وخرجت سريعاً.

كان القصر قد طُوِّق برجال (حاتم)، وكان مخدع الأميرة قد طُوِّق هو الآخر.

كان (شهاب) محاصراً، وكان يزبد ويرعد لا يدري ما يفعل، لقد انقضت عليه ساعات النهار وهو حبيس في القصر لا يدري ما يدور خارجه، ولا يدري مَن الذي يقوم به، وكيف حدث وأنْ استسلم جنوده سريعاً على هذا النحو.

ولم يكن يعلم أنَّ رايات الاستقلال أيضاً قد رُفعت فوق أسوار دمشق.

أما (جوان) فقد كانت تُسرِّح شعرها ببرود تام وهي تسأل (زهرة) عن الأحوال في الخارج.

وأما الشارع فقد كان في فوضى تامة؛ إذ كان الجنود منتشرين في كل مكان، وكان أغلبهم حول الأسوار والبوابات، وأعلنت حالة الاستنفار، كانت أحاديث الاستقلال عن بغداد تتوارد في الشارع على ألسنة العامة باستنكارٍ وقبول وحماس وسخط، وتباينت ردَّات الفعل ولكن كثيراً منهم كان يلعنُ في أعماقه توقف أعماله والولوج في مثل هذه الفوضى، وأظهر البعض مخاوفهم مما هو آتٍ، فبغداد لن تصمت، كما أنَّها قد تكون فرصة مواتية تستغلها (بيين) في نبذ الاتفاق المبرم بينهما.

*****

في منتصف الليل، وفي الغابة الشرقية كان باب الغرفة يُفتح، وكان (إياد) مُمَدَّدًا على فراشه؛ فانتفض جالساً بسبب مجموعة جنود ظهرت مِن خلف الباب ساحبة معها أربع نسوة مقيدات الأيدي، وبينهم امرأة حبلى وطفلة لا تتجاوز الخامسة، دفعوهم بقسوة للدخول، وما إنْ رأت (مارغريتُ إيادًا) حتى ابتهجت وهي تعلق: أهذا أنت؟! لقد كان (رائد) محقاً بأنَّك على قيد الحياة!

اقترب أحد الجنود ودفعها بقسوة؛ ففقدت توازنها وكادت تسقط على الأرض لولا أنَّ (عروب) دفعت بنفسها؛ لتسندها، فلحقتها (بيلسان) الصغيرة وهي تتشبث بها وتبكي. وقف الجنديُّ أمام (إياد) الذي نظر إليه بدهشة فلم يكن يعرف شيئاً مما يحدث في الخارج، وجَّه سيفه نحوه وهو يقول بصوت آمرٍ: قف؛ حتى أقيدك!

وقف دون مقاومة وهو يدور بعينيه كعقارب الساعة حول هؤلاء النسوة الأربعة المقيدات وهؤلاء الجنود، بينما اقترب منه أحدهم، وما إنْ هم بتقييده حتى توقف؛ إذ سمع صوتاً يقول:

-لا داعيَ لأنْ تكون قاسياً معه إلى هذا الحد، إنَّ إصابته خطيرة، وسيموت على أية حال، حلو قيودهم.

دارت أعناق الجميع نحو الباب؛ إذ كان المتحدث هو (مياسين).

شخصت عينا (كادي) بصدمة وهي تعلق: أنتِ؟! لماذا؟!

ندت منها تنهيدةٌ متعبة وهي ترد: بإمكانك أنْ تقولي لم يكن أمامي خيارٌ آخر.

قطّبت (كادي) حاجبيها مستنكرةً هذا الجواب الغريب، إلا أنَّ (مياسين) تجاهلتها ونظرت إلى (مارغريت) ووجهت حديثها لأحد الجنود: هذه، كيف لها أنْ تكون هنا؟!

أجابها: لقد كانت بمنزل (حارث)، وقد أبدت مقاومة شرسة؛ لذلك لم نجد بُدًّا مِن إلقاء القبض عليها هي الأخرى.

أومأت موافقة ثم قالت: أبلغ (طاهرًا) بذلك إذن، وأبلغه أنَّ المهمة تمت.

ما إن سمع الجميع اسم (طاهر) حتى دارت أعناقهم نحو (مارغريت)، ولكن الدهشة لم تبدُ على وجهها، ولم تعلق بشيء، لقد بدا لهم بوضوح أنَّها تعرف ذلك جيداً.

بعد لحظات فرغت الغرفة مِن الجنود، وخرجت (مياسين) أيضاً وأغلقوا الباب عليهم بإحكام.

تلفَّتت (كادي) حولها وهي تسأل: أخبروني ما الذي يحدث؟ أنا لم أفهم شيئاً.

جلست (عروب)على الأرض واتكأت على الجدار وهي تحتضن ابنتها إليها وتعلق: لا فائدة مِن الوقوف، اجلسي وإلا سترهقين نفسك.

لحقتها (بيلسان) وجلست بجوارها، ولكن (كادي) ظلت تنتقل ببصرها نحوهم علها تجد إجابة، اقتربت منها (مارغريت) وأمسكت بذراعها وهي تقول: اجلسي أولاً وارتاحي، لا شك أنَّك متعبة، ثم سحبتها إلى جوار (بيلسان)

وأجلستها، ولكنها عادت لتسأل: ما الذي يحدث؟ لماذا نحن هنا؟ وما شأن (طاهر) بذلك و(مياسين)؟

نظرت إليها (عروب) ببرود وهي ترد: أليس مِن الواضح أنَّنا رهائن؟

كررت باستغراب: رهائن؟!

أشاحت (بيلسان)؛ لتخفي قلقها وهي ترد: مِن الواضح أنَّهم ينوون استخدامنا كرهائن؛ ليضغطوا على قيادات بغداد ويغير رجالنا موقفهم، هل فهمتِ؟

-أخبروني أولاً ما الذي يحدث في الخارج؟

كان مَن نطق بذلك السؤال (إياد)؛ فتحولت أنظارهم نحوه، تساءلت (بيلسان): مَن هذا؟

-أهو أيضاً رهينة للضغط؟ قالتها (كادي).

أما (عروب) فقد حدقت فيه للحظة وهي تعلق: أنت الذي ساعدتني ذلك اليوم، هل كنتَ محبوساً هنا طوال هذا الوقت؟

أومأت (مارغريت) موافقة، ثم وجهت حديثها نحوه وهي تقول: إنَّ هذه الليلة طويلة على دمشق.

*****

استقلال....!

دوت هذا الكلمة عالية في قاعة المرجان معبرة عن رفض (شهاب) لما سمعه من (حاتم) للتو. كان (حاتم) مسلحاً بزيه وعلى يمينه (آصف) وحولهم الكثير مِن الجنود.

تابع باندفاع: لا يمكن لهذا أنْ يحدث، كيف لك أنْ تتصرف هكذا وتعطي أوامرك للجنود.

قاطعه (حاتم): ولكن يا سيدي، أنت أبديت مِن قبل موافقتك.

قاطعه باستغراب: ماذا؟! أنا لم أفعل هذا مطلقاً، ولن أسمح بذلك.

صمت للحظة ثم أتم: اسحب جنودك فوراً، وانهِ هذه الفوضى قبل أنْ يصل الخبر إلى بغداد.

رد عليه بفظاظة: لقد وصل بالفعل! لقد حركنا مرسولاً منذ أسبوع بذلك.

انتفض بغضبٍ واندفع نحوه وهو يصرخ: ماذا؟!

لكنه توقف فجأة عندما لاحظ تحرك الجنود السريع وسحبهم لسيوفهم.

نظر إلى (حاتم) بسخرية وهو يعلق: أيعني هذا أنَّني رهينتك؟!

نظر إليه (حاتم) بثبات وهو يقول: آسف لفعل ذلك! لكن أعدك أنَّك ستكون بأمان سيدي حتى تعلن الاستقلال، ونحن سنحارب قوات بغداد ولن نخشى شيئاً، إنَّ ثمن الحرية غالٍ وعلينا أنْ ندفع ثمنها.

رمقه باستخفافٍ وهو يرد: لا تلوِّح لي بمثل هذه الشعارات البراقة فأنا أدرك تماماً أيّ جحيم خلفها، سيدفع ثمنه الناس، لا أنت.

رد سريعاً: وهم سعداء بذلك.

-أنت تستغلهم بهذه الشعارات، بينما تحصن نفسك وتصون حياتك.

- ليكن، فلستُ أول مَن يفعل ذلك.

أدى له التحية العسكرية، ثم أمر جنوده بالخروج مِن القاعة معه، بينما ظلت بعض قواته تحاصر المدخل والقصر مِن الخارج.

*****

في صبيحة اليوم التالي كان (بتّال) وصل إلى منتصف الطريق الذي يؤدي إلى دمشق دون أنْ يعرف ما الذي حدث ويحدث هناك، وفوجئ بكتيبةٍ لحقته؛ لتخبره بالذي جرى، وبلحاق الجيش به؛ أما (باتر) الذي كان لتوه قد وصل إلى خط القدس القديم؛ لملاقاة (حارث) فوجئ لاندهاش (حارث)

بمجيئه إليه، وفوجئ أيضاً بأنَّ الأوضاع كانت مغايرة للصورة التي وصلت إليه، نظر إلى (حارث) بوجهٍ مرعوب وهو يرد: أشعر وكأنَّه قد تم إبعادنا عمداً، هناك ثمة أمر يحدث بدمشق بلا شك.

لم تمضِ ثلاثة أيام حتى وصلهم الخبر، فجمعا الجنود وتحركا عائدين إلى دمشق؛ ليتقابلوا مع قوات (بتّال)، وفي غضون أسبوع كانت جميع القوات البغدادية قد حاصرت أسوار دمشق الثائرة.

الفصل الثالث عشر : الحلم

ما معنى السلام المبني على قتل الآخرين؟ سيولد أناسٌ؛ ليأخذوا بثأر الآخرين، فالدماء تنادي بعضها، ستجدُ في كلِّ مرة مَن ينادي أنَّ قضيته هي العادلة، وأنَّ ما دونها ضلال.

أُلقي بـ(بارع) و(رائد) في زنزانة مظلمة، كان الواحد منهما يعطي ظهره للآخر وقد رُبطت أيديهما مِن الخلف ببعضهما، فكان مِن الصعب تحريكهما.

كان (رائد) هادئاً؛ أما (بارع) فقد كان يبدي تسخطه مِن وقت لآخر، وكان يحاول فكَّ العقدة بتحريك يديه مِن حين لآخر بمساعدة (رائد)، ولكن بعد عدة محاولات فاشلة توقفا، أسند (بارع) رأسه إلى رقبة (رائد) وهو يقول: كيف انتهى الأمر بنا مربوطين ببعضنا هكذا؟

لم يجبه (رائد) بشيء فأتبع: أتعتقد أنَّ الخبر قد وصل إلى شقيقي (باتر)؟

حنى رأسه ناحية (رائد) محاولاً أنْ ينظر إليه، ولكنه لم يبدِ أيَّ تعبير فتابع (بارع) قوله: أتظنُّ أنَّ أمي بخير؟ وماذا عن (عروب) و(بيلسان) الصغيرة؟

حينما لم يصله شيء زم شفتيه بغضب ودفع برأسه إلى الخلف بقوة؛ فأصاب مؤخرة رأس (رائد)، وأخيراً خرج صوته متوجعاً، ومال برأسه؛ ليبعدها وهو يقول: ما الذي تفعله يا أحمق؟! لقد أوجعتني.

-لماذا لا ترد علي؟ لماذا تصمت هكذا؟

-إنني أفكر فيما تقوله.

لوى رقبته بتوجُّعٍ وهو يتمتم بتذمر: لقد أوجعتني حقاً! منذ متى وأنت ثرثار؟

صمت للحظة؛ إذ عبرته ذكرى سريعة لـ(بارع) وهو في بغداد خلَّفت بسمة على شفتيه إثرها، فعاد ليقول: لقد تذكرت، لقد كنتَ هكذا مِن قبل.

مال برقبته عليه مرة أخرى؛ ليضربه وهو يرد: ماذا؟ أتسخر مني الآن؟

أسرع (رائد) ومال برقبته ووضعها بين ساقيه لئلا يصيبه مرة أخرى وهو يرد: وهل قول الحقيقة سخرية؟

لوى (بارع) فمه وهو يقول: لا فائدة منك.

رفع (رائد) رأسه قليلاً وقال: أهكذا تقول عن معلمك؟

لفَّ (بارع) رأسه ناحيته عله يشاهده ولكن لم يكن قادرًا على أنْ يشاهد سوى جزءٍ مِن ساقه فردّ: مَن قال ذلك؟

ابتسم (رائد) بسخرية وهو يرد: أنت قلت ذلك في الغابة الشرقية قبل أنْ تدافع عني.

لوى فمه باستخفاف وهو يرد: لا شكَّ أنك كنت تتوهم، أو أنك لم تسمع جيداً.

قاطعه سريعاً: بل سمعتُ جيداً، لقد قلت لي (معلمي).

مطَّها وهو ينطقها ثم تابع: وقفزتَ نحوي وجعلت مِن نفسك درعاً لي.

قاطعه: حسناً، حسناً، لقد فعلت، لا تغترّ كثيراً، ثم أرخى رأسه بيأسٍ وهو يقول: اسمع، إلى متى سنظلُّ نتعارك هكذا كأحمقين والخارج يشتعل، يجب أنْ نهرب مِن هنا بأيِّ طريقة.

زفر (رائد) بيأس ثم سأل: هل قام (حاتم) بفعل شيء ما قبل أنْ أصل؟

استغرب (بارع) مِن سؤاله ولكنه أجاب: لقد كنّا نشعر بيده في بعض الأمور التي حدثت، ولكن لماذا تسأل عن هذا؟

ابتسم (رائد) براحة وهو يرد: لأنني بدأتُ أشعر وكأنَّني (كونان) أينما حللت وقعت المصائب.

باستنكارٍ كرر (بارع): (كونان)! ومَن يكون ذا؟!

- لا عليك، أظن بأنَّني أشبه زديج* أكثر.

نطقها خطأً وهو يقول: زريج؟! ومَن هذا الآخر؟

أرخى (رائد) رقبته على رأس (بارع) وهو يجيبه: إنَّه مِن أبطال (فولتير) وهو سيء الحظ مثلي تماماً.

---

*إشارة إلى رواية القدر لفولتير.

ابتسم (بارع) ثم سرعان ما انفجر ضاحكاً، وأمام هذا الضحك ابتسمت شفتا (رائد) باتساع، فهذه أول مرة يسمعه يضحك فيها على هذا النحو منذ قابله.

فُتحت نافذة باب السجن الصغيرة وبدت لهما عينا السَّجَّان الذي صرخ يقول: تضحكان وستعدمان قريباً!

وقع تقريعه كالنكتة على سمعهما؛ فانفجرا ضاحكين ولم يصمتا أو يتوقفا إلا بعد لحظات بعد أنْ توقف (بارع) فجأة وهو يقول بيأس: معلمي، يجب أنْ نخرج من هنا!

صمت (رائد) ثم ابتسم وهو يرد: آآآه، ها أنت قلتها للمرة الثانية، لقد سمعتها.

خفض رأسه مستسلماً وهو يرد: نعم صحيح.

سكت للحظة ثم ندت مِن شفتيه بسمة ودودة وهو يتم: هذا لأنَّني مازلتُ أعدك معلمي.

ابتسم (رائد) باتساع وهو يرد: عليك إذن أنْ تكون ساعدي الذي يضرب، وسأكون ظهرك الذي يحميك..(بارع).

مال (بارع) برأسه؛ ليستمع باهتمام فتابع (رائد): هل تستطيع أنْ تجمع بعض الرجال في صفنا؟

فكَّر للحظة قبل أنْ يجيبه ثم قال: إنْ كان باسمي فلا، ولكن إنْ كان باسم (باتر) و(بتال) فأعتقد أنَّ الملخصين لهما كثر، ما الذي تفكر فيه؟

تلفت (رائد) ببصره في المكان ثم قال: لنتحرك إذن بأيِّ طريقة، إنَّني في الحقيقة خائف على (بيلسان) والبقية، لا بَّد وأنَّهم مسجونون الآن، وما أخافه وأخشاه أنْ يتم استخدامهم كتهديد، كلما أتذكر أنَّ (حارثًا) أوصاني على زوجته، أشعر بقلبي ينتفض بثورة؛ لذا علينا أنا وأنت أنْ نحدث ثورة مضادة فهمت؟

شرع يحرك يديه محاولاً أنْ يفكَّ القيد، تردَّد للحظة قبل أنْ يسأل: ألستَ خائفاً على (سحاب)؟ أم لأنَّ (طاهرًا)...

قاطعه وهو يرد: (بارع)..

-ماذا؟

ابتسم بسخرية وهو يتم: لقد أدركتُ مؤخراً أنَّ (طاهرًا) يلعب على الحبلين،بل أنها ذَكَّى مطامع الطرفين، يجب أنْ تعرف ذلك أيضاً.

في تلك اللحظة بالضبط كانت بوابة الزنزانة تفتح؛ فنظرا إلى الباب معًا؛ وإذ بـ(طاهر) يظهر، لم تكد أعينهم لتصدق لولا أنَّه اقترب منهما ورمقهما بنظرات متفحصة ثم قال: ما وصلتَ إليه صحيح.

بانت على ملامح (رائد) الرعب فتابع (طاهر): ولقد سئمت بالفعل مِن كلا الحبلين، إنَّني أفكر بتمزيقهما معاً.

نظر إليه (بارع) بنظرات تنم عن عدم الفهم، بينما قطَّب (رائد) حاجبيه مفكراً ثم سأل:

ما الذي تجنيه مِن كل ذلك؟ أخبرني ما الغايةِ من هذه الجماعة التي تحمل شعار العنقاء؟

ابتسم (طاهر)، وفوجئ (رائد) به وهو ينحني ويجلس مستنداً إلى إحدى ركبتيه أمامه، حدَّق النظر في عينيه الناعستين وقال: جماعة العنقاء كانت تعبث وتلعب وتنفذ خططها والناس يخلطون بينها وبين العيارين، لقد أدهشتني حقاً بملاحظتك، منذ أنْ رأيتك أول مرة أدركت أنَّك شخص لا يستهان به، ولكن...

ندت مِن شفتيه بسمة ساخرة وهو يتبع: لماذا تظن بأنَّني سأجيب على سؤالك؟

شدَّ (رائد) على قبضة يديه واهتزت شفتاه معبرتان عن تأجج أعماقه وهو يسأل: أين هي؟

-مَن هي؟

زم شفتيه للحظة يكتم غيظه ثم قال: لا تعبث معي، تعلم بأنّي أسألك عن (مارغريت).

أعاد رأسه إلى الوراء قليلاً وهو يردد باستفزاز: آآآآه، حتى أنَّك تناديها باسمها القديم.

مطَّ شفتيه آسفاً ثم أتم: لم تستمع لكلامي؛ لذا ...

تراقص حاجبا رائد مِن القلق، وانتفض (بارع) صارخاً: ما الذي فعلته بأمي؟! رمقه (طاهر) بنظرة سريعة ثم تجاهله ووقف وهو يوجه حديثه لـ(رائد): لا تقلق، هي مع الأخريات بخير إلى الآن.

أحدَّ النظر في عينيه وبحدة سأل: ما الذي تعنيه بقولك: إلى الآن؟

هز كتفيه باستخفاف وهو يجيبه: وما أدراني؟! إنَّنا في حالة حرب وفوضى، أنا لا أضمن سلامتي حتى، ثم ابتسم بسخرية وهو يستدير ويتم: وداعاً، ثم تحرك ناحية الباب بخطوات بطيئة ومتزنة، وما إنْ همَّ بتحريك الباب وأحدث صريراً حتى سمعا صوت وقع شيء على الأرض، ومع ذلك بدا لهما (طاهر) وكأنَّه لم ينتبه، لكنّه في الحقيقة تعمَّد ذلك، ثم أغلق الباب خلفه وأعطى المفتاح للسجان.

تدلى فكُّ (رائد) وهو ينظر إلى الشيء الذي وقع على الأرض ونطق: (بارع)، أترى ما أراه؟!

كانت عينا الآخر قد فُتحتا على اتساعهما ونطق: سكين!

مِن هول الفرحة نسيَ أنَّه مقيد بـ(رائد)؛ فنهض ثم سرعان ما هوى وارتطم بظهره، ولكن (رائدًا) كان مايزال يحملق بالسكين بدهشة وتمتم: لقد تركها عمداً، ما الذي....

*****

كان (آصف) يركض في الممرات وعلى وجهه ملامح الذعر مِن الأخبار التي سمعها للتو، فتح الباب على مصراعيه، كان (حاتم) يجلس على مكتبه

في هدوء لا يتناسب مع ما يحدث بالخارج، اقترب منه واندفع يقول: كيف لك أنْ تأمر جنودك بحرق منازل الغوث وقتلهم؟ هل أصبت بالجنون يا هذا؟!

وجم وجهه للحظة ثم انتفض واقفاً وهو يقول: ماذا؟ ما الذي تقوله؟ مَن الذي قُتل؟!

استغرب (آصف) وهدأ قليلاً وهو يقول: أتعني بأَنَّكَ لا تعلم؟! من الذي أعطى الأوامر إذن؟

صرخ مذعوراً: أخبرني ما الذي حدث؟!

ابتلع ريقه وهو يقول: لقد حدثت البارحة مجزرةٌ رهيبة بحقِّ بعض أفراد عائلة الغوث، لقد وصلتني الأخبار للتو، وقد قيل لي: إنَّه أمرٌ مِن عندك؛ للضغط على (شهاب).

هز رأسه نافياً وهو يرد: مستحيل، أنا لن أفعل هذا! إنَّ هذا مِن شأنه أنْ يعيق محاورتنا مع قوات بغداد والموافقة على مطالبنا.

كز على أسنانه وهو ينظر للأسفل ويتبع: مَن الذي يجرؤ على ذلك؟! مَن الذي حرك الجنود؟!

توقف؛ إذ طرأ بباله لوهلة (طاهر)؛ فنظر إلى (آصف) بذعر وهو يقول: هو، لا أحد غيره.

*****

في منتصف الليل مِن فوق أسوار دمشق العالية وقف أحد الجنود وربط في سهمه الخطاب الذي أعطاه إياه (طاهر)، شدَّ قوسه إلى أقصى ما يستطيع، ثم رمى بالسهم؛ ليصل إلى جنود بغداد المحيطين بالسور، التقطها أحدهم وراح يركض بها قاصداً خيمة (بتّال)، كان يقف إلى جواره (حارث) و(باتر) حينما سلمه الورقة، فتحها وشرع بقراءتها وارتسمت على وجهه إيماءات غاضبة، ثم قبض على الورقة بكفه وهو ينطق: حقارة!

انتزع (باتر) الورقة منه وقرأ، كان تهديداً صريحاً لقوات بغداد وأمرًا لها بالانسحاب والموافقة على الاستقلال خلال عشرة أيام.

نظر إلى (حارث) بوجه شاحب وهو يقول: لا يمكن، لا يمكن أنْ يفعل ذلك (شهاب)، أنا لا أصدق.

علق (بتّال): إنَّه الوزير (حاتم).

أمسك (حارث) الورقة وقرأها بهدوء، ولم يعتلِ وجهه ما اعتلاهما، خفض الورقة ببطء وقد تذكر ما قاله (رائد) بشأن الوشم، ثم عبرته صورة (طاهر) وذكرى قديمة جمعتهما قال فيها (طاهر) كلمات لـ(حارث) خلقت في داخله إحساساً غريباً حاول أنْ يتجاهله كثيراً، ولكنه لم يستطع إذ قال له ذات مرة: لا يوجد سلام دائم، إنَّه محض وهم اخترعه الزعماء؛ لإطالة أمد بقائهم، ما معنى السلام المبني على قتل الآخرين؟ سيولِّدُ أناسًا يأخذون بثأر الآخرين، فالدماء تنادي بعضها، ستجدُ في كل مرة مَن ينادي أنَّ قضيته هي العادلة، وأنَّ ما دونها ضلال، هكذا هم البشر وهذه هي طبيعة السلام والحرب، إنَّها حلقة مُفرغة لا يمكنك الخروج منها.

ارتجفت أصابعه وهي تقبض على الورقة وتنطق بصوت خافت: إنَّه شخصٌ آخر.

فوجئ بالدموع المعلقة على أهدابه، فطرف عينيه، ثم أشاح بوجهه إلى الجهة الأخرى وهو يتم: علينا ألا نتعجل، هذا الخطاب يريد استفزازنا للرد بالاقتحام، ما يزال (بارع) و(رائد) بالداخل، ثم نظر إليهما بثبات وهو يتبع: وأنا واثق أنَّهما سيحميان عائلاتنا و...

أخذ نفساً ثم أتم: سيفعلان شيئاً بالتأكيد.

*****

كان (بارع) و(رائد) قد تمكَّنا مِن الهرب فعلاً من السجن بعد معركة شرسة خاضاها مع الجنود بالأيدي تمكنا خلالها مِن سرقة سيفين، ثم اختبآ بعد ذلك في منزلِ أحد وجهاء دمشق، والذي كان محباً لـ(باتر) ومؤيداً له. كان منزله

دون أنْ يلحظ أحد بؤرة الثورة المضادة، فخلال أيام مِن نشر رجاله هنا وهناك والسوق وأماكن تجمع الرجال تمكَّن مِن جمع الأنصار حوله؛ أما بقية الجنود فأعلنوا استسلامهم وكل مَن لديه رغبة في تخليص الأمير وعدم خوض الحرب مع بغداد وإسقاط الانقلاب.

مِن داخل منزل (حارث) ومِن أمام الباب أخرجت قنينة الماء مِن السلة ورشقت وجهها به، ثم شرعت تمسحه، ألقت نظرة أخيرة إلى السلة وتأكدت مِن محتوياتها ومِن كفاية كمية الطعام التي حضرتها، ثم ثبتت القوس الذي تحمله جيداً ورفعت يديها إلى الخلف؛ لتُعِدَّ السهام التي تحملها، ثم خرجت مِن الدار وأغلقت الباب خلفها، سلكت طريقها المعتاد بين الحواري والأزقة، كانت المدينة مظلمة ولا ينيرها سوى ضوء القمر وبعض القناديل الخافتة، توقفت فجأة بعد أنْ شعرت أنَّ أحدًا ما يتبعها، التفتت خلفها ولكنها وجدت المكان خالياً، عادت لتتابع طريقها ولكنها مرة أخرى شعرت بخطوات خفيفة تتبعها؛ فالتفتت سريعاً خلفها ولكنها كالمرة السابقة لم تجد أحداً، ملأت الريبة قلبها، وشعرت بأنفاس محمومة تختبئ خلف الجدار الذي ينتهي به زاوية المنزل الذي على يمينها؛ لذا اقتربت منه بخطوات بطيئة وحذرة وما إن أوشكت مِن الاقتراب مِن الزاوية حتى فوجئت بالسيف المسلط على عنقها.

حركت عينيها ببطء إلى اليمين، كان يقف في الظل فلم تكن ملامحه واضحة، ولكنه ما إنْ نطق حتى عرفت بأنَّه (رائد)؛ إذ قال: اصحبيني الآن إلى حيث تذهبين.

تحرك قليلاً وسقط شعاعٌ مِن النور عليه؛ فبانت ملامحه وهو يتم: (مياسين).

ابتسمت بسخرية ثم أشاحت بوجهها إلى الجهة الأخرى وقالت: لن أفعل.

قرب السيف مِن رقبتها؛ لتهديدها وهو يقول بحدة: إذن، فإنِّي لن أتوانى عن تمرير هذا فوق رقبتك الآن.

رفعت حاجبيها ثم رمقته باستخفافٍ واضح استنكره؛ وإذ بها تتقدم خطوة وتدفع برقبتها نحو السيف؛ فانتفض وأبعده عنها وحملق في عينيها

باستغراب؛ أما هي فاعتدلت وقالت: أنت لن تفعل ذلك، ثم مِن الأهون علي أنْ أُقتل، ولا أنْ أفشل مخطط سيدي، ثم استدارت؛ لتكمل طريقها، أوقفها بقوله: مهلاً، أنا لا أفهم حقاً! لماذا تساعدين (طاهرًا) في ذلك؟

استدارت نحوه نصف استدارة ورمقته بحدة وهي ترد: بل لماذا لا أساعده؟

ظلت تحملق فيه للحظة ثم أتبعت: ثم مِن الأفضل لك أنْ تتوقف عن ملاحقتي؛ لأنَّ الجنود في كل مكان وسأصرخ.

علا صوتُ وقع خطوات عديدة تقترب مِن المكان، كز على أسنانه وهو يرمقها بغيظ ثم فرَّ هارباً، بينما ظلت هي تنظر نحو الطريق الذي سلكه للحظات قبل أنْ تتابع طريقها باتجاه الغابة الشرقية.

التقى (رائد) بـ(بارع) الذي كان معه مجموعةٌ مِن رجاله فسأله: هل عرفت مكانهم؟

-لقد كشفتني.

وجم وجهه ولكن سرعان ما استدرك (رائد) قوله وهو يبتسم بثقة: ولكن، لقد أسقطت في سلتها قشور اللب، سأتبعها، أحتاج لبعض الرجال فأنا لا أعلم عدد الذين يحرسون المكان.

ضرب على كفه وقد ابتهج وجهه وهو يقول: الليلة هي ليلتنا! لقد تمكن رجالنا مِن التسلل عبر الجنود، ولقد بعثت لـ(بتّال) رسالة تخبره بالوضع الحقيقي، وبأنَّنا سنحررهم، وسنفتح البوابات الشرقية المطلة على القصر.

أومأ إليه موافقاً وارتسمت على ملامحه إيماءات مفعمة بالثقة والأمل.

مدَّ (رائد) يده لـ(بارع) مصافحاً وهو يقول: بعد أنْ أنقذهم سأتجه إلى القصر.

نظر (بارع) لكفه ثم مدَّ يده وصافحه وهو يرد: سأتبعك إلى هناك بعد فتح البوابات.

شدَّ على يديه بقوة أكثر وهو يقول مؤكداً: عليك أنْ تبقى بخير معلمي.

ندت مِن شفتيه بسمة ودودة، ثم أومأ له بعينيه وأشار إلى الرجال أنْ يلحقوا به.

في الغابة الشرقية وسط ذلك الكوخ الكئيب، كانت (كادي) ممدَّدة على السرير وهي تصارع الآلام التي هاجمتها فجأة، كانت (عروب) تضغط على رجليها وساقيها علها تخفف قليلاً مِن ألمها، و(بيلسان) الصغيرة كانت تمسح هي الأخرى بكفها الغضة على ساقيها، و(بيلسان) ممسكة بكفها تضغط وتمسح عليه.

أما (مارغريت) فقد كانت جالسة على الأرض متكئة على الجدار وإلى جوارها جلس (إياد). حدثته بصوت منخفض: كيف هو جرحك الآن؟

أنا بخير، لقد عالجني (طاهر) بداية وتلك الفتاة رغم برودتها وقسوتها الظاهرية اعتنت بي بعناية وصدق.

نظرت إلى حيث (كادي) وعلقت: إنَّ حالتها تسوء، إنَّها تقترب مِن الوضع، وأخشى عليها هنا، ثم نظرت إليه واتبعت: اسمع، هل استعدت عافيتك؟ أعني.. هل تستطيع أنْ تقاتل؟

وجم وجهه ولم يجب فتابعت: أنا لن أنتظر حتى يتم إنقاذنا أو قتلنا، يجب أنْ أتحرك، سأصنع سلاحاً مِن هذه الأخشاب المتناثرة حولي، فالجنود ينامون بالليل، هلّا تساعدني؟

ابتسم ثم أشاح بعينيه في خجل وهو يرد: عارٌ عليَّ أنْ أرفض ذلك، لا تقلقي، سيفي تحت السرير وبإمكاني القتال ولكن...

ثبَّت عينيه في عينيها وسأل: هل أنتِ تجيدين القتال حقاً؟

-لا تستخف بي، معلمك هو معلمي ولستُ أنا فقط، حتى...

نظرت خلفها نحو (بيلسان)، ثم عادت لتنظر إليه وتتم: حتى هي، ألا تعرف أنَّها أفضل رامية في دمشق؟

ظهرت على شفتيه ابتسامة رقيقة وهو يؤمئ موافقاً، جعلت قلبها يتوقف للحظات وعينيها تجمدان؛ إذ بدا لها للحظة بأنَّ (طاهرًا) مَن يبتسم الآن أمامها.

استغرب مِن نظراتها تلك؛ فقطب حاجبيه واعتلاه الخجل وهو يسأل: لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟ وكأنَّك أول مرة تشاهدين..

لم يكمل كلمته؛ إذ أوقفته بقولها: لحظة، وفوجئ بها تحيط بكفيها خديه؛ لتثبت رأسه، وشرعت تحدق في عينيه بإمعان.

كيف لم ألحظ ذلك مِن قبل، حتى عينيه! عيناه الواسعتان كأنَّهما عينا (طاهر) أيضاً، كيف لهذا أنْ يحدث؟ كيف لهما أنْ تتشابهان إلى هذا الحد؟!

لم تدرك ما تفعله إلا حينما أشاح بعينيه إلى الجهة الأخرى وهو يعلق: ما الذي تفعلينه، لقد سحقت خديّ!

أبعدت كفيها واعتدلت وهي تقول بتوتر: آسفة! لقد كنتُ أفكر بشيء ما.

عادت لتتكئ على الجدار وعضت ظفر إبهامها وهي تفكر:

هل مِن المعقول أنْ يكون أحد أقاربه؟ ولكن طاهرأخبرني أنْ لا أقارب له ولا أخوة.

حركت عينيها نحوه ببطء، كان ما يزال ينظر ناحيتها باستغراب، أشاحت بعينيها وعادت لتفكر، ثم التفت إليه فجأة؛ وإذ بها تسأل:(إياد)، هل لك أخوة أو أقارب؟

ولكن الصرخة المتوجعة التي أطلقتها (كادي) حالت دون إجابته.

انتفضت (مارغريت) واقفة واتجهت نحوها بينما جمد (إياد) في مكانه، أمسكت بكفها وهي تسألها: ما الذي تشعرين به (كادي)؟

عضت على شفتيها وصرخت ملامحها بالوجع ومع ذلك قالت: أنا بخير، لا تقلقوا!

التفتت (مارغريت) ناحية إياد وهي تنطق: (إيـــــــاد).

في تلك اللحظة حوَّل صوتُ فتح الباب أنظارهم جميعاً نحوه، فُتح الباب وظهرت مِن خلفه (مياسين)، وظهر خلفها أحد الجنود الذين يحرسون الباب، أغلقت الباب دونه، ثم ولجت ووقفت في منتصف الغرفة كعادتها ثم وضعت السلة وهي تقول: طعامكم، لكنّها لاحظت وجوههم المرهقة. نظرت إلى (كادي)، ولوهلة غمرتها الشفقة لحالها ولكنها تجاهلت ذلك، وأعطتهم ظهرها؛ لتغادر، بيد أنَّ (مارغريت) أوقفتها بقولها: (مياسين)، إلى متى سنظل هنا؟ ألا ترين بعينك؟ إنَّ حالتها تسوء! إنَّها توشك على الوضع، ألا تشعرين بأيِّ شفقة تجاهها؟!

عبست والتفتت إليها وأجابت بحدة: سأخبر (طاهرًا) بذلك، ثم اتجهت نحو الباب سريعاً؛ لتطرقه، لكنها لم تتمكن من ذلك؛ إذ اندفع (إياد) نحوها ولوى ذراعها وكمَّم فمها بقبضته، حاولت أنْ تقاومه وتدفع به، لكنّها هدأت تماماً؛ إذ كانت (مارغريت) قد أخرجت سيف (إياد) مِن تحت السرير ولوَّحت به فوق رأسها وهي تقول: بهدوء مِن فضلك، لا نريد منكِ سوى الهدوء، ثم أشارت إلى (عروب)؛ لتقيدها، ففعلت سريعاً، وكممت فمها، حاولت أنْ تصرخ وأنْ تحرر نفسها ولكن ما من فائدة، كان (إياد) ينظر إلى محاولتها بسخرية، ثم مدَّ لها لسانه ساخراً مما جعلها تتوقف وترمقه بغيظ وهي تلعنه في أعماقها، ناولته (مارغريت) سيفه، ولكنها ذهلت للحظة وهي تحدق بالشعار على مقبضه، إنَّها واثقة مِن أنَّها شاهدت الشعار ذاته على سيف (طاهر)، ولكنها لم تستطع أنْ تخبره أو حتى تسأله، سحبه ثم اتجه ناحية الباب، فلحقته ووقفت إلى جواره، وأخذا نفساً عميقاً تأهُّبًا للمعركة، طرقت (مارغريت) الباب، وما إنْ أدار الجندي المفتاح حتى فوجئ بالباب يرتدُّ عليه؛ إذ ركله (إياد) بقوة ثم اندفع يهاجم الجنود، بينما انحنت (مارغريت) على الجندي الذي سقط للتو والتقطت سيفه واندفعت هي الأخرى؛ لتقاتل مع (إياد).

أسندت عروبُ كادي وساعدتها على الوقوف، ولاحظت ملامح (بيلسان) المضطربة وهي تستمع لصليل السيوف بخوف فنطقت: (بيلسان)، أنت بخير؟

أومأت موافقة ثم قالت: لقد شعرتُ برؤيتي تضعف فجأة، لا أريد للخوف أنْ يسيطر علي.

قطبت حاجبيها متسائلة: ما الذي تقصدينه؟

نظرت إلى الزاوية حيث كانت (مياسين) ما تزال تقاوم وقالت: سأقتل خوفي، ثم اتجهت نحوها، نظرت إليها (مياسين) باستغراب، فانحنت وأخذت السهام والقوس مِن جوارها، ثم اعتدلت وهي تقول: شكراً لكِ؛ لأنكِ أحضرتها!

ثم نظرت إلى (عروب) وهي تبتسم وتقول: إنَّني جزءٌ مِن عائلة العلالي.

شدت (بيلسان) الصغيرة على ثوب والدتها وعينيها على (بيلسان) التي كانت تثبت السهام خلف ظهرها وسألت: أماه، ما الذي تفعله عمتي؟

التقطت كفها وهي تبتسم بثقة وترد: إنَّها تمارس هوايتها فقط، إنَّها تساعدنا.

التفتت إليها (بيلسان) فتبادلتا ابتسامات واثقة، ثم اندفعت إلى الخارج، كانت (مارغريت) في تلك اللحظة تقاتل ببسالة، وقد سدَّد أحدهم نحوها ضربةً بالسيف؛ فانحنت للخلف متجاوزة إياها، ثم سدَّدت نحوه ضربةً أسقطته. وقفت (بيلسان) تشاهد ذلك، ثم رأت أحدهم يهمُّ عليها بسيفه؛ فرفعت قوسها وشدَّت سهمها ثم رمته به؛ فسقط صريعاً، ومع أنَّ (مارغريت) لم تنظر إلى الأعلى إلا أنَّها عرفت أنَّها (بيلسان)؛ فاندفعت بقوة لتتابع القتال.

كان (إياد) رغم إصابته هو الآخر يقاتل بقوة لكن عددهم كان كبيراً، استند إلى (مارغريت) وهو يتنفس بصعوبة ويقول: أنتِ تقاتلين جيداً كما أرى.

أخذت نفساً عميقاً وهي ترد: أنت أيضاً مع إصابتك، ثم اندفعت مهاجمة بقوة واشتبكت معهم؛ فلحقها (إياد) هو الآخر، واستمرت (بيلسان) مِن أعلى التل تربكهم بسهامها.

دفع (إياد) بساقه أحدهم، ودار نحو الآخر؛ ليسدد إليه ضربة أسقطته، وما إنْ همَّ بالاعتدال حتى كاد أنْ يصيبه آخر، إلا أنَّ سيفاً سريعاً حال بينهما، فوجئ

(إياد) بـ(رائد) يقف دونه، ثم دفع بالجندي بقوة وأصابه، ثم نظر إليه وسأل: هل أنت بخير؟

ابتسم (إياد) بشغف وهو يومئ له، ثم انتفشت روحه بالحماسة وهو يشاهد رجال (رائد) وهم يشتبكون بهم؛ فاندفع يقاتلهم. أسرع (رائد) ناحية (مارغريت) حتى وقف إلى جانبها وهو يقول: أنت بخير؟ هل الجميع بخير؟

أخرجت صوتاً ينمُّ عن الموافقة ثم قالت: لماذا تأخرت؟

همَّ الجنود بالهجوم عليهما؛ فشدَّ مقبض سيفه، ثم أحاطها به؛ ليحيل بينها وبينهم وهو يرد: لن أتأخر مرةً أخرى.

ثم اندفع يهاجمهم، وما هي إلا دقائق حتى تمكَّن رجال (رائد) مِن القضاء عليهم وفرَّ الباقون، وتعالت صيحات النصر والتكبير.

اقترب منه (إياد) وهو يبتسم بشوقٍ فقال له (رائد): سنتجه الآن إلى القصر، مِن المؤكد أنَّ البوابات ستفتح الآن، ثم نظر إلى (مارغريت) وقال: أعتمد عليكِ، خذي الجميع إلى مكانٍ آمن.

هزَّت رأسها نافية وهي تقول: سآتي معك.

شحب وجهه للحظة مفكراً، وعبرته ذكرى قديمة في سجن القدس، فلانَ وجهه عن بسمة موافقة وهو يعلق: أعلم، لا شيء سيوقفك حتى لو ربطتُكِ بخيط أريان. أتذكرينها؟

تذكرت بأنَّها قد قالتها ذات يوم له؛ فابتسمت وهي تومئ له بالموافقة.

وأخيراً وبعد كل هذا الوقت، مد لها كفه وأمسك بكفها وهو يتم: ابقِ بجواري إذن، تمسكت به بقوة وهي تبتسم له موافقة، ثم أمر أحد رجاله أنَّ يهتم بالبقية، واتجه هو و(إياد) و(مارغريت) والبقية مِن الرجال إلى القصر.

*****

كان (آصف) يركض قاصداً مكتب (حاتم)، فتح الباب على مصراعيه وهو يصرخ: (حاتم)، لقد دخلوا، لقد دخلوا!

انتفض واقفاً وهو يسأل: ما الذي تقوله؟ كيف ذا؟

إنَّ القصر محاصرٌ الآن؟ والمعركة دائرة بين جنودنا وجنود بغداد،وكثيرمن العيارين، إنها فوضى، لقد فُتحت البوابة الشرقية، لقد فتحها (بارع)!

تهاوى (حاتم) على الكرسي وهو يقول: كيف له أنْ يهرب؟! قل لي بأنَّك تكذب.

ضرب على الطاولة وهو يرد: لنهرب، إنَّ تم القبض علينا؛ فسنقتل.

ولكنّه لم يكمل هذه الكلمة حتى كان الجنود يقتحمون الباب ويلتفون حولهما، ثم أفسحوا لـ(بارع) الذي وقف ونظر إليه وهو يقول: ألم أخبرك يوماً بأنّني مَن سيوقع بك!

ابتسم (حاتم) بيأس، ثم ضحك باستخفاف وهو يهز رأسه نافياً ويعلق: لا، ليس أنت، إنَّ مَن أوقع بي هو طاهر.

*****

كان طاهر قد اختلط مع جنوده بجنود الانقلاب، واشتبك مع جنود بغداد وقوات (بارع)، ومع ذلك كان يحارب ببسالة ليصل إلى قاعة المرجان؛ ليقتل (شهابًا)، بينما كان هدف مجموعة العنقاء الرئيسي هو قتل الأميرة؛ لاستفزاز (ببين) للحرب.

كان (بارع) قد سلك مع رجاله الطريق المؤدي إلى مخدع الأميرة، وكما توقع كان جنود العنقاء المندسين بين جنود الانقلاب قد رفعوا أسلحتهم ضدهم، وسالت الممرات بالدماء، عبرها كما المرة السابقة وهو مشهرٌ سيفه وسبقه رجاله؛ لفتح الباب، وما إنْ فتحه حتى اندفع رجاله؛ ليواجهوا الجنود، كان أحدهم بالفعل واقفاً فوق رأس الأميرة وقد همَّ بضربها به، التقط سهمه وشدَّ قوسه وأفلته؛ ليصيب ذلك الجندي ويرتد صريعاً، أسرع إليها ووقف

مشهراً سيفه دونها، رفعت عينيها تنظر إليه وعلامات الذعر تملأ تقاسيم وجهها، ونطقت: أنت؟!

لوَّح بالسيف متأهباً، وناولها كفه الأخرى؛ ليساعدها على النهوض دون أنْ ينظر إليها وهو يقول: مِن المضحك حقاً أنْ تنقلب خطتك ضدك، ثم مال بعينين ساخرتين نحوها وأتم: سيدة العنقاء!

*****

كان (رائد) ومجموعته قد انخرطوا أيضاً في القتال واقتربوا مِن قاعة المرجان، وسبقهم (رائد) إلى دخولها. كان (شهاب) يقاتل بسيفه أحد الجنود، وكاد الجنديُّ أنْ يقتله، فاندفع (رائد)؛ ليحميه بسيفه ووقف مدافعاً عنه.

في تلك الأثناء كان (طاهر) قد شقَّ طريقه، وسلك الممر الأخير الذي كان خالياً، ولكن ما إنْ قطع نصفه حتى فوجئ بـ(إياد) و(مارغريت) يقفان في طريقه.

رفع (إياد) السيف في وجهه وهو يقول: اخفض سيفك أيها الطبيب، لقد انتهت المعركة بالفعل، إنَّ جنودنا يسيطرون على قاعة المرجان والقصر مِن الخارج.

ابتسم بسخرية وهو يتبع: سلِّم نفسك فقط.

فوجئ مِن بسمة الود تلك التي ظهرت على شفتي (طاهر)، ثم حرك عينيه نحو (مارغريت) التي انتفضت وأشاحت بعينيها عنه، تقدم بخطوة غير آبهٍ بسيف (إياد)؛ فاستشاط (إياد) غضباً وشد على سيفه وقربه منه وهو يقول: لا تستخف بي؛ لأنك هزمتني مرة، إنْ تقدمت خطوة فإنِّي سأطير بعنقك الآن.

رسم على شفتيه الابتسامة نفسها مرة أخرى وهو يرد : إفعل إذن.

ثم دفع السيف بيده؛ فنزفت، ذهلت (مارغريت) وتجمد (إياد) في مكانه، تجاوزه (طاهر) بضع خطوات وأصبح واقفاً بينه وبينها، وجَّه (إياد) سيفه

نحوه مِن خلف ظهره مرة أخرى ووضعه على رقبته وقال: إنْ تقدمت خطوة واحدة فإنِّي لن أتوانى عن تحريكه.

انحنت زاوية فمه ببسمة مريرة لاحظتها (مارغريت)، ثم تحرك غير آبهٍ بالتهديد، بينما ظلَّ (إياد) جامداً في مكانه رافعاً سيفه مستنكراً لماذا لم يستطع أنْ يحركه، ولمَ ارتجفت يداه؟!.

تابع تقدمه وما إنْ أصبح أمام (مارغريت) حتى شرعت ذراعيها بارتباكٍ؛ لتوقفه، نظر إلى ذراعيها، ثم عرج على عينيها وندت منه بسمة ساخرة وهو يقول: ابتعدي (سحاب).

هزت رأسها معترضة وفجأة شخصت عيناها؛ إذ عبر ذاكرتها ذلك الحلم في تلك الليلة وتذكرت الناي الذي سقط منها وتحطم في قاعة المرجان، فهزت رأسها بإصرار وارتجفت شفتاها وهي تقول: توقف أرجوك!

ثم فرت دمعةٌ هاربة نحو شفتيها أوجعتها وهي تنطق: أنا لن أسمح لك بأنْ تتجاوزني.

تأمَّل في ملامحها وفي تلك الدمعة التي أغرقت شفتيها، ثم ابتسم بألم، وفوجئت به يحيطها بذراعه معانقاً، أحنى رأسه على كتفها وقاوم دمعة كادت أنْ تفرَّ منه، ثم ربَّت على ظهرها برقة، ثم تجاوزها هي الأخرى دون أنْ تتحرك أو توقفه، وذراعيها ما تزالان معلقتين في الهواء.

اندفعت فلولٌ أخرى مِن جماعة العقاب الأحمر؛ لتلحق بـ(طاهر)؛ فاضطر (إياد) أنْ يشتبك معهم، وأنْ يدافع عن (مارغريت) التي كانت تقف عاجزة.

كان (طاهر) قد وصل إلى قاعة المرجان وسيفه يقطر بالدماء، وما إنْ وقعت عيناه على (رائد) الذي وقف يقاتل دون (شهاب)، حتى قال: كنتُ أعلم بأنَّنا سنلتقي.

اعتدل (رائد) وهو يومئ له ويقول: عليَّ أنْ أشكرك، لولاك لما كنتُ هنا.ولكن ما يثير حيرتي لماذا أخفيت خبر هروبنا؟!ما الذي تريده بالضبط؟!

ابتسم (طاهر) وهو يقول: لا تقف في طريقي، ودعني أقوم بعملي، فلا وقت لدي.

هزَّ رأسه ببطء نافياً، ثم حنى ساقه اليمنى وهو يشعر بالألم فيها، ومع ذلك رفع سيفه متأهباً وهو يقول: أكره ذلك، ولكن عليك أنْ تتجاوزني أولاً.

ابتسم (طاهر) باتساع وهو يرد: بكل سرور، ثم اندفع نحوه مهاجماً، ذُهل (رائد) مِن مدى قوته، لقد كان محقاً فمنذ أنْ رأى يده أدرك بأنَّها يدُ سيافٍ بارع لا يدَ جرَّاح فحسب، تبادلا الضربات بين صدٍّ وردٍّ.

وكان رجال (رائد) الذين وصلوا معه يتقاتلون مع جماعة العنقاء التي جاءت؛ لتساند (طاهر).

كان (طاهر) قد تمكن مِن خدش وإصابة (رائد) في أكثر مِن موقع في جسده، ومع ذلك كان (رائد) ما يزال يقاومه بإصرار، وذاك ما يزال يضرب ببسالة، ولكن لسبب ما شعر(رائد) بأن (طاهر) يتجنب قتله! دفع كلاهما الآخر بقوة؛ فارتدا إلى الوراء، ووقفا يلتقطان أنفاسهما بصعوبة، كان (طاهر) يُدرك أنَّ الوقت ليس في صالحه، وكان (رائد) يدرك أنَّ المسألة مسألة وقت ويكون جنودهم قد سيطروا على المكان. أما(شهاب) فكان يراقب المعركة بقلبٍ ينتفض، ثَبَّت (رائد) ساقه اليمنى رغم توجعه، وأحكم قبضته على مقبض سيفه كما فعل (طاهر)، كانت الشمس قد أصبحت عامودية؛ فسقطت أشعتها فوق القبة الملونة، وانعكست ألوانها لتضيء المسرح الذي سيشهد الآن المعركة الأخيرة، اندفعا بكلِّ قوتهما، ولكنهما توقفا قبل أنْ يصطدم سيفاهما ببعضهما؛ إذ كانت جميع أبواب القاعة لحظتها قد شُرعت وتدفَّقت منها قواتُ بغداد المهاجمة.

خفض (طاهر) سيفه وهو يراقب تدفقهم واندفاعهم ونطقت شفتاه بيأس: تباً! لقد انتهى كل شيء.

ولكن كلماته كانت خافتة جداً وسط هتافات النصر والتكبيرات التي ملأت المكان، ومع ذلك ووسط تلك الغلبة وسقوط بقية رجاله الواحد تلو الآخر، عاد لينظر لـ(رائد)؛ لينهي معركته، أحكم مسك السيف، ثم حنى ساقه اليمنى

متأهباً واندفع بكلِّ قوته ناحية (رائد)، شخصت عيناه للحظة؛ إذ كان قد خفض سيفه هو الآخر ولكن سرعان ما عاد ليرفع سيفه؛ ليصد هجومه.

ولكن ما لم يتخيله للحظة أنَّ (طاهرًا) لم يكن يهجم عليه ليقتله؛ بل ليصدم نفسه بسيفه الذي اخترق بطنه. تدلى فكُّ (رائد) وهو يرى الدماء تنزف مِن بطنه وتسقط على الأرض مشكلة بركةً تحته، رفع عينيه نحوه، كانت عيناه واهنتان ومع ذلك لا أثر فيهما للوجع، وانحنت زاوية شفتيه مشكلة بسمة فاترة.

اهتزت يدا (رائد) على مقبض سيفه، ولكن (طاهرًا) لم يمنحه فرصة، وجمع ما بقي لديه مِن قوة؛ ليمسك بالسيف ويطعن نفسه أكثر.

أخيراً ندت مِن فم (رائد) صرخة مرعوبة رافضة، وتمكَّن مِن الرجوع إلى الوراء وسحب سيفه؛ فانفجرت دماء (طاهر) وانحنى على بطنه يلهث أنفاسه بصعوبة، دارت عينا (رائد) عليه وعلى سيفه الملطخ بدمائه بفزع، ثم تهاوى (طاهر) على الأرض لتظهر (مارغريت) برفقة (إياد) في مجال رؤيته.

كان مِن الواضح أنَّها قد شاهدت ما حدث؛ إذ كانت عيناها هي الأخرى مرعوبتين، وما إنْ وقعت عينا (رائد) عليها حتى اهتزت شفتاه بوجع: لم أقتله!

ولكنها لم تكن قادرة على سماع ما قاله، فركضت بسرعة ناحية (طاهر)، ووقفت فوق رأسه، وما إنْ فتح عينيه وشاهدها تهمُّ بالانحناء نحوه؛ لتساعده حتى غالب أوجاعه وصرخ: توقفي!

ثبتت في مكانها مذعورة، ابتلع ريقه وأخذ نفساً ثم قال: لا تنحني مِن أجلي، أنتِ... يجب عليك ألا تنحني أبداً.

انكمشت ملامح وجهها وأعتمت الدموع رؤيتها وفاضت، وهبطت بجسدها على الأرض جالسة بجواره، وتجاهلت كلَّ ما قاله، ووضعت يديها على موضع الجرح؛ لتوقف النزف، ولكنها ارتجفت حينما شعرت بيديها تغرقان في أحشائه، وفوجئت بيده تقبض على معصمها بقوة؛ لتوقفها. حركت عينيها

ببطء نحوه؛ وإذ به يهز رأسه معلناً عن رفضه، ثم رفع عينيه للأعلى ناحية (إياد) الذي كان ينظر إليه بمزيج مِن الشفقة والألم.

شعر (إياد) بأنَّه يريد قول شيء له؛ لذا انحنى قليلاً نحوه، لكن وجهه انكمش للحظة إثر الوجع، وازدادت سرعة ضربات قلبه، ابتلع ريقه بصعوبة ثم نطق: أتذكر ما الذي قلته لي بشأن عائلتك؟

قطب (إياد) حاجبيه مستنكراً، فتابع طاهر بإجهاد واضح: عليك أنْ تحرص على فعل ما أخبرتني به، سأكون سعيداً..

خفت صوته وهو يتم: إنْ فعلت.

ثم شعرت (مارغريت) بقبضته وقد ارتخت، ثم سقطت؛ لترتطم على الأرض وتضرب قلبها؛ فيجمد كلُّ شيء حولها، ولم تعد تسمع صوت الهتافات، أو حتى تشاهد أحدًا حولها، لقد اختفى (إياد)، وحتى (رائد) الذي كان ينظر مذعوراً هو الآخر اختفى، لقد توقف كلُّ شيء حولها ولم تعد تسمع سوى ذلك اللحن الأخير الذي عزفه (طاهر)، وكلمات من الذاكرة تهز كيانها كما لم تهزها أول مرة:

"على المآسي ألا تتوقف، وإلا فلن يجد الرسام ما يرسمه، وسيتوقف الفنان عن العزف، وسيجف مداد قلم الكاتب، لولا المآسي لما توقفنا ننظر إلى الوحة بانبهار ولما بكينا لمقطوعة، لولا المآسي لما تطلعنا إلى السماء بأمل، لولا المآسي لفقدتْ كثير مِن الأشياء بريقها".

ندت مِن شفتيها صرخة رافضة حررت أعماقها المحصورة، وجعلت مَن حولها يلتفت ناحيتها، انفجرت دموعها معها معلنة أنَّها قد أدركت بشاعة المشهد أخيراً.

كان (حارث) قد وصل، ووقف مصدوماً هو الآخر للحظات ينظر إلى (مارغريت) التي انكبت تبكي على صدره بوجعٍ قبل أنْ تقع عيناه على سيف (طاهر) الذي كان بجواره وأثار دهشته.

انحنى والتقطه مِن على الأرض، ثم شخصت عيناه وهو ينظر إلى شعار الزنبق المنحوت عليه، نظر ناحية (إياد) برهبة، ولكنه كان هو الآخر غارق في حزنه؛ إذ هزَّه بكاء (مارغريت) بشدة.

أخفاه خلفه للحظة وهو يسترق النظر لـ(إياد)، ثم أخفاه في غمد سيفه، وما إنْ رفع رأسه حتى شاهد (رائدًا) ينظر إليه بعينين ممتلئتين بالدموع وهو يقول: أنا لم أقتله!

خرج (رائد) مِن القاعة ينوء بحملٍ ثقيل، خرج ليقف في ساحة الياسمين التي كانت ممتلئة بالجنود والرجال الذي شاركوا في المعركة، وبعض النساء والأطفال الذين كانوا يصيحون معبرين عن بهجتهم، كان (بارع) قد التقى بـ(بيلسان) و(عروب) وكذا (باتر)، وما إنْ رأته (عروب) حتى اقتربت منه وعلى ملامحها البشرى وهي تسأل: أين حارث؟ ألم يكن معك؟

لم يكن قادراً على أنْ يردَّ أو أنْ تتحرك شفتاه بأيِّ كلمة، وقعت عيناه على (باتر) الذي اندفع نحوه معانقاً وهو يقول: أحسنت رائد! كنتُ واثقاً بما ستفعله.

اقترب (بارع) وهو يقول: مِن الجيد رؤيتك بخير معلمي.

نظر إليه هو الآخر بشرود وقد بدا للجميع بأنَّه لم يكن يستمع لما يقولونه، وقعت عيناه على الرضيع بين ذراعي (بيلسان)؛ فابتسمت وهي تخبره: إنَّها ابنة (حارث)، و(كادي) بخير والحمد لله.

هز رأسه دون استيعاب، ثم شعر بكفٍ تدفعه؛ ليتقدم، كان (حارث) يقف ناظرًا إلى الطفلة بين يدي (بيلسان) بدهشة وهو يسأل: أحقاً؟!

اقتربت منه وناولته إياها و هي تقول: إنَّها ابنتك.

أمسك بيديها، فتحت عينيها الصغيرتين، كانتا رماديتان كلون عينيه، علقت (عروب): إنَّها تشبه (كادي) إلا أنَّ لون عينيها..

قاطعتها (بيلسان): بل تشبه (حارثًا).

رفعها (حارث) للأعلى وسقطت أشعة الشمس عليها، وندت منه بسمة دافئة اختلطت بدموعه التي سالت على خديه وهو ينطق: سأسميها (حياة)، إنَّها (حياة)، ثم التفت إلى (رائد) وناوله إياها، حملها (رائد) بين ذراعيه، ودارت أعناق الجميع تراقبهما، وضع سبابته على أنفها؛ فابتسمت له وهي مغمضة عينيها، ثم سرعان ما بان على وجهها الانزعاج جرَّاء قطرات الدموع التي انهمرت عليه، فانكمشت ملامحها، وجمدت أعين الجميع، بيدَ أنَّ عيني (رائد) لم تكن قادرتان على التوقف، لقد أدرك في تلك للحظة قسوة الحد الفاصل بين الحياة والموت، وكأن نواميس الطبيعة تؤكد في كل مرة حقيقة مؤلمة: على أحدهم أنْ يموت ليعيش الآخر!

أعطاها لوالدها دون أنْ ينظر إليه، واستدار مغادراً، لكنه توقف؛ إذ كان (بتّال) واقفاً أمامه يبتسم له باتساع، ظنَّ (رائد) ينظر إليه للحظات دون أنْ تبدي ملامحه أية تعبير، ثم أخيراً اندفع نحوه معانقاً بقوة جعلت (بتّالًا) يندهش للحظات، ثم ربَّت على ظهره وهو يعلق مازحاً: هل اشتقت إليَّ إلى هذا الحـ...

ولكنه صمت حينما شعر بجسده الذي كان يهتز ودموعه الصامتة التي أغرقت كتفيه.

الفصل الرابع عشر: المصير

لم تغب شمس ذلك اليوم حتى انتهى الاجتماع الذي عقده (شهاب) مع القادة، وأعلن خلالها قرارته:

صدر أمر النفي في حقِّ (حاتم) والوزير (آصف)، كما أحيل قائد الشرطة للتحقيق؛ لاشتباهه بالتعامل مع جماعة العنقاء.

تم نشر الجنود في المدينة؛ للقبض على مَن تبقى مِن هذه الجماعة؛ إذ تبيَّن لهم بعد التحقيق أنَّها منظمة تخريبية أسست بداية في (بيين) ولها شبكات موزعة في أماكن عدة، وكما توقع (رائد) كان للقائد (نيرو) الذي عُزل في دومدري دورٌ في تأسيسها، ورسم شعارها، وتصميم سيوفها.

تجاوز الأمير عن (جوان) وغضَّ الطرف عن تورطها مع المنظمة، ولكنه فرض عليها عزلة مؤقتة.

تم تخفيض رتب كثير مِن الأمراء الذين تورطوا وساعدوا (حاتمًا)، وتم نفي بعضهم، وتم أيضاً تخفيض وعزل كثير مِن الجنود لمدة خمس سنوات كعقاب.

تم منح (إياد)؛ لمساهمته الفعالة رتبة أمير تحت لواء (حارث)، كما تم رفع رتبة (بارع) أيضاً، ومنح (رائد) رتبة أمير.

أما (طاهر) فقد أخبر (حارث) الأمير بما وجده، وبما علمه عنه؛ فشعر بالأسف الشديد على ذلك، وفهم دوافعه، وقال معبراً عن حزنه:" لو أنَّه أخبرني فقط بما يجول في قلبه عن عائلتي، لكنتُ فتحت له أبواب القضاء كلها، و لأخرجت كلَّ السجلات، ولجعلته يشاهد كيف يُحاكم المتورطون في قتل عائلته بعد نفيهم، ولكن أنْ تسيل كل تلك الدماء، أنْ يدفع الأبناء ثمن أخطاء ذويهم، إنَّ الثأر يستدعي الثأر! وهذا يعني أنَّ المآسي لن تتوقف هكذا".

أومأ (حارث) موافقاً ثم قال: أعلم ذلك سيدي، ومن أجل ذلك..

لي طلب وأرجو أنْ تحققه لي، وأعلم كم هو صعب عليك، ولكن صدقني إنَّ طلبي هذا حتى لا تتكرر هذه المأساة مجدداً، ومع اعتراض (شهاب) بداية

بسبب الدماء التي نزفت دون حق، إلا أنَّه وافق أخيراً على طلبه، وأصدر قراراً في حق (طاهر) بتجهيز جنازة تكريمية له كطبيب ملكي خدم القصر خمس سنوات وقاتل ضد المنقلبين، وتم السكوت عن كونه فرداً مِن المنظمة، وعن تورطه في الانتقام وقتل جماعة مِن عائلة الغوث انتقاماً.

وفي اليوم التالي أقيمت الجنازة بحضرة الأطباء والممرضات ورجال القصر و(شهاب)، وبعد أنْ صُلِّي عليه في الجامع، وحُمل نعشه إلى القصر وقفت (مارغريت) بجوار (حارث) والقائد (بتّال) تشاهد وداعه الأخير، ويدها ممسكة بنايه وزهرة الياسمين.

أما (رائد، وإياد، وبارع، وباتر) فقد كانوا يقفون في الصف المقابل لها، لم يرفع (رائد) عينيه عنها، كانت تنظر إلى النعش بعينين سارحتين وغارقتين بالحزن، عُزف السلام الملكي، ثم حُمل النعش استعداداً للدفن.

وبعد أنْ تمَّ ذلك وغادر الجميع وخلا المكان، كانت الشمس قد غربت، وكانت (مارغريت) تمشي ببطء قاصدة قبره، وقفت أمامه وظلت للحظات طويلة تنظر نحوه فقط.

شدت على الناي والزهرة في يدها، ثم تحركت شفتاها أخيراً ناطقة: اعذرني! يجب أنْ انحني لأضع لك هذا، ثم انحنت ووضعت الناي وزهرة الياسمين، ثم خلعت الخاتم مِن إصبعها واهتزت شفتاها بوجع وهي تتم: ستكون المرة الأخيرة، ثم اعتدلت بعد أنْ وضعته وهي تشعر برؤيتها وقد أصبحت ضبابية وأتمت: على أية حال، إنَّ هذا الناي، لن يعزف بعد اليوم، ومع ذلك هنالك شيء يجب أنْ أخبرك به.

خفت صوتها وهي تتم بوجع: لقد كنتَ مخطئاً في حكمك على مشاعري.

انهمرت دموعها وبالكاد نطقت: لقد كنتَ شخصاً عزيزاً على قلبي، أتفهم؟! أنني أتألم الآن. ثم هوت جالسة على ركبتيها تنتحب بوجع.

كان (رائد) يراقبها مِن بعيد، وما إنْ شاهدها تهوي حتى همَّ بالذهاب إليها، إلا أنَّ كفاً أمسكت بكتفه؛ لتوقفه.

التفت إليه؛ وإذ به (بارع) يقول: معلمي.

ثم أشار إليه بعينيه طالبًا منه أنْ يتوقف ويدعها؛ ففهم، ولكنه عاد لينظر إليها، شدَّ (بارع) على كتفه وهو يؤكد: لنعد معلمي.

*****

في الأيام التي تلت ذلك اليوم ظلَّ (رائد) ملازماً لفراشه، والآلام لا تبرح جسده، لم يكن يرغب في الحديث مع أحد أو حتى الابتسام، بيدَ أنَّ (حياة) كانت تجبره على ذلك؛ إذ كانت تبتسم كلما وضعها (حارث) بين يديه.

ظلَّ يلاعبها وهو يبتسم للحظات و(حارث) يراقبه ثم قال: إلى متى ستظل مستلقياً هكذا؟ أنت حتى لم تستلم عملك إلى اليوم! ما الذي تنوي فعله؟ هل تفكر بالعودة؟

تذكر(رائد) أنهَّ قد فقد ساعة الزمن منذ وصوله، فندت مِن شفتيه بسمة ساخرة وهو يرد: أنا فقط لا أشعر برغبة في أيِّ شيء الآن، ثم سرح بعينيه قبل أن يسأل: ماذا عن (سحاب)؟ هل تعتقد أننَّي أنا مَن قـ..

قاطعه (حارث) بقوله: كلا، إنها لا تعتقد ذلك، لقد شاهدت كل ما حدث بالفعل، عليك أنْ تتوقف عن لوم نفسك، ما حدث لم يكن خطؤك.

ابتسم وارتجفت شفتاه ثم سرعان ما عبس وأشاح بوجهه.

انحنى (حارث)؛ ليحمل (حياة) عنه، ثم شرع يداعبها وهو يسأل: ألم تشاهد (مياسين) بعد ما حدث؟ (كادي) أخبرتني أنَّها لم ترها منذ أنْ قبضوا عليها، أتساءل إنْ كانت بخير؛ بل أرجو أنْ تكون بخير وتعود.

هرب (رائد) بعينيه فاستدار (حارث) مغادراً وما إنْ اقترب مِن الباب حتى أوقفه (رائد) بسؤاله: (ليو)، مهلاً.

التفت إليه وإذ به يقول: لماذا أخفيت سيف (طاهر) يومها؟

وجم وجهه للحظة ثم عبست شفتاه وهو يقول: لقد شاهدتني إذن.

ثبَّت نظره عليه وقال: اسمع، لا تخبر (إيادًا) بذلك، بعض الأمور مِن الأفضل لها أنْ تبقى كما هي.

قطب (رائد) حاجبيه متسائلاً فأوضح (حارث): لقد كان (طاهر) شقيق (إياد).

شخصت عينا (رائد) غير مصدقتين فأتبع (حارث): لقد أخبرني (إياد) ذات مرة أنَّ له شقيقًا غادر وهو صغير إلى بغداد ولم يره منذ ذلك الوقت، ثم حدث لعائلة (إياد) ما حدث؛ لذا أرجوك انسَ ما رأيته ولا تخبره بشيء!

انحنت زاوية فمه بسخرية متألمة وهو يشيح بعينيه الفائضتين بالدموع إلى الجهة الأخرى ويتمتم: يا لَلسخرية!

أغلق (حارث) الباب خلفه، ولكن لم تمضِ بضع دقائق حتى فوجئ بـ(رائد) وقد بدَّل ملابسه وعبر مِن الفناء، أوقفه متسائلاً بدهشة: إلى أين؟!

نظر إليه وابتسم وهو يقول: هنالك شيء يجب عليَّ أنْ أقوم به.

*****

في الغابة الشرقية وفوق التل خرجت (مياسين) مِن الكوخ لتفاجَأ بـ(رائد) يقف أمامها، ظلت تنظر إليه ذاهلة للحظات قبل أنْ تشيح بوجهها وتنطق: هل جئت؛ لتقبض علي؟

هز رأسه نافياً ثم أجاب: بل جئتُ؛ لأشكرك.

نظرت إليه باستغراب، ثم ندت منها بسمة ساخرة وهي ترد: ما الذي تقوله؟!

اقترب منها وهو يجيب: لقد جئت؛ لأشكرك حقاً؛ لاعتنائك بـ(إياد) ورعايتك للجميع وإطعامهم.

ضحكت باستخفاف وهي تنظر للأرض ثم رفعت إليه عينيها وهي تقول: لقد كنتُ أقول عنك أحمق منذ رأيتك، ولكن لم أتوقع أنك أحمق إلى هذا الحد!

كان ينظر إليها بوجهٍ جامد فقط، وحينما لم يرد اندفعت تقول: لقد كنتُ أنفذ الأوامر فقط، لقد فعلت ذلك مِن أجل ...

قاطعها بقوله: ومع ذلك، أنا مازلت شاكر لكِ؛ لذا...

ابتعد خطوة ومال؛ ليفسح لها مجال رؤيتها لترى (إيادًا) في الأسفل وهو يمتطي الخيل.

نظرت إليه متسائلة فأوضح قائلاً: لقد أعددنا لك مكاناً في قافلة ستتجه اليوم إلى القدس، يمكنك أنْ تبقي هنالك حتى تهدأ الأوضاع هنا إنْ رغبتِ، وتجدي طريقة لتتخلصي مما في يدك.

ضحكت باستخفاف ثم وقعت عينيها على (إياد) في الأسفل، واضطربت مشاعرها وغمرتها رغبة في البكاء، ولكنها استطاعت أنْ تقاومها ونظرت إلى (رائد) وقالت: قبل ذلك، أريد أنْ اسألك سؤالاً.

اقترب منها ناظراً إليها باهتمام فسألت: ماذا عن سيدي (طاهر)؟

خفض رأسه بأسى دون أنْ يجيب؛ ففهمت، ولكنها لم تعد قادرة على كبت دموعها أكثر؛ فانفلتت سريعاً نحو شفتيها، وحينما أدركت أنَّه ينظر إليها بألم هو الآخر، استدارت وشرعت تمسح دموعها وتقاومها وهي تقول: لقد فهمت، ثم أخذت نفساً عميقاً محاولة تهدئة نفسها، ثم التفتت إليه وهي تقول بصوت خافت: سأذهب إذن، ما مِن داعٍ لبقائي هنا، ثم خفت صوتها أكثر وهي تتم: شكراً لك!

ثم مشت وعبرت مِن جواره ببطء وثقلٍ واضحين، وما إنْ ابتعدت قليلاً حتى نادها باسمها؛ فاستدارت نصف استدارة ونظرت إليه فقال: ربما لن أراكِ مرة أخرى؛ لذا... أريد أنْ أقول لك: لا تخجلي مِن مشاعرك بعد اليوم: فرحك، غضبك، حزنك، دموعك، رغباتك حتى رأيك، عبري عنه بكل قوة. إن هذا من حقك.

انكمش وجهها بتأثرٍ وأخرجت صوتاً ينم عن الموافقة، ثم استدارت؛ لتنزل التلَّ، ولكنها توقفت وقالت دون أنْ تنظر إليه: لو أنَّ كلماتك هذه قيلت لي أبكر لربما استطعت أنْ أوقف...

عضت على شفتيها؛ إذ لم تعد قادرة على النطق باسمه، لكن (رائدًا) فهم بأنَّها كانت تكنُّ لـ(طاهر) مشاعر عميقة، أسرعت بخطواتها ونزلت مِن التل، وما إنْ اقتربت مِن (إياد) حتى فوجئت به يمدُّ لها كفه وهو يبتسم بودٍّ ويقول: لنذهب.

عبست وأشاحت بوجهها، ولكنها أمسكت بكفه وصعدت، ثم انطلق بها إلى حيث القافلة، وهناك وقف؛ ليودعها فقال: أشكرك؛ لاعتنائك بي!

لوت فمها بسخرية وهي تعلق: أنت أيضاً!

لكنه تجاهل ردها وندت مِن شفتيه بسمة ودودة وهو يقول: إذا شعرتِ بالوحدة هناك، فتأكدي أنَّني سأكون هنا بانتظارك.

وجم وجهها للحظات؛ إذ لم تستوعب ما قاله؛ لذا عاد ليؤكد قوله: سأكون بانتظارك (مياسين)، ثم لوَّح بكفه لها، وابتعد خطوات إلى الوراء وهو يبتسم باتساع، وهي ما تزال تنظر إليه بذهول.

استدار ومشى بضع خطوات، ثم عاد ليستدير ناحيتها ويلوح لها بكلتا كفيه مودعاً، حينها فقط بدا لها لوهلة وكأنَّه (طاهر)، فشخصت عيناها بذهول.

خطت خطوة للأمام نحوه وهي تتمتم: لقد عرفتُ الآن لماذا لم يقتلك (طاهر).

انحدرت دموعها وأغرقت شفتيها ومع ذلك استطاعت أنْ تبتسم له وترفع كفها؛ لتودعه، وظلت تلوح له حتى استدار.

*****

كانت الليلة مقمرة، والنجوم قد تناثرت والتمعت بشدة على صفحة السماء، وقفت (مارغريت) أمام بوابة المستشفى تلتقط أنفاسها وهي تنظر لهذه السماء المنيرة،

ثم حركت عينيها حولها في الفناء والأحواض الممتدة على مدِّ بصرها، شعرت بحركة خلفها؛ فالتفتت، وإذ بـ(رائد) يقف على بعد خطوات منها، لم يتحدثا منذ ذلك اليوم؛ لذا دارت عيناه بحيرة على الأرض قبل أنْ يرفع رأسه إليها ويسأل: هل أنتِ بخير الآن؟

ابتسمت بمرارة وهي تهز رأسها نافية، ثم أدارت له ظهرها وقالت: منذ شهور كنتُ واقفة في المكان ذاته، وكانت السماء كما اليوم ممتلئة بالنجوم، وكان (حارث) يحدثني، لقد أخبرته حينها بحلمٍ رأيته، لقد رأيتك في قاعة المرجان وكان الناس حولنا يتقاتلون، ولقد حدث هذا بالفعل، ولكن بقي شيء آخر...

أدخلت يدها في جيبها والتفتت إليه، ثم أخرجتها ورفعتها أمامه، ثم أراحت كفها ليظهر ما كانت تحمله، لقد كانت ساعة الزمن، تدلى فكه بدهشة وهو يسأل: كيف؟!

حولت نظرها إليها وهي تجيب: لقد وجدتها عند أحد الباعة في السوق، وعندما ضغطتُ عليه أخبرني بأنَّه وجدها عند البحيرة.

قطب حاجبيه وهو يكرر: البحيرة!

هز رأسه مؤكداً وهو يتبع: صحيح، لقد أضعتها هناك.

قبضت عليها بكفها وقالت: إذن، أنت لا تحتاجها بعد اليوم.

أبدي إيماءات مستنكرة ومتسائلة، وسرعان ما أعطته الجواب؛ إذ رفعت يدها عالياً واستدارت؛ لتقذف بها لأبعد نقطة مِن الممكن أنْ تصلها، انعقد لسانه بدهشة وهو يشاهدها تحلق في الهواء وتبتعد عن عينيه، ثم سمعا صوت طرطشة الماء، أدركا بأنَّها قد سقطت في أحد الأحواض، همَّ بأنْ يلحق بها، ولكن ما إنْ انحنى وخطا خطوة حتى توقف ومال بعينيه نحو (مارغريت)، كانت تنظر إليه وتبتسم بإشراق، البسمة ذاتها التي شاهدها عليها أول مرة في دومدري، ظل ينظر إليها بصمتٍ وذاكرته تستدعي ذكرياته القديمة معها، عبرته ملامحُها المتعبة والملطخة بالرماد وهي تمدُّ له ساعة الزمن، ثم عينيها الممتلئتين بالدموع وهي تضع ساعة الزمن بيده

وتدفع به للمغادرة، ووجها الصارخ بالألم آخر مرة وهي تقول: لقد أدركتُ أنَّني في كل مرة تمد فيها إلي كفك كنتُ قادرة على أنْ أترك كلَّ شيء خلفي وآتي إليك.

اعتدل بجسده وخفض عينيه إلى الأرض للحظات مفكراً، ثم نطق بشرود: أنْ أبقى خاطفك، يبدو لي وكأنَّه مصير بالفعل، ثم رفع عينيه ببطء نحوها، كانت عيناها قد ضاقتا، وتراقصت الدموع بين أهدابها، رفع كفه إليها وندت مِن شفتيه بسمة خالطتها دموعه وهو يقول: لن أجعلك تنتظرينني بعد اليوم (سحاب).

خطت خطوة نحوه، ثم توقفت بعد أنْ شعرت بانفلات دموعها، فاندفعت راكضة بكلِّ سرعتها نحوه، شرع ذراعيه وضمها إليه في عناقٍ طويل بحجم مسافات الزمن ومشقة الكتمان ولهفة الشوق.

كان كلاهما يذرفان الدموع محاولاً تهدئة الآخر، تمكنت (مارغريت) مِن رفع رأسها لتنظر إليه وتقول أخيراً: أهلاً بعودتك (رائد).

نظر إليها بتأثر وهو يقول: (سحاب)، أنا الآن...

ابتسم وهو يغالب دموعه وأتم: قادرٌ على أنْ أبقى عالقاً في الزمن إلى الأبد، ثم عاد ليضمها إليه مجدداً.

صوت نايٍ سمعته أذنا (مارغريت)؛ فرفعت رأسها مندهشة، ثم راحت تنظر في كل اتجاه حولها وهي تنطق متسائلة: صوت ناي؟!أسمعت؟

أدار (رائد) رأسه مستطلعاً هو الآخر ولكن لم يصله شيء، هز رأسه نافياً وهو يقول: لم أسمع، لكن عبرته ذكرى قديمة جعلت شفتيه تتسعان عن بسمة ماكرة وهو يعلق: من المؤكد أنَّك قد سمعت صوت عازف المزمار.

لوت شفتيها بغيظ وهي ترد: ما الذي تلمح إليه؟!

أبدى إيماءات مرعوبة وهو يشير أمامه ويقول: إنَّه هناك، اختبئي.

رمقته باستخفاف ولكنها مع هذا استدارت؛ لتنظر لكنها فوجئت به يسحبها مِن ذراعها ويديرها إليه معانقاً مرة أخرى، وما إنْ استوعبت حتى دفعته وهي تعلق: لقد تظاهرت بذلك؛ لتعانقني مجدداً فقط!

ابتسم باتساع ثم قال: لقد اشتقتُ إليك كثيراً (سحاب)! هذا ما أردتُ قوله منذ عدت إلى هنا.

ظلت تنظر إليه وهي تبتسم له موافقة.

*****

لا أحد يعلم كيف أصبح ذلك الحوض الذي سقطت فيه ساعة الزمن مكاناً تُلقى فيه العملات الفضية كعامود ميدوسا في القصر المغمور، لقد امتلأ بالعملات إلى الحد الذي لم يعد أحدٌ قادراً على رؤية الساعة وهي تومض.

رباعية العالق في الزمن تمت.